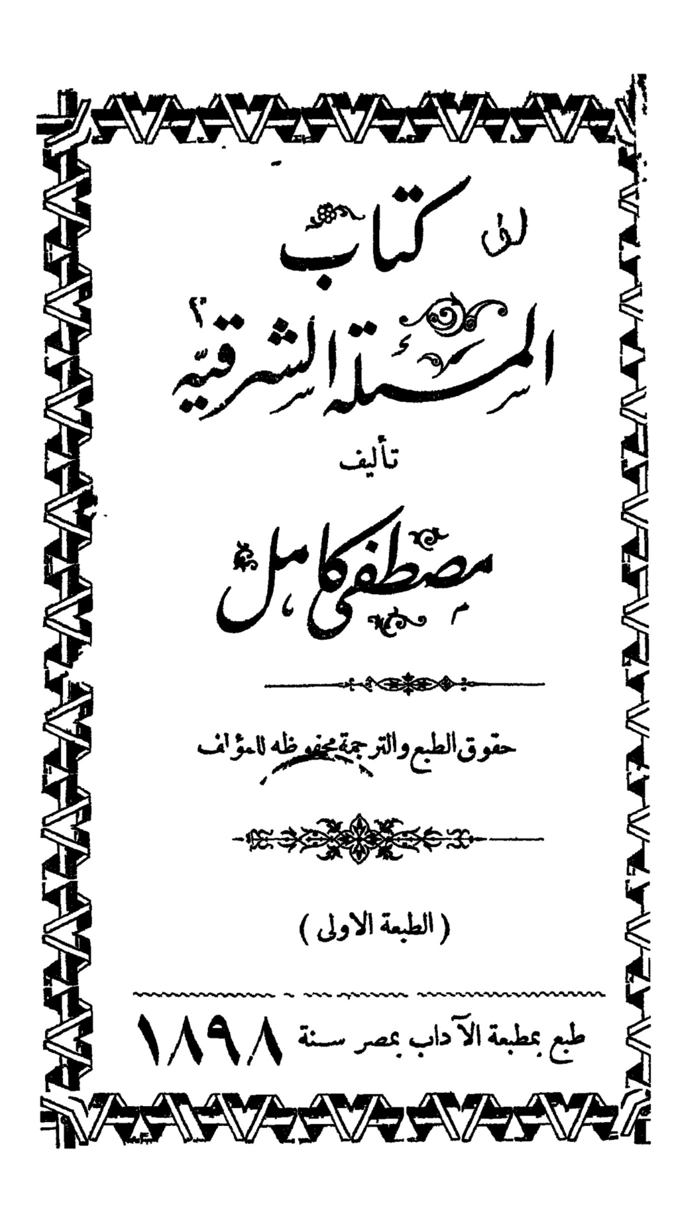
3743



كتاب المسألة الشرقية

تأليف

مصطفى كامل

(الطبعة الاولى)

طبع بمطبعة الآداب بمصر سنة ١٨٩٨



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على نبيه خير الانبياء والمرسلين . { وبعد }
فقد شهد هذا العام فوز الدولة العلية فى حربها مع اليونان فوزا عظيما وانتصارها نصرا مبينا ورأى العالمون بين أصدقاء للدولة وأعداء براهين حياتها ودلائل شبيبتها . فانتعشت نفوس أبنائها وأصدقائها وطمس الله على قلوب خصومها وأعدائها حيث قضى لها بما قضى من الفوز والنصر والسمو والرفعة

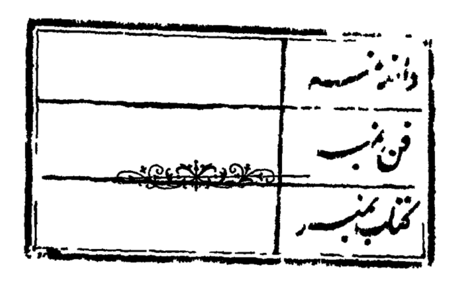
وقد طلب منى بعد انتهاء الحرب بعض أصدقاء يحسنون الظن بشخصي الضعيف ان أكتب تاريخ هذه الحرب الشهيرة فأجبت الطلب لا عن شعور بمقدرتى على ذلك بل عن سرور جزيل وحبور نادر المثيل بما نالت الدولة العلية حماها الله

وقد أحببت أن أقدم للقراء الكرام قبل تاريخ الحرب ملخصاً عن المسئلة الشرقية التى هي موضوع اشتغال الشرقيين والغربيين . وانى أسأل القراء الكرام عذراً اذا كنت اضطررت للايجاز فى بيان المسئلة الشرقية فقد قضي عليّ الوقت بذلك . وأؤمل العودة لموضوعها فى فرصة أخرى مع بيان أوفى وأشفي

واني أضرع الى الله فاطر السموات والارض من فؤاد مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العلية القـوة الابدية والنصر السرمدى ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر في سؤدد ورفعة . وأن يحفظ للدولة العثمانية حامى حماها وللاسـلام أمامه وناصره جلالة السلطان الاعظم والخليفة الاكبر الغازى (عبدالحميد الثانى) وأن يحفظ لمصر في ظل جلالته عزيزها المحبوب وأميرها المعظم سمو الخديو (عباس حلمى باشا الثانى) ان ربي سميع مجيب

مصر في شعبان سنة ١٣١٥ — يناير سنة ١٨٩٨

(مصطفى كامل)





المسئلة الشرقية

اتفق الكتاب والسياسيون على ان المسئلة الشرقية هي مسئلة النزاع القائم بين بعض دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها وبعبارة أخري هى مسئلة وجود الدولة العلية نفسها فى أوروبا .
وقد قال كتاب آخرون من الشرق ومن الغرب بأن المسئلة الشرقية هي مسئلة النزاع المستمر بين النصرانية والاسلام أي مسئلة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الاسلام وبين دول المسيحية . الا أن هذا التعريف وان كان فيه شيء من الحقيقة فليس بصحيح تماما . لأن الدول التى تنازع الدولة العلية وجودها لا تعاديها باسم الدين فقط بل فى الغالب تعاديها طمعا فى نوال شيء من أملاكها . وقد أرانا التاريخ أحوالا كثيرة لم يستعمل الدين فيها الا سلاحا أو وسيلة لنوال غرض جوهري فهو ستار تختفي وراءه أغراض شتى وأطماع مختلفة

والذى يراجع تاريخ الدولة العلية ويقلب صحائف أمورها من أول وجودها الى اليوم يري ان المسئلة الشرقية نشأت مع الدولة نفسها . أى انه منذ

وطأت أقدام الترك ثرى أوروبا وأسسوا دولتهم الفخيمة قام بينهم وبين بعض الدول الاوروبيـة النزاع الشديد ودارت الحروب العديدة . وبالجملة فانه منذ ظهرت صولة الترك في أوروبا أخذت بعض الدول على عهدتها معاداة الدولة ومطاردتها والعمل على اخراجها من هاته القارة . ولـكنها أعمـال حبطت وآمال خابت إذ أصبح أمر بقاء دولة آل عثمان من أول الامور الضرورية اللازمة لسلامة بنى الانسان

وقد وهب الله الدولة العثمانية سلطة عالية ورهبة عظيمة حينا طويلا من الزمان فاخضعت لسلطانها الامم والدول وأرهبت بقوتها وعظمتها كل قوى وكل عظيم ورفعت رايتها الهلالية الجليلة على أصقاع شاسعة وأقطار واسـعة ، فابقت فتوحاتها وانتصاراتها في نفوس الامم المقهورة بغضاء كامنة وعداوة لدودة . فـكان ذلك السبب الاول فى الحروب العديدة التى وجهت ضدها وأقيمت في وجهها

ولـما كانت البلاد الواقعة تحت سلطة الدولة العلية من أجمل بلاد العالم وأغناها فقد تاقت نفوس أصحاب الدول الاوروبية لاخراج الترك من هذه البلاد وتقسيمها بينها . فـكانت هـذه الدول تحارب الدولة العلية بأمل تقسيمها شيأ فشيأ والاستيلاء على أجزائها جزأ فجزأ ، وهـذا هو سبب آخر لعداوة بعض الدول الاوروبية للدولة العلية

واذا دققنا النظر فى سبب العـداوة المشهور وهو مسئلة الدين وجدنا ان الدولة العلية هى الدولة الوحيدة فى دول الارض الـتي عاملت رعاياها الذين يدينون بغير دينها بالتسامح والتساهل والاعتدال. فقد اتبعت أوامر

الشرع الشريف وتركت للمسيحيين حرية دياناتهم وعوائدهم وتقاليدهم واحترمت عقائدهم كل الاحترام. فعاشوا طويلا ممتعين بهاته الحرية على حين ان مسيحيي اسبانيا قتلوا المسلمين لانهم مسلمون وهتكوا أعراض نسائهم وحرمة بيوتهم ومارحموا انسانا

ولم تكتف الدولة العلية حماها الله بحسن معاملة المسيحيين واحترام أديانهم وعقائدهم بل عاملتهم كأعز أبنائها المسلمين ولم تميز بين هؤلاء وبينهم وسلكت مع الكل طريق المساواة وعينت الكثيرين من المسيحيين فى المناصب السامية والوظائف العليـة وإئتمنتهم على أمورها وجعلتهم محل ثقتها . وبقاء المسيحيين الي اليوم فى الدولة العليـة اكبر شاهد على اعتدالها الديني فى الماضي وفى الحاضر بل بقاء الجنسيات المختلفة كالبلغار والصرب واليونان وغيرها دليل ساطع وبرهان قاطع على أن الدولة العلية احترمت من نفسها وبمحض إرادتها دين الذين وقعوا تحت سلطتها ولم تقهر أحداً على اعتناق الدين الاسلامي. ويعترف الكتاب والمؤرخون جميعاً بل ويعترف كل انسان فى الوجود مجرد عن الغرض الاعمى ان الدولة العلية كان في قدرتها يوم كانت أقوى دول الارض أن تجبر كل المسيحيين فى بلادها على اعتناق دين الاسلام أوأن تطردهم من أراضيها اذا خالفوا رغبتها . ولكنها احترمت الشرع الشريف فاحترمت الدين المسيحي وأصحابه

وهي حقيقة يقررها التاريخ وينطق بها كل منصف محب لها . ولكن من غرائب أحوال هذا الوجود أن هذه الفضيلة السامية وهذه المكرمة

الفريدة كانت أكبر سبب لكل مالحق الدولة العلية من الضرر والاجحاف وأصلا لكل ماحل بها من المصائب والبلايا . فاحترامها لعقائد المسيحيين على اختلاف أنواعهم أقام أمامها بعض دول أوروبا بحجة المسيحيين أنفسهم وكان سببا لحروب جمة

فمسئلة اختلاف الدين في الدولة العلية التي هي نتيجة الاعتدال الديني والعدل والانصاف كانت ولا تزال الداء الدفين الذى يهدد حياة الدولة من وقت الى آخر . فتداخل الدول الاوروبية فى شؤون الدولة العلية باسم المسيحيين المحكومين بها. ومضايقة أوروبا الدولة باسم هؤلاء المسيحيين واضطرابات الدولة تقوم باسم هؤلاء المسيحيين . والانذارت التى توجه للدولة توجه باسم هؤلاء المسيحيين بل وأغلب الحروب التى جرت مع الدولة جرت باسم هؤلاء المسيحيين . ويعلم الله انهم سعداء الحظ في الدولة العلية وان تداخل أوروبا بحجة نصرتهم لالزوم له البتة

ولو أنصفت الدول الاوروبيـة قليلاً لاعترفت بهذه الحقيقة الواضحة وهى ان المسيحيين فى الدولة العلية لاينقصون عن المسلمين في حسن المعاملة ان لم يكونوا من الراجحين . وهاهم اليهود لايثورون ولايهيجون ولايشتكون ولايتألمون بل يحمدون الدولة ليلا ونهاراً في السراء والضراء ويسبحون في كل آونة بنعمها عليهم وحسن رعايتها لهـم . وما ذلك الا لأنه لايوجد في الدول الاوروبية دولة تدعى الدفاع عنهم والعمل لمصالحهم فهم ليسوا بآلات فى الدولة ضد الدولة بل هم يعرفون من أنفسهم انهم عثمانيون ممتعون بكل الحقوق العثمانية ، أما العناصر التى كالارمن تستعملها

بعض الدول كانكلترا فهى تثور بعوامل الدين وبدسائس دينية . وقد ثبت ذلك جليا فى المسئلة الارمنية وشوهد ان الارمن الكاثوليك كانوا على سكينة تامة بينما كان البروتستانت يثورون ويدبرون المكائد ضد الحكومة العثمانية

فمسئلة الدين فى الدولة العلية هي الآلة القوية التي يستعملها أصحاب الدسائس والغايات وأولئك الذين يثورون بد سائس أعداء الدولة انما يثورون ضد أنفسهم ويقضون على حياتهم وسعادتهم بعبثهم وجنونهم واتباعهم لاوامر أعداء الدولة المحركين لهم . فالذين ماتوا من الارمن فى الحوادث الارمنية انما ماتوا فريسة الدسائس الانكليزية . والذين ماتوا فى كريد ماتوا فريسة الدسائس الانكليزية . بل والذين ماتوا من جنود اليونان فى تساليا ماتوا فريسة الدسائس الانكليزية نفسها ومن يعمل بنصيحة أعداء الدولة ويتبع أوامرهم فجزاؤه ما نال الارمن واليونان

وبديهي ان دولة مثل دولة انكلترا التي تدعي محبة المسيحيين في الشرق والعمل لراحتهم وسعادتهم لو كانت صادقة فى دعواها لرأت من الواجب عليها ان تصافى الدولة العلية حتى تنال منها متمناها بشأن المسيحيين . والا فمن الجنون في السياسة ان تدعى انكلترا محبة المسيحيين ثم تعادى الدولة العلية القابضة بيديها على زمام أمور المسيحيين . فهل يقبل العقل البشري ان دولة قوية كالدولة العلية تعمل فى بلادها على خلاف رغبتها وتنيل أصدقاء الانكليز أى أصدقاء ألد أعدائها الراحة والسعادة والهناء ؟ هل يقبل العقل البشري ان المسيحيين المدافعة عنهم انكلترا يعادون المسلمين ثم يسألونهم معاملتهم بالرقة واللطف وحسن العناية بهم ؟

ان الاتفاق والوفاق بين المسلمين والمسيحيين فى الدولة العلية لا يكون نتيجة الضغط والقوة بل نتيجة الميل المتبادل وحسن النية من الجانبين والاخلاص والوفاء للدولة العلية . واذا كانت دول اوروبا تريد حقيقة سعادة المسيحيين فى الشرق فأول واجب عليها هو ان تأمرهم لامتثال لاوامر الدولة والتعلق بها والاخلاص فى خدمتها. والا فالدولة أو فالدول العاملة على القاء بذور الشقاق والعداوة بين المسلمين والمسيحيين لا تجنى ويستحيل ان تجني شيئاً آخر غير العداوة المرة والخصومة الشديدة

وغنى عن البيان ان المسلمين في الدولة العلية متي رأوا فريقا من اخدانهم المسيحيين يعمل بأوامر الاجنبي عدوه خائنا للوطن العثمانى ناكثا لعهد الدولة العثمانية أى عدوا دخيلا في الوطن والملة والدولة . ووجب عليهم العمل ضده بكل ما فى استطاعتهم قياماً بواجباتهم الوطنية . وهذا هو الشأن فى كل أمم العالم فلو فرضنا ان فريقا من الانكليز قام يوما ما فى انكلترا باحداث الاضطرابات والثورات تنفيذا لاوامر دولة أجنبية كالروسيا أو المانيا أو فرنسا . فأي واجب يحتمه الوطن عندئذ على بقية الانكليز ؟ أليس القضاء على هؤلاء الخونة المنفذين لاوامر دولة أجنبية بكل الوسائل

القائمون بالثورات والاضطرابات فى الدولة العلية خونة منفذون لاوامر أعداء الدولة يجب على العثمانيين الصادقين اعلان العداء لهم والانتقام منهم بكل ما في الجهد والاستطاعة

ويستحيل الوصول كما قدمنا الى الاتفاق السليم الصحيح بين المسيحيين والمسلمين فى الدولة العثمانية الا باخلاص الجميع لها اخلاصا تاما

هذه هي الحقيقة وحدها دون غيرها

واذا كان اختلاف الدين في الدولة العلية هو داء من أدوائها بل هو أكبر أدوائها فالدخلاء في الدولة العلية داء عضال وبلية لا يعادلها بلية . فان الذين كانوا سببا في هزيمة الدولة في حروب مختلفة هم الدخلاء والذين ساعدوا الدسائس الاجنبية هم الدخلاء . فلقد دخل في جسم الدولة العلية كثير من الاجانب نساء ورجالا وغيروا أسماءهم باسماء اسلامية وعملوا على الارتقاء في المناصب حتى وصل بعضهم الى أسماها وصاروا من أقرب المقربين فعرضوا بالدولة للدمار وأطلعوا أعداءها على أسرارها . وقد انتشر الدخلاء في الزمن السالف في كل فروع الدولة العلية حتى في الجيش نفسه وصارت لهم سلطة عظيمة ونفوذ كبير وكنت تجد من وزراء الدولة العلية من يعمل لصالح الروسيا مدعيا انه روسي السياسة ومن يعمل لصالح انكلترا مدعيا انه انكليزي السياسة ولكن ليس منهم من كان عثماني السياسة

ولولا ان الامة العثمانية أمة حية قوية عظيمة الشهامة والوطنية لكانت تلاشت اليوم بدسائس الدخلاء ولو كان للدخلاء في دولة أخرى ما كان لهم في الدولة العلية من السلطة والحول لكانت تقوض بنيانها وتداعت أركانها . وان أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان ووجه عنايته لابطال مساعي الدخلاء وتطهير الدولة من وجودهم هو جلالة السلطان الحالي . فانك تعلم من حرب سنة ١٨٧٧ وما جرى فيها ان الدخلاء بلية البلايا في الدولة ومصيبة المصائب . فعمل بحكمته العالية على تبديد قوتهم وتربية الرجال الذين يرفعون شأن الدولة ويعملون

لاعلاء قدرها . وقد برهنت الحرب العثمانية اليونانية على ان للدولة اليوم رجالا من أبنائها الصادقين يخدمونها بالامانة والوفاء ويتفانون فى محبتها وأن ليس للدخلاء من سبيل لنوال مآربهم السيئة . فأمثال صاحب الدولة « أدهم باشا » الذى كان مجهول الاسم عند الكثيرين من العثمانيين قبل الحرب كثيرون في الدولة العلية تظهرهم الحوادث وتعرفنا بهم وبقدرهم المشكلات

وان أغرب شيء فى أحوال الدولة العلية وفي تاريخها يدهش أعداءها ويحير الكتاب الكارهين لها هو بقاؤها حية بعد كل المصائب التي تساقطت عليها والبلايا التى نزلت بها . فلقد رأت هذه الدولة العثمانية مالم تره دولة من دول الارض القديمة والحديثة فقد كانت تتحالف معها بعض الدول كالنمسا مثلا وتعمل وهى متحالفة معها على الاتفاق مع الروسيا على تقسيمها . وقد كانت تتظاهر انكلترا لها بالصداقة والوفاء وتسعي وهى متظاهرة كذلك على ضياع أملا كها من يديها وسقوطها في قبضتها . وقد كانت دول أوربا كلها تجتمع وتتحد على ما تسميه بالمبدأ المقدس مبدأ حماية استقلال الدولة العلية وسلامتها: ثم كانت هى بعينها أوروبا تجزي الدولة العلية باسم هذا المبدأ المقدس نفسه. وقد كان العاملون على تقويض أركان الدولة وحلها عديدين أقوياء . ومع ذلك كله لا تزال الدولة العلية حماها الله قوية ثابتة الاركان تخافها أقوى الدول ويخطب ودها أمبراطور شهد العالم كله بقوته وعظمته وبأسه

ولقد يندهش الانسان غاية الاندهاش عند مايقرأ ما كان يكتب من

نحو مائة وعشرين سنة عن الدولة العلية ، فقد كان الكتاب والسياسيون يتناقشون في مشروعات تقسيمها فالبعض كان يريد ان يؤسس مكان الدولة العلية دولة « الاتحاد البلقاني » والبعض الآخر كان يريد اعادة ملك بيزانتان وكان سياسيو الروسيا والنمسا يتباحثون فى مشروع تقسيم الدولة بين دولتيهما فكل كان يضع مشروعا والجميع كانوا متفقين على ان الدولة قصيرة الاجل وأ كثرهم أملا في حياتها كان يجوز عليها فى مشروعه بعشرة من السنين أو عشرين عاما . ولو بعث اليوم من القبور كتاب أواخر القرن الماضي وسواسه ورأوا الدولة العليـة قائمة عزيزة تحارب فى آخر القرن التاسع عشر وتنتصر وتجتاز العقبات عقبة بعـد عقبة وتصرف المصائب مصيبة بعد أخرى لكذبوا أعينهم وما صدقوا بالحقيقة

ولكن الحقيقة هى ان بقاء الدولة العلية ضرورى للنوع البشرى وان في بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق . وان الله جلّ شأنه أراد حفظ بنى الانسان من تدمير بعضـهم البعض ومن حروب دينية طويلة بحفظ سياج الدولة العليـة وبقاء السلطنة العثمانية . فقد لاقت هذه الدولة العثمانيـة فى حياتها الطويلة اخطارا هائلة كانت تكفى لتداعى بنيان أقوى الممالك . ومرت عليها ملمات كانت تنـدك لهـا الدول القوية والممالك القاهرة بدون ان تمس حياتها الحقيقية بسوء بل بقيت حية تدهش العالم بشبيبتها

وقد أحس الكثيرون فى أوروبا من رجال السياسة ومن رجال الاقلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن العام وان زوالهـا (لا قدر الله)

يكون مجلبة للاخطار أكبر الاخطار ومشعلة لنيران يمتد لهبها بالارض شرقها وغربها شمالها وجنوبها . وان هدم هذه المملكة القائمة بأمر الاسلام يكون داعية لثورة عامة من المسلمين وحرب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية الا معارك صبيانية

وان الذين يدعون العمل لخير النصرانية فى الشرق يعلمون قبل كل انسان أن تقسيم الدولة العلية أوحلها يكون الضربة القاضية على مسيحي الشرق عموما قبل مسلميه . فقد أجمع العقلاء والبصيرون بعواقب الامور على أن دولة آل عثمان لا تزول من الوجود الا ودماء المسلمين والمسيحيين تجري كالانهار والبحار فى كل واد

وهى الملمة التى يجب على محبي الانسانية الصادقين فى محبتهم العمل لمنع وقوعها ودفعها بتعضيد الدولة العلية وتقوية سلطانها

ولقد اعتقدت الآن الروسيا كما اعتقدت النمسا — وقد كانتا العدوتين القديمتين للدولة العلية — بأن تقسيم الدولة العلية أمر مستحيل فعملت كلتاهما على المحافظة على السلام العام بالمحافظة على سياج الدولة العثمانية

فقد رأت النمسا ان حروبها مع الدولة العلية أضرتها ضررا بليغا وظهرت النتائج المشؤومة لهذه الحروب . فقد ضعفت النمسا من حروبها مع الدولة العلية وانتهى بها الامر ان فقدت أملاكها الايطاليـة التي تكونت منها ايطاليا الحالية وفقدت كذلك امام بروسيا جزأ عظيما من مقاطعاتها الالمـانية

ولقد عملت النمسا فى عهد عداتها للدولة العليـة على تهييج أمم البلقان ضد السلطنة السنية باسم مبدأ الجنسيات لانها بصفتها دولة كاثوليكية كان

لايمكنها ان تهيج هذه الامم الارثوذكسية باسم الدين . فكانت نتيجة تهييج النمسا الامم البلقان باسم الجنسيات وبالاعليها. وذلك ان مبدأ الجنسيات نفسه وجد أنصارا كبارا فى قلب المملكة النمساوية فقامت المجر ونالت حريتها واستقلالها النوعي باسم مبدأ الجنسية المجرية . وهاهى أمة البوهيم قائمة اليوم بالمطالبة باستقلالها النوعي باسم مبدأ الجنسية البوهيمية . وقد أصبح من الظاهر للعيان ان دولة النمسا تنازع نزاع الموت فى الايام الحالية بفضل مبدأ الجنسية

أما الروسيا فقد قامت دائما في المسئلة الشرقية باسم الدين الارثوذكسي فعمات لاخراج الرومانيين واليونانيين والصربيين والبلغاريين وأهل الجبل الاسود من تحت سلطة الدولة العلية باسم الدين الارثوذكسى . فنشأ عن ذلك مع استقلال هذه الامم الصغيرة عداوة شديدة بينها وبين بعضها لما وجدت فى نفسها من الطمع لتوسيع دائرة أراضيها . ذلك فضلا عن ان الكنيسة اليونانية التي هي أم الكنائس الارثوذكسية أصبحت غير معتبرة عند البلغاريين والصربيين . والنزاع الدائم بين هذه الجنسيات المختلفة فى مقدونيا يبين جيدا درجة عداوتها لبعضها ودرجة الخطر الذي صارت اليه بلاد البلقان بسبب مسئلة الجنس والدين

واذا بحثنا فيما اكتسبته الروسيا من حروبها مع الدولة العلية نجد انها عادت تركيا قرنا ونصف قرن وحاربتها المرار العديدة وفقدت الرجال والمال بكثرة عظيمة في كل حرب . ولم تنل في الحقيقة من كل حروبها الا بلاد القرم والقوقاز . وقد رأت الروسيا مالم تكن تظنه أبدا وهو

ان بعض البلاد الصغيرة التى حررتها كصربيا و بلغاريا واليونان ورومانيا عادتها أشد العداء .ولا تزال صربيا ورومانيا واليونان سائرة فى سياسة لا ترضى الروسيا . وعلى الاخص رومانيا التي تمكن بينها وبين المانيا والنمسا والدولة العلية الصفاء والوداد.ولم تعتدل بلغاريا نفسها فى سياستها مع الروسيا الا فى هذه السنين الاخيرة من يوم اعتناق البرنس بوريس ولى عهد بلغاريا للدين الارثوذكسي

وقد رأت الروسيا من جهة ان حروبها مع الدولة العلية لا تفيد غير انكلترا التي قوى مركزها فى آسيا وفى الشرق الاقصي والتى لها أعظم مصلحة في اضعاف قوة الروسيا واضاعتها الوقت والمال والرجال فى حروبها مع الدولة العلية . ورأت كذلك من جهة أخرى انه يستحيل عليها أن تأخذ الاستانة وتنفذ وصية بطرس الاكبر لما تلاقيه في القيام بهذا الأمر من قبل الدولة العلية ومن دول اوروبا نفسها وفي مقدمتها فرنسا حليفتها . ولذا فضلت الروسيا الاهتمام بمسائل الشرق الاقصى ومسالمة تركيا . وقد تحقق العثمانيون من هذه المسالمة فى المسئلة الارمنية وفى مسئلة الحرب الاخيرة

وقد شهد السياسيون بأنه لا يوجد في تاريخ علاقات الدولة العلية مع الروسيا مثال للمسالمة والصداقة مثل التلغراف الذى بعث به جلالة القيصر الى جلالة السلطان يرجوه فيه أن يصدر أمره بايقاف الحرب مع اليونان

أما الدولة التى أصبحت فى هذه السنين الاخيرة حاملة لراية العداوة ضد الدولة العلية فهي انكلترا عدوة الاسلام وعدوة مصر

فلقد قضت هذه الدولة أزمانا طويلة ظهرت فيها للدولة العلية بمظهر الصديقة الوفية والحليفة الامينة . وكانت تكسب من هذه الصداقة الكاذبة بقدر ما كانت تخسر تركيا . فان لانكلترا مصلحة عظمى دائمة في ان الروسيا تحارب تركيا لتضعف قواها فلا تستطيع مطاردة الانكليز فى الهند والشرق الاقصي ولتضعف تركيا فتستولى انكلترا على شيء من أملاكها بحجة الدفاع عنها . وفوق ذلك فان انكلترا كسبت كثيرا من صداقة تركيا لها — بقطع النظر عن المكاسب المادية والتجارية والصناعية — بما كانت تنيلها هذه الصداقة من النفوذ عند المسلمين ومن السلطة التامة على مسلمى الهند . فلقد كاد أهل الهند يطردون الانكليز من بلادهم فى ثورة سيباي الشهيرة لولا صداقة تركيا لهم هذه الصداقة التى حملت المرحوم السلطان (عبدالمجيد) على اصدار منشور لمسلمى الهند أمرهم فيه بالركون الي السكينة والهدو وعدم القيام باحداث الاضطرابات ضد حكومة صديقته « ملكة بريطانيا »

فاذا كان الانكليز فى الهند قد عاشوا طويلا آمنين شر المسلمين فما الفضل فى ذلك الا للدولة العلية . وهاهم اليوم يدعون ان تركيا « عدوتهم الحالية » وصديقتهم القديمة أوعزت الى الهنود المسلمين بالثورة فثاروا ولا يزالون ثائرين . وسواء كانت ثورتهم بايعاز من تركيا — وهو مالا أظنه لان الثورة قائمة بها قبائل معلومة ولو كانت الدولة العلية أوعزت بالثورة لثار مسلمو الهند جميعا — أو بايعاز من ضمائرهم ونفوسهم . فدعواهم هذه دليل ساطع على انهم استفادوا كثيرا من تظاهرهم بالصداقة للدولة

العلية . وان اشهارهم العداوة لتركيا لا يضر الا بهم

ولقد أدركت الحكومة العثمانية من يوم ان تولي أمور الدولة العلية جلالة السلطان الاعظم (عبدالحميد الثاني) ان انكلترا خداعة في ودها وانها تضر بمن تتظاهر لهم بالصداقة أكثر مما تضر باعدائها الظاهرين . فقد أخذت من الدولة العلية قبرص بدعوى مساعدتها ضد الروسيا في مؤتمر برلين ثم دخلت المؤتمر وخرجت منه بدون ان تستفيد تركيا من هذه المودة الانكليزية الكاذبة أقل فائدة . بل ان الدولة العلية فقدت في هذا المؤتمر مالم تفقده قط في مؤتمر آخر

وقد شعرت الروسيا كذلك بعد حرب سنة ١٨٧٧ انها لا تستفيد من حروبها مع تركيا مايعوض عليها خسائرها العظيمة في هذه الحروب فقضلت سياسة مسالمة الدولة على سياسة العداء . فكان هذا التاريخ مبدأ للشقاق والعداوة بين الدولة العلية وبين انكلترا . وقد ظهرت هذه العداوة بمظهرها التام الواضح بعد احتلال الانكليز لمصر . حيث رأى جلالة السلطان في هذا الاحتلال وفي خطة الانكليز فيه وفي خداعهم لجلالته ماعلم منه ان الانكليز لا صديق لهم وانهم أكبر أعداء تركيا وان صداقتهم القديمة المزعومة لم تكن الا حجابا ستروا وراءه عداوتهم المرة وأطماعهم الشديدة ضد دولة آل عثمان

ومن ذلك الحين عملت انكلترا على دس الدسائس ضد السلطنة السنية في كل انحاء الاملاك المحروسة فأهاجت الارمن والكريديين والدروز . ولكن دسائسها لم تأت بغير نتيجة واحدة . وهي اضعاف هذه العناصر التي اتخذتها

انكلترا آلات لها واظهار قوة الدولة العلية أمام الملأ كله . وقد علمت اليوم كل العناصر على اختلافها وجميع الامم صغيرة كانت أو كبيرة ان عدو اليونان الحقيق ليس بتركيا التي صبرت على رذائلها طويلا بل انكلترا التي شجعتها على الحرب وساعدتها في السر والجهر وملأت مقدونيا من الاسلحة والدنانير الانكليزية مؤملة قيامها في وجه تركيا أثناء الحرب فخابت آمالها وحبطت مساعيها ورجعت مخذولة خذلانا سياسيا دونه خذلان اليونان الحربي

وقد حسب الانكليز أنهم يبلغون متمناهم من مصر ووادي النيل ويضعون بذلك أيديهم على الحجر الاساسي للخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية . ولكن مالا ريب فيه هو أن نصيبهم في مصر الفشل عاجلا أو آجلا . ولا يغرن القراء سيرهم الحالي في بلاد وادي النيل فانما هو نتيجة ضعف رجال مصر الذين سلمت اليهم مقاليد الامور . واستيلاء الانكليز على الادارات المصرية لا يؤثر مطلقا على جوهر المسئلة نفسها . وحيث فشل نابليون الاول يفشل الانكليز ولا محالة

وقد علمت انكلترا ان احتلالها لمصر كان ولا يزال ويكون مادام قائما سببا للعداوة بينها وبين الدولة العلية وان المملكة العثمانية لا تقبل مطلقا الاتفاق مع انكلترا على بقائها في مصر . اذ ان مسئلة مصر بالنسبة لتركيا والخلافة تعد مسئلة حيوية . ولذلك رأت انكلترا أن بقاء السلطنة العثمانية يكون عقبة أبدية في طريقها ومنشأ للمشاكل والعقبات في سبيل امتلاكها مصر . وان خير وسيلة تضمن لها البقاء في مصر ووضع يدها على وادي النيل هي هدم السلطنة العثمانية ونقل الخلافة الاسلامية الى أيدي رجل

يكون تحت وصاية الانكليز وبمثابة آلة في أيديهم .. ولذلك أخرج ساسة بريطانيا مشروع الخلافة العربية مؤملين به استمالة العرب لهم وقيامهم بالعصيان فى وجه الدولة العلية . ولكن العرب وغير العرب من المسلمين أرشد من أن يخدعهم الانكليز بعدما مر من الامور وما جرى من الحوادث . ولذلك أيضا كنت تري الانكليز ينشرون فى جرائدهم أيام الحوادث الارمنية مشروع تقسيم الدولة العلية حماها الله جاعلين لانفسهم من الاملاك المحروسة مصر وبلاد العرب أي السلطة العامة علي المسلمين

والذى يبغض الانكليز على الخصوص فى جلالة السلطان الحالى هو ميله الشديد الى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الاسلامية . وهو أمر يحول بينهم وبين أسمي أمانيهم أى ايجاد الشقاق بين المسلمين وبعضهم وخروج بعض المسلمين على السلطنة العثمانية . ومن ذلك يفهم القاري سبب اهتمام الانكليز بالافراد القليلين الذين قاموا من المسلمين ضد جلالة السلطان الاعظم وسبب مساعدتهم لهم بكل مافى وسعهم

وان انكلترا تعلم علم اليقين انها لو استطاعت أن تجعل خليفة المسلمين تحت وصايتها أي آلة لها يكون لها سلطة هائله ونفوذ لاحدله في سائر انحاء المعمورة . فانها تستطيع عندئذ (لا قدر الله) ان تنفذ رغائبها عند المسلمين التابعين لها وغير التابعين بواسطة هذا الخليفة . ولذلك فهي بعملها على هدم السلطنة العثمانية تعمل على شىء في غرض بعيد هو أكبر اغراضها وأمنية سياسية دونها كل الاماني

وكما ان مشروع الاستيلاء على السودان بواسطة مصر هو من المشروعات القديمة عند الانكليز — ويثبت ذلك ارسال غوردون وساموبل باكر الي آخر السودان بواسطة حكومة مصر التي أحسنت الظن بالانكليز — فان مشروع جعل الخلافة الاسلامية تحت وصاية الانكليز وحمايتهم هو مشروع أبتكره الكثيرون من سواسهم منذ عهد بعيد . وقد كتب كتاب الانكليز فى هذا الموضوع ومنهم المستر بلانت المعروف في مصر فقد كتب كتابا قبل احتلال الانكليز لمصر فى هذا المعني سماه { مستقبل الاسلام } وأبان فيه أغراض حكومة بلاده وأماني الانكليز فى مستقبل الاسلام وقد كتب فى فاتحة كتابه

لا تقنطوا الدر ينثر عقده ليعود أحسن فى النظام وأجملا

أى ان هدم السلطنة العثمانيــة لا يضر بالمسلمين بل ان هــذا العقد العثماني ينثر ليعود عقدا عربيا أحسن وأجمل ! — ولكن مالم يقله المستر بلانت هو ان قومـه يريدون هـذا العـقد العربي في جيـد بريطانيا لافي جيد الاسلام !!

ويبين المستر بلانت فى كتابه هذا قوة العالم الاسـلامى وكيف ان المدير لاموره يكون قويا واسع السلطة ويبين كذلك مشروع نابليون الاول وكيف انه أراد ان يكون خليفة المسلمين وان يقود قواهم — وهو يريد بذلك استلفات أنظار قومه الى مشروع هم القائمون به الآن ويبين المستر بلانت أيضا ان مركز الخلافة الاسلامية يجب ان يكون مكة وان الخليفة فى المستقبل يجب ان يكون رئيسا دينيا لا ملكا دنيويا ، أي ان الامور الدنيوية

تترك لانكلترا تدبر أمورها كيف تشاء ! ويعقب المستر بلانت ذلك بقوله «ان خليفة كهذا يكون بالطبع محتاجا لحليف ينصره ويساعده وما ذلك الحليف الا انكلترا ! » وبالجملة فحضرة المؤلف لكتاب مستقبل الاسلام يرى - وما هو الا مترجم عن آمال أبناء جنسه - أن الاليق بالاسلام أن ينصب انكلترا دولة له ولم يبق للمستر بلانت الا ان يقول بأن الخليفة يجب أن يكون انكليزيا ! !

يتضح جليا للقارىء مما قدمناه ان ليس للسلطنة العثمانية وبالطبع للخلافة الاسلامية فى هذه الايام عدو يجاهر بالعدوان لها ويعمل على دك أركانها وتقويض بنيانها غير انكلترا . ويمكن تعريف المسئلة الشرقية اليوم بأنها مسئلة النزاع القائم بين انكلترا وبين بقية دول أوربا بما فيها الدولة العلية . فان معاداة انكلترا للدولة العليه هى في الحقيقة معاداة لكل المسيحيين ولكل المسلمين أي للعالمين الغربى والشرقى

وان واجب أوربا أمام هذه الحرب السياسية حرب الدسائس والاكاذيب القائمة بها انكلترا ضد الدولة العلية واضح جلى . فحتم عليها اذا كانت تعمل للمحافظة على السلام العام وعلى أرواح البشر أن تحبط مساعى انكلترا في الشرق وان تقف لها بالمرصاد . ومن العدل ان نقول ان حكومتى فرنسا والروسيا قامتا فى المسئلة الارمنية بابطال الدسائس الانكليزية واحباط مساعي سواس انكلترا . وأظن انه لم يغب عن ذهن انسان ان انكلترا عرضت رسميا على الدول الاوربية خلع جلالة السلطان الاعظم فرفضت الروسيا وفرنسا طلب انكلترا قبل كل الدول. وقد قامت

المانيا فى الحرب الاخيرة بواجب أوربا كلها ضد انكلترافتم للدولةالعلية الظفر والنصر وتم لبريطانيا الفشل والخذلان

أما واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة انكلترا للدولة العليةفبين لا ينكره الاالخونة والخوارج والدخلاء . فواجب العثمانيين ان يجتمعوا جميعا حول رايةالسلطنة السنية وان يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قواهم ولو تفاني الكثيرون منهم فى هذا الغرض الشريف حتي يعيشوا أبدالدهر سادة لاعبيدا . وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الاسلامية المقدسة وان يعززوها بالاموال والارواح ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية المقدسة

المسئلة الشرقية

فى

القرن الثامن عشر

لقد حدثت في القرن الثامن عشر أزمة شديدة مهمة للمسئلة الشرقية هي الحرب بين الدولة العلية والروسيا التى طالت من أواخر عام ١٧٦٨ الى أوائل عام ١٧٧٥ . وهذه الازمة كانت شديدة غزيرة النتائج وأصلا لتداخل أوروبا فى أمور الدولة العثمانية باسم الدين

وقد كانت الروسيا حليفة للبروسيا فى ذلك العهد محالفة أمضي عليها فريدريك الكبير ملك بروسيا وكاترينا أمبراطورة الروسيا يوم ١١ ابريل سنة ١٧٦٤ وكان أجلها ثمان سنوات . وسبب تداخل البروسيا فى المسائل الشرقية هو تحالفها مع الروسيا نحو قرن . وداعية هذا التحالف هى العداوة الشديدة التى كانت بين النمسا والبروسيا في المانيا وبين النمسا والروسيا في مسائل الشرق . وقد كان يعقد أحيانا اتفاق بين هذه الدول الثلاث ولكن العداوة بقيت طويلا بالرغم عن ذلك شديدة بينها وبين بعضها

ومن أسباب تحالف الروسيا والبروسيا غير ماذكرناه اشتراكهما فى المصلحة ضد بولونيا التي كانت جمهورية وقتئذ وفي حالة من الفوضي عظيمة . وقد كان يروق للروسيا والبروسيا بقاء نفوذهما قويا فى بولونيا والعمل على زيادة الفوضي فيها لتتمكنا من تقسيمها والاستيلاء عليها

وكان قد عقد بين فرنسا والنمسا عام ١٧٥٦ تحالف يضمن للنمسا مساعدة فرنسا الحربية والسياسية في كل أوربا ويضمن لفرنسا عدم تداخل

النمسا ضدها فى حالة قيام الحرب بينها وبين انكلترا . وقد حصل وقتئذ ان (أوجست الثالث) ملك جمهورية بولونيا توفى وأرادت الروسيا بالاتفاق مع البروسيا أن تعين بدلا عنه (ستانيسلاس أوجست بونياتووسكى) الذى كان محبوبا عند كاترينا أمبراطورة الروسيا وعاشقا من أكبر عشاقها وكانت ترمي الروسيا بهذا التعيين الي القاء بذور الشقاق والشحناء بين البولونيين واحداث الاضطرابات فى بلادهم بواسطة هذا الملك الجديد

فعمل عندئذ الوطنيون البولونيون لدى الباب العالي مستغيثين به لاحباط مساعى الروسيا فى تعيين (ستانيسلاس) ولكن سفيرا الروسيا والبروسيا بالاستانة بذلا ضد هؤلاء الوطنيين كل جهدهم

وكان من صالح النمسا وفرنسا عدم نجاح الروسيا والبروسيا فى مسعاهما لتعيين (ستانيسلاس) فحرضتا الدولة العلية ضد الروسيا والبروسيا وأظهرتا لها فائدة تداخلها في صالح البولونيين . ولكن المرحوم السلطان (مصطفى الثالث) كان يعجب بفريدريك ملك البروسيا اعجابا زائدا فلم يرض لذلك العمل ضده . سيما وان تعيين (ستانيسلاس) كان لا يضر بمصالح الدولة مطلقا . فتم تعيين هذا الرجل ملكا لبولونيا يوم ٧ سبتمبر سنة ١٧٦٤

وما استقر هذا الرجل على كرسي ملك بولونيا حتى خلق فيها المشاكل والاضطرابات طبقا لرغائب كاترينا وسهل لها التداخل في شؤونها الداخلية . فطلب عندئذ بتاريخ ٢٥ نوفمبر من السنة نفسها سفيرا الروسيا والبروسيا من حكومة بولونيا جملة طلبات تخالف المصلحة البولونية

فرفضها مجلس نواب بولونيا وكان رفضه هذا سببا لتداخل الروسيا فدخلت بولونيا بجيوشها الجرارة وأسالت الدماء وأنحت على الكثيرين من الابرياء واستمرت الثورات فى بولونيا تباعا والعالم كله ناظر اليها بلاحراك حتى بلغت الروسيا مرامها من هذه الديار التعيسة وصارت بولونيا مستقلة فى الظاهر محكومة فى الباطن باهواء الروسيا وأغراضها

وفى هذه الاثناء تعين المسيو (شوازيل) وزيرا لخارجية فرنسا وكان ألد أعداء الروسيا . وعلى الخصوص كان عدوا شخصيا لكاترينا فكتب الي المسيو « دي فرجين » سفير فرنسا من الاستانة يأمره بعمل كل مافى سعته لخلق المشكلات بين الدولة العلية والروسيا وأرسل اليه ثلاثة ملايين من الفرنكات ليشترى بها ذمم بعض رجال الدولة . وكان الوطنيون البولونيون حين ذاك يستغيثون بالدولة ليلا ونهارا

وحصل ان بعض قسوس الروسيا جاؤا بلاد الدولة وأخذوا يهيجون أهالي اليونان وكريد والجبل الاسود باسم الدين حاملين بأيديهم وعلى صدورهم الصليب . وقام وقتئذ قسيس اسمه « ستيفانو بيكولو » فى شهر أكتوبر عام ١٧٦٧ يدعو أهالى الجبل الاسود للقيام ضد المسلمين فهاجت الاهالى هياجا شديدا

فلما رأت الدولة ذلك ووقفت على الفظائع العديدة التى جرت في بولونيا أنذرت الدولة الروسية بالخروج من بولونيا فرفضت وكان ذلك سبب الحرب

وقد كانت الامة العثمانية ميالة الي البولونيين حتى ان المسيو « زيجلين »

سفير بروسيا بالاستانة كتب الي حكومته بتاريخ ٢٦ يوليو سنة ١٧٦٨ يقول « انه وان كانت الحكومة العثمانية مطلقة النفوذ والسلطة في بلادها ولكن للرأي العام صوتا اذا ارتفع لاتقدر الحكومة على مخالفته »

وعند ماعلمت الروسيا باستعداد الدولة العلية للحرب أرسلت عساكرها واحتلت « كاركوفيا » . وقد أعلنت الحرب يوم ٦ اكتوبر سنة ١٧٦٨ وكان ذلك بالقاء الدولة العلية سفير الروسيا فى القصر المعروف (بقصر السبعة ابراج) وبهذه الصورة كانت تعلن الحرب فى القرن الماضي

وقد أرسلت الدولة عندئذ منشورا للدول الاوروبية بتاريخ ٣٠ اكتوبر سنة ١٧٦٨ أبانت فيه أسباب اعلانها الحرب للدولة الروسية قائلة « لقد تجاسرت الروسيا وقضت على حرية بولونيا وأجبرتها على قبول ملك ليس من عائلة ملوكية ولم تنتخبه الامة ملكا عليها طبقا لقوانينها وشرائعها . وأسالت الروسيا الدماء وذبحت كل من خالف سياستها واغراضها وخربت الاراضى والاملاك »

وقد أدهش اعلان الحرب بهذه الصورة كل رجال السياسة الاوروبية وجعل كل همه الانتفاع منها . أما المسيو (دى فرجين) سفير فرنسا فقد أعاد الى حكومته الثلاثة ملايين وكتب اليها « ان رجال تركيا لاتشتري ذممهم ولكنهم يعملون بمقتضى مصلحة بلادهم وشرف دولتهم »

ومضت أشهر طويلة اشتغل كل خصم بالتجهيز والتحضير ولم تقم الحرب الحقيقية الا فى شهر يوليو عام ١٧٦٩ على شواطيء نهر (الدينستر)

وقداقتتل الجيشان طويلا حول (خوتين) واختلف المؤرخون في اثبات وجود فرق بروسية بين الجيش الروسي فقال بعضهم بوجودها بمقتضي المعاهدة التى بين الروسيا والبروسيا وأنكر البعض الآخر وجودها . ولكن الرأي الاول أقرب الي العقل والحقيقة

وفى يوم ١٦ سبتمبر هجم الجيش العثمانى على الجيش الروسى ووقعت بينهما معركة هائلة انتهت بانتصار الروسيين واستيلائهم على مقاطعة (البغدان) . وأخذوا بعد هذه الواقعة قلاع خوتين وأزوف وتاجانروج . ثم احتلت العساكر الروسية يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٧٦٩ مدينة (بوخارست) التي هي عاصمة رومانيا الحالية . أما مقاطعة البغدان فهي تكون مع مقاطعة الافلاق مملكة رومانيا نفسها

وقد اغترت الروسيا بهذا الانتصار وأرادت فصل اليونان من أملاك تركيا — وكانت أرسلت من قبل بطلا اسمه { أورلوف } ليهيج اليونانيين ضد الدولة العلية — فأرسلت فى البحر الابيض المتوسط في آخر سنة ١٧٧٠ أسطولين الاول تحت قيادة { سبيروتوف } الروسي والثانى تحت قيادة (ألفنستون) الانكليزى وقد تجمعت عندئذ جماعات اليونان وتظاهرت بالقيام فى وجه الدولة ولكنها تفرقت شذر مذر عند تقدم الاتراك والالبانيين . فرجعت الروسيا بخفي حنين ويئست من تخليص اليونان فى ذلك الحين

ثم أرادت الروسيا أن تنتقم من الدولة العلية لفشل مساعيها فى اليونان فعاكست مراكبها وأسطولها ولم تأخذ بعد حرب وقتال

عنيفين الا بعض السفن العثمانية فى « تشسمه »

*
* *

وقد كانت سياسة كل دولة من الدول الاوربية فى هـذه الحرب مختلفة عن الاخرى. فكانت فرنسا مصادقة للدولة العلية ومعادية للروسيا . وكانت الدولة الوحيدة المنتصرة لبولونيا . ولـكن صداقتها للدولة العلية وانتصارها لبولونيا لم ينتجا أقل نتيجة لان الدول الثلاث الروسيا والبروسيا والنمسا اتفقت فى آخر الامر كما سيراه القارىء على تجزئة بولونيا فكان من المستحيل على فرنسا مساعدة تركيا مساعدة فعلية خوفا من اشتعال نار الحرب بينها وبين الدول الاوربية . ولـكن ما كانت تخافه لنفسـها تشجـع الدولة العليـة على الاتيـان به فهى كانت تخشي الحرب ولـكنها كانت أول محرضة للدولة العلية عليها . وهكذا الدول كلها والامم جميعها متي رأت في عمل من الاعمال احتمال الخير والشر تفضل أن يقوم به غيرها فان أنتج خيرا استفادت منه وان أنتج شرا اجتنبت اضراره وكان « شوازيل» وزير فرنسا الاكبر ذا سياسة خرقاء حيث كانت النمسا ساخرة من تحالفها مع فرنسا لا تقبل منها نصيحة ولا تتبع لهـا رأيا . وكانت سياسة «شوازيل» ترمى الي اضعاف الروسيا وتركيا فى آن واحد كما يتضح ذلك جليا من مذكرة رسمية أرسل بها في شهر دسمبر عام ١٧٦٩ الى البرنس (كونيتز) وزير النمسا الاكبر وجاء فيها (وترى فرنسا أن أحسن شيء يعود على تحالفنا «أى تحالف فرنسا والنمسا» بالفائدة هو ان تستمر الحرب بين الروسيا وتركيا مع انتصارات متبادلة من الجانبين حتى يضعف

الخصمان بدرجة واحدة . واذا ساعدتنا الايام تكون لنا الصدف كلها والفوائد أجمعها)

أما النمسا فكانت قد عقدت مع الروسيا في عام ١٧٥٣ معاهدة ضد الدولة العلية ولكنها بطلت عام ١٧٦٢ بسبب تحالف الروسيا مع البروسيا ولما أعلنت الحرب بين الدولة العلية والروسيا عام ١٧٦٨ اتبعت النمسا فى بادىء الامر سياسة الحيادة مع مسالمة الدولة العلية

وفى ختام عام ١٧٦٩ كلفت النمسا سفيرها فى الدولة العلية المسيو (توجوت) أن يعرض على وزراء جلالة السلطان رغبة النمسا للتداخل في عقد الصلح بين المتحاربين . ولم تكن رغبة النمسا الحقيقية من هذا التداخل عقد الصلح بل كان غرضها الوصول الي امتلاك مقاطعة من أملاك تركيا وتوسيع نطاق المملكة النمساوية

وسيجد القارئ في خلال هذا الفصل الخطة التى جرت عليها النمسا مع الدولة العلية وكيف انها حالفتها ضد الروسيا وعملت فى الوقت نفسه على الاتفاق مع الروسيا ضد تركيا !!!

وأما البروسيا فقد كان ملكها وقتئذ « فريدريك الكبير » المشهور بدهائه السياسى وقدرته الفائقة على الاستفادة من كل حادث أوروبى . وقد جعل سياسته في المسئلة الشرقية الاستفادة من الحرب بين الدولة العلية والروسيا مع المحافظة على استقلال الدولة العلية . وكتب فى مذاكراته السياسية الشهيرة « انه يوجد لنا طريقتان امام تقدم الروسيا واتساع أملاكها . الاولى ايقافها فى تقدمها وفتوحاتها والثانية — وهى أحكم

طريقة — الاستفادة من تقدمها واتساع أملاكها وفتوحاتها بمهارة »

وقد اتبع فريدريك الكبير الطريقة الثانية كما كتب في مذكراته فكان متحالفا مع الروسيا وعلى تمام الصفاء مع تركيا وبذلك كان يستفيد اكثر من غيره

ولما قامت الحرب بين الدولة العلية والروسيا كان اشتغال فريدريك الكبير منحصرا في الوقوف على الخطة التي ستجري عليها النمسا . هل تبقى وفية لفرنسا حليفتها أى مصافية لتركيا وبولونيا أو تخدع للروسيا فيفقد التحالف الروسى البروسي أهميته الاولي . وقد وجد عندئذ فريدريك بدهائه الغريب وذكائه العالى طريقة مثلى لفصل النمسا من فرنسا ولمنعها من معاداة الروسيا في الشرق وفى بولونيا ولبقاء التحالف الروسي البروسي باهميته الاولى . فوضع لذلك مشروع تحالف ثلاثي بين الروسيا وبروسيا والنمسا يكون غرضه حل المسئلة الشرقية لا في تركيا نفسها بل فى بولونيا بان تقسم هذه المملكة بين هاته الدول الثلاث

وهذه الامنية كانت أكبر أمانى فريدريك الكبير أيام حكمه لانه كان يري فى تقسيم بولونيا ربحا كبيرا للبروسيا واتساعا انطاقها بضم بولونيا البروسية لها

وأول مرة فاتح المسيو (سولمس) سفير بروسيا في سان بطرسبورغ المسيو (بانين) وزير الروسيا الاكبر فى مسئلة تقسيم بولونيا كان جواب الوزير الروسي ان تحالف الدول الثلاث يجب أن يرمي أيضا الى تقسيم الدوله العلية . فلما سمع فريدريك هذا الجواب تخوف منه وأهمل أمر

التحالف الثلاثي فى الظاهر

وقد قلنا ان فريديك الكبير كان يرى فى بقاء الدولة العلية فائدة عظمي لبروسيا وكان يستطلع بحدة ذهنه وقوة بصيرته من خلال الايام الآتية ان مودة الروسيا للبروسيا لا تدوم أبد الدهر وان بقاء الدولة العلية قوية يكون كحاجز حصين امام الروسيا وكصخرة عالية واقفة امامها وبالجملة تكون للبروسيا قوة عظيمة يمكن الاعتماد عليها حسب مقتضي الحوادث

وقد برهنت الايام على ان فريدريك الكبير — وهو أول عامل على توسيع نطاق بروسيا وأول واضع لمشروع الوحدة الالمانية الذي تم على يدي غليوم الاول وبسمارك — نظر نظرة بصير فجاء من سلالته جلالة الامبراطور غليوم الثانى مدركا أهمية التودد للدولة العلية وتوثيق الروابط بينه وبينها فاستفاد العالم من هذه المودة المزدوجة واستفادت المانيا منها كثيرا

ولما علم فريدريك الكبير بجواب وزير الروسيا تخوف منه كما قدمنا ولكنه لم يرجع عن عزمه الاول وهو العمل على تقسيم بولونيا . فرأى لنوال هذه البغية ان يتحبب الى النمسا ويتحد معها اتحادا سريا يوقع الروسيا فى الارتباك والبلبال فتضطر الى قبول آرائه وتدرك فائدة التحالف معه والعمل بنصائحه . وبالفعل تقابل فى مدينة (نيس) مع (جوزيف الثانى) أمبراطور النمسا وابن (مارى تيريزيا) الشهيرة وتوصل الى عقد اتفاقية ودية معه فى شهر أغسطس عام ١٧٦٩

فكانت نتيجة هذه الاتفاقية ان الروسيا صارت فى بلبال زائد كما أراد

فريدريك . فانها كانت تجهل مضمونها وكانت تظن انها اتفاقية عقدت للعمل ضدها في المسئلة الشرقية فاضطرت الى تجديد محالفتها مع البروسيا يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٧٦٩ واشترط جعل أجلها ممتدا الي غاية عام ١٧٨٠ فنالت بذلك البروسيا ما كانت تتمناه وهو ان الروسيا عرفت مقدار تحالفهما . وصار لا رائها عندها تقدير القبول والرضى وباتفاقها مع النمسا اتفاقية ودية صارت حليفة الروسيا وصديقة النمسا ووضعت بذلك الاساس لمشروعها العظيم . أي مشروع تقسيم بولونيا بين الدول الثلاث

وقد بعث فريدريك الكبير بأخيه البرنس هنرى الي سان بطرسبورغ لزيارة القيصرة فوصل عاصمة الروسيا يوم ١٢ اكتوبر سنة ١٧٧٠ وقد تحادث كثيرا مدة وجوده فى بطرسبورغ مع القيصرة ورجال السياسة الروسية فى مشروع عقد تحالف ثلاثى بين الروسيا والبروسيا والنمسا بقصد تقسيم بولونيا . فوجد لهذا المشروع قبولا عند الروسيين لم يكن عندهم من قبل

وقد بذلت البروسيا فى ذلك الحين جهدها في اقناع الدولة العلية بضرورة ايقاف الحرب والتوسط فى الصلح حتى رضيت الدولة العلية وطلبت بمذكرة تاريخها ١٢ أغسطس سنة ١٧٧٠ من بروسيا والنمسا التوسط بينها وبين الروسيا فى أمر عقد الصلح

يرى القارىء مما تقدم سياسة كل من دول فرنسا والنمسا والبروسيا فى المسئلة الشرقية في القرن الثامن عشر . أما انكلترا فقد جرت في هذا القرن الماضي على سياسة مزدوجة . فكانت تساعد الروسيا في الحرب

كل المساعدة وتظهر للدولة العلية بمظهر الصديقة لتقف على أسرارها حيث تطلع الروسيا عليها . ولما قامت الحرب بين الدولتين العلية والروسية كانت انكلترا مشتغلة بأمور الهند التى كانت استولت عليها بضع سنين من قبل

ولما كانت الروسيا مصافية لانكلترا وغير ميالة وقتئذ للاستيلاء على الهند وسلبها من أيدى الانكليز وكانت فرنسا هى العدوة اللدودة لانكلترا والدولة الوحيدة التى كانت تخاف منها انكلترا على الهند — وقد كانت الهند من قبل ملكا لفرنسا ومستعمرة من مستعمراتها — اتبع الانكليز سياسة التقرب من الروسيا والتودد اليها ومعاداة فرنسا والدولة العلية

وفضلا عن الاسباب السياسية الداعية لذلك فهنالك أسباب تجارية دفعت الانكليز لمحاباة الروسيا فقد كانت انكلترا تتاجر وحدها في الشمال وكانت واردات الروسيا كلها من انكلترا . وكان الكثير من البحارة الانكليز موظفين فى المراكب الروسية . وقد أراد (شوزيل) وزير فرنسا الاكبر أن يضرب المراكب الروسية بالعمارة الفرنساوية وقدم بذلك مذكرة لمجلس نظار فرنسا ولكنها رفضت وقبل رفضها أعلنت وزارة لندره ان كل عمل يعمل ضد الروسيا يعد اهانة لانكلترا واعتداء عليها . وهو قول يبين مقدار ميل الانكليز للدولة الروسية فى ذلك الحين أو بعبارة أصرح يبين مقدار المكاسب العظيمة التى كانت تكسبها انكلترا من الروسيا

ومن أكبر الاسباب التي جعلت انكلترا ضعيفة الصوت في مسائل الشرق فى هذا الحين هو اضطراباتها الداخلية وقيام الامريكيين بالثورة

ضدها مطالبين بالاستقلال الذى نالوه بدماء أبطالهم أي بأعز الاثمان

ومن غريب أمر السياسة الانكليزية انها مع محاباتها للروسية كل المحاباة أرادت ان تظهر لتركيا بمظهر الصداقة كما قدمنا فعرضت عليها في صيف عام ١٧٧٠ ان تتداخل بينها وبين الروسيا لعقد الصلح فأجابت الدولة العلية سفير انكلترا بالاستانة (السير موري) بمذكرة حكيمة جاء فيها « انه لمن الامور المدهشة الخارقة للعادة ان انكلترا تعرض على الباب العالى توسطها فى الحرب مع ان لها سفنا في الاسطول الروسي حاربت ضدنا . ولذلك نحن نعتقد ان طلبها التوسط في الحرب ليس الا ستارا لاغراض أخرى ينويها العدو (أى الروسيا) . فلتعلن انكلترا خطتها وسلوكها بدون مراوغة حتي يعلم الباب العالى مع أى المتحاربين هى أمعه أو ضده » . وقد أحدثت هذه المذكرة الحكيمة تأثيرا شديدا لدى الانكليز وأفهمتهم ان الاتراك خبيرون بسياستهم وبما فيها من الغش والنفاق فاضطروا لسحب ضباطهم وعساكرهم من الاساطيل والجيوش الروسية ولكن ذلك جاء بعد ان قضت الحرب معظمها

ولما طلبت الدولة العلية من بروسيا والنمسا التوسط في أمر الصلح أبلغت انكلترا الروسيا هذا الطلب لتأخذ حذرها فكانت وظيفة انكلترا فى هذه المسئلة أشبه بوظيفة جاسوس على الدولة العلية للدولة الروسية

*
* *

ولما علمت الروسيا بواسطة الانكليز بأمر طلب الصلح أرادت ان تعرقل مساعى البروسيا والنمسا فأمرت الجنرال رومانتسوف بتاريخ

٢٦ سبتمبر سنة ١٧٧٠ ان يكتب الى الصدر الاعظم بأن الروسيا مستعدة للمناقشة مع الباب العالى مباشرة فى أمر الصلح متى أطلق سراح (أوبرسكوف) سفير الروسيا فى الاستانة . وبذلك منعت الروسيا البروسيا والنمسا من التداخل فى أمر الصلح مدعية بان تداخل هاتين الدولتين يدعو لتداخل فرنسا . وهو الامر الذى ترفضه القيصرة رفضا باتا

وفى هذه الاثناء استولى الجيش الروسى على مدينة بندر وا كرمان وبرايلا . ولما طال أمر المراسلات بشأن الصلح بين فريدريك وكاترينا كتبت قيصرة الروس الي ملك بروسيا بتاريخ ٢٠ سبتمبر من السنة نفسها توضح له الشروط التى تشترطها لعقد الصلح . وهى الاستيلاء على أزوف وكاباردا مع استقلال البغدان والافلاق أو بقاء هاتين المقاطعتين تحت حكم الروسيا مدة ربع قرن كغرامة حربية . واستقلال تتار البسرابي والقرم وحرية الملاحة فى البحر الاسود والتنازل عن جزيرة للروسيا فى الارخبيل وعفو عام عن كل اليونانيين الذين ثاروا ضد الدولة العلية أثناء الحرب

فلما أطلع فريدريك على هذه الشروط اندهش غاية الاندهاش من مطالب الروسيا وأطماعها . وقد حصل وقتئذ أن رئيس أفندي (وهي وظيفة كانت فى الدولة العلية بمثابة وظيفة ناظر الخارجية) أخبر سفيرا النمسا وبروسيا ان الدولة العلية لا تقبل المخابرة مع الروسيا مباشرة بشأن الصلح ولكنها تقبل توسط النمسا والبروسيا . وأبلغهما انه اعلن ذلك للجنرال رومانتسوف

وقد كتب فريدريك لما اطلع على شروط الصلح المبعوثة اليه من القيصرة الى أخيه البرنس هنرى — الذى كان لا يزال بسان بطرسبورغ — بتاريخ ٣ يناير سنة ١٧٧١ « لقد اندهشت اندهاشا عظيما لما اطلعت على الشروط التى تقدمها الروسيا للصلح وانه يستحيل عليّ أن أقدمها للاتراك أو للنمساويين لانها شروط لا يمكن قبولها » وأبان فريدريك في كتابه لاخيه أن هذه الشروط لا يمكن لدول أوربا قبولها وانها تعتبر اعلان حرب للنمسا . وقد كتب بنفسه للقيصرة بتاريخ ٥ يناير سنة ١٧٧١ انها اذا كانت تريد اجتناب الحرب مع النمسا يجب عليها أن تكتفي بأخذ أزوف والكابارد! وبحرية الملاحة في البحر الاسود

وفى أثناء ذلك كانت القيصرة كاترينا تحدث مع البرنس هنرى بسان بطرسبورغ فى أمر تقسيم بولونيا . فلما كتب البرنس هنرى الى أخيه بذلك سر ملك بروسيا حيث جاء هذا الامر موافقا لرغائبه . واجتهد في جعل حل المسئلة الشرقية فى بولونيا فقط لعلمه بما ابقاء الدولة العلية من اللزوم والاهمية . فأراد تقسيم بولونيا على شرط ان الروسيا لا تأخذ البغدان والافلاق

وقد جرى عندئذ ان النمسا طمحت لمحالفة تركيا ضد الروسيا والعمل للاستفادة من هذه المحالفة ولو ضد تركيا نفسها . فبعث { كونيتز } رئيس الوزارة النمساوية الى المسيو (نوجوت) سفير النمسا في الاستانة يأمره بمخابرة رجال الدولة العلية فى أمر عقد محالفة بين النمسا وتركيا يشترط فيها ان تركيا تدفع سنويا للنمسا ٣٤ مليونا من الفلورينو أي فوق

الثلاثة ملايين من الجنيهات . وان تتنازل لها عن (الافلاق) ومدينة بلغراد وان تجعل للنمساويين فى ممالك الدولة العلية أهم الامتيازات التجارية . وفضلا عن كل هذه الشروط تقدم للنمسا فى حالة الحرب من خمسين الى ستين ألف مقاتل . وتشترط النمسا على نفسها مقابل ذلك أن تحارب الروسيا مع تركيا اذا لم ترض القيصرة بطريق المخابرات اعادة البلاد التى استولت عليها الي الدولة العلية

وقد سعى (كونيتز) عندئذ لدى فريدريك ملك بروسيا أن يبقي على الحيادة اذا قامت الحرب بين النمسا والروسيا ولكن فريدريك اتبع طريق المراوغة فلم يجب بجواب صريح

أما فرنسا حليفة النمسا فكانت تعمل فى هذا الحين على مساعدة تركيا باسطولها مقابل عوض مالي . ولكن (توجوت) سفير النمسا (الذى كان يكاتب سرا الحكومة الفرنساوية كجاسوس لها مقابل أجرة شهرية وكان فى الحقيقة يغشها ولا يخدم الا مصلحة النمسا وطنه) بذل أقصى جهده من حين ماعلم بهذا المشروع على احباط مسعي فرنسا فأبان لرجال الدولة العلية ان مساعدة الاسطول لاتفيد شيأ ما لان الحرب برية محضة لابحرية . وان قصد فرنسا ليس مساعدة الدولة العلية بل معاداة الروسيا ومد أمد الحرب الي ماشاءالله . فأفلح (توجوت) واقتنع رجال الدولة بصدق أقواله وصحة أفكاره ورفضوا مشروع فرنسا

وقد كان رجال الدولة العلية يؤملون ان اتفاق فرنسا مع الدولة يحمل النمسا (حليفة فرنسا) على مساعدة تركيا . ولكن النمسا كانت تخشي

هذا الامر لما فيه من التقييد لها ولعلمها بانها لا تستطيع أن تخدع تركيا اذا كانت فرنسا متحدة معهما بخلاف ما اذا كانت هي المتحدة مع الدولة العلية دون غيرها . ولذلك كان فشل مشروع فرنسا مضرا بالدولة العلية مفيدا للنمسا حليفة فرنسا ! !!

ولما فشل مسعى فرنسا عمل (توجوت) على عقد التحالف بين النمسا وتركيا . ومن حسن حظ النمسا وقتئذ ان خضعت تاتار بلاد القرم للروسيا وصارت كتاتار البسرابى فاضطرت الدولة بهذا السبب لتعجيل الاتفاق مع النمسا وقبول معاهدة التحالف . فأمضت المعاهدة مساء يوم ٦ يوليو سنة ١٧٧١ . وشروط هذه المعاهدة ان النمسا تتعهد بمساعدة تركيا ضد الروسيا وعدم سلخ أى جزء من الاملاك العثمانية . والمحافظة على استقلال بولونيا مراعاة اشرف الدولة العلية . وان تركيا تتعهد بدفع مبلغ ١١٢٥٠٠٠٠ فلورينو للنمسا (لا ٣٤ مليون كما طلبت النمسا أولا) أى نحو المليون جنيه وبالتنازل للنمسا عن أراضي (الافلاق) . وبمساعدة الرعايا النمساويين فى بلاد الدولة العلية على ترويج تجارتهم وصنائعهم . واشترط بين الدولتين المتعاهدتين ان هذه المعاهدة يكتم أمرها خصوصا على فرنسا حليفة النمسا اذ ذاك !

وقد رفع (توجوت) صورة هذه المعاهدة الى حكومة دولته وطلب التوقيع عليها

فلما وصلت صورة المعاهدة الى (كونيتز) اطمأن من جهة الدولة العلية وأخذ يهدد الروسيا مؤملا بهذا التهديد حملها على مخابرته فى شأن

تقسيم الدولة العلية . وقدكان ذلك وأرسلت الروسيا البكونت (ماسين) حاملا لجملة مشروعات تختص بالدولة العثمانية ومكلفا من قبل القيصرة بعرضها على (كونيتز) . ومن ضمن المشروعات مشروعان يشتملان على عقد اتحاد بين النمسا والروسيا يكون غرضه الوحيد اخراج الاتراك من أوربا وتقسيم الدولة العلية . فالمشروع الاول يبين صورة تقسيمها بين الدولتين بان تأخذ النمسا صربيا والبوسنه والهرسك والبانيا ومقدونيه ويترك للروسية بقية أملاك الدولة العلية بما فيها الاستانة . وفى المشروع الثانى تأخذ النمسا الافلاق وصربيا وبلغاريا والهرسك وتأخذ الروسيا مقدونيه والبانيا ورومانيا وقسما عظيم من الارخبيل وآسيا الصغرى والاستانة . وتأخذ كذلك الروسيا الاراضي الواقعة على شمال الدانوب وشواطيء البحر الاسود . أما بلاد القرم والموره فتبقي مستقلة

والمشروع الثالث يتضمن بقاء الترك على الشاطيء الشمالي للدانوب واعطاء صربيا والبوسنه والهرسك للنمسا وماعلى شواطيء البحر الاسود للروسيا مع استقلال التاتار. وقدم الكونت (ماسين) غير ذلك مشروعات أخري تتعلق بتقسيم بولونيا بين الروسيا والنمسا والبروسيا

وقد اطلعت النمسا على هذه المشروعات كلها وتباحثت فيها واحدا بعد آخر فى وقت كانت تعد فيه متحالفة مع تركيا تحالفا يقتضي رد الروسيا عن أملاك الدولة العلية وبقاء تركيا سليمة كما كانت قبل الحرب والمحافظة على استقلال بولونيا . . . . .

وبينما كانت النمسا تتباحث فى هذه المشروعات الغريبة كان فريدريك

الكبير ملك بروسيا يسعي لتقسيم بولونيا مع بقاء مقاطعات الدانوب تحت سلطة الدولة العلية . أى لحل المسئلة الشرقية في بولونيا كما قدمنا

أما الدولة العلية فقدقامت بما تعهدت به نحو النمسا وأرسلت الي حكومة ڤينا بتاريخ ٢٥ يوليو سنة ١٧٧١ جانبا من مبلغ المليون جنيه الذي فرضته على نفسها . وقد طلبت الدولة العلية جملةمرات التوقيع على معاهدة التحالف غير ان النمسا كانت تهمل طلب الدولة رغبة منهافى الوصول الي نوال مآربها واغراضها بدون حرب وقتال . وقد كانت سياسة (كونيتز) ترمى الي عقد اتفاق يفيد النمسا فائدة عظمي اما مع الروسيا ضد تركيا أو مع تركيا ضد الروسيا. فلذلك كان يؤجل كل مرة أمر التوقيع على معاهدة التحالف مع تركيا أملا منه فى الوصول الى عقد اتفاق مع الروسيا يكون أكبرفائدة وأعظم نفعا . وكان يخشى (كونيتز) انه اذاأمضي على معاهدة الاتحادمع تركيا تقسم الروسيا والبروسيا بلاد بولونيا بين دولتيهما بدونأن تأخذ النمساشيأ منها

ولما رأي كونيتز ان الدولة العلية تلح كثيرا فى أمر التوقيع على عهدة التحالف كتب الى الحكومة العثمانية بتاريخ ١٤ اكتوبر سنة ١٧٧١ كتاب صدق واخلاص قال لهافيه ان دولته محافظة على عهودها وفية في تحالفها ، ولكنه لم يرسل مع ذلك بالعهدة موقعا عليها

وفي هذه الاثناء علم سفير انكلترا بالاستانة اللورد (مورى) بأمر المبلغ الذى أرسلته الدولة العلية للنمسا فأخبر سفير دولته فى باريس وهذا أخبر سفير البروسيابها . فلما علم فريدريك الكبير بهذا الخبر بعث به فى

الحال الى القيصرة وكتب الى سفيره بالاستانة يأمره بأن يرشد وزراء الدولة العلية الي حقيقة اغراض النمساويين ويبين لهم انها تعمل للاضرار بمصالح حكومة جلالة السلطان . وكتب كذلك فريدريك الي سفيره بباريس يأمره أن يعرض على الوزارة الفرنساوية أن تطلب عقد مؤتمر بالاستانة لعقد الصلح بين الروسيا وتركيا . كل ذلك قصد به فريدريك الكبير أن يظهر النمسا لدول أوربا بمظهر الدولة الخداعة فى ودها الخائنة لعهودها مع تركيا وفرنسا فى آن واحد

وقد كانت الحرب مع تركيا أضعفت الجيوش الروسية كثيرا وقتالها فى بولونيا جعلها فى أشد حاجة للراحة والسكينة فضلا عن ان المال كان ينقص وقتئذ الدولة الروسية . فكتبت { كاترينا } أمبراطورة الروسيا بتاريخ ٦ دسمبر سنة ١٧٧١ الي فريدريك الكبير ملك بروسيا تخبره انها تنازلت عن مطالبها بشأن « البغدان والافلاق » ولكنها تطلب من تركيا التنازل لها عن بعض مدائن منها « بندر » و « اوتشاكوف » . وتعلمه بأنها قبلت تقسيم بولونيا واعطاء البروسيا ما طلبته منها أى بولونيا البروسية و (ڤارميا) . وتطلب القيصرة مقابل ذلك من ملك بروسيا ان يسير عشرين ألف جندي على مقاطعتى (الافلاق والبغدان) اذا قامت النمسا بمحاربة الروسيا

وعند وصول هذا الكتاب الى فريدريك الكبير ملك البروسيا كان همه موجها الى تقسيم بولونيا وتوسيع دائرة أملاك بلاده ففرح غاية الفرح بكتاب القيصرة . وانتهى الامر باتفاق الروسيا والبروسيا على تقسيم بلاد بولونيا التعيسة . وصارت النمسا بهذا الاتفاق بين أمرين أما

الوفاء بالعهد لتركيا وفرنسا ومعارضة مشروع تقسيم بولونيا . وأما الاتفاق مع الروسيا والبروسيا وعدم احترام عهودها نحو تركيا وفرنسا . فاختار كونيتز الامر الثاني عاملا بالمبدأ السياسي القائل « بأن لا عهد ولا شرف فى السياسة » . ووافق الامبراطور جوزيف والامبراطورة ماري تيريزيا والدته على خطة كونتيز . وكان ذلك فى أوائل عام ١٧٧٢

وفي يوم ٢٨ يناير سنة ١٧٧٢ كتب (كونيتز) الي حكومة الروسيا يبلغها قبول النمسا لمشروع تقسيم بولونيا ولمطالب القيصرة نحو الدولة العلية .مظهراً أمله وأمل حكومته فى أن النمسا تأخذ من أملاك الدولة العلية شيأ كما أخذت من بلاد بولونيا أي ان تقسم الدولة العثمانية كما قسمت بولونيا ! !

وبذلك يرى القارىء ان النمسا بعد ان تحالفت مع تركيا على ان ترد الروسيا عن أملاكها بواسطة المخابرات السياسية أو بواسطة الحرب وان تدافع عن استقلال بولونيا . وبعد ان قدمت اليها الدولة العلية ما طلبت من المال . عرضت بنفسها على الروسيا والبروسيا فى يناير عام ١٧٧٢ تقسيم بولونيا وتجزئة الدولة العلية ! !

وهي نتيجة اعترفت (ماري تيريزيا) نفسها بانها لا تشرف المملكة النمساوية . وقالت عنها فى رسائلها السياسية « انها سياسة جرت عليها النمسا ضد الشرف وضد مجد المملكة وضد الذمة والعقيدة » .

وقد تم اتفاق الروسيا والبروسيا والنمسا على تقسيم بولونيا وانتهى الامر بتقسيم هذه المملكة بفضل دسائس الدخلاء وانقسام أهلها على بعضهم . وذهبت

هذه الامة البولونية الشريفة المشهورة بالوطنية الفائقة والشهامة العظيمة ضحية مطامع الدول الثلاث وفريسة الدسائس الاجنبية والشقاق الاهلى

وقد امتنعت الدولة العلية عن ارسال المـدد المـالي للنمسا لمـا رأت تلاعبها معها وتلونها فى سياستها . فجعل (كونيتز) عدم ارسال المدد المـالى سببا لحل التحالف بين دولته وتركيا !

ولمـا علمت الدولة العلية بان الروسيا قابلة لعقد الصلح بدون استيلائها على مقاطعتى (البغدان والافلاق) رضيت بالصلح وعقدت مع حكومة الروسيا هدنة بتاريخ ١٠ يونيو سنة ١٧٧٢ . واتفق رجال الدولتين على اجتماع منـدوبين من قبليهما بمدينة « فوكتشانى » للمناقشة فى شروط الصلح . فاجتمع المنـدوبون ولبثوا مجتمعين عشرين يوما اتفقوا فيها على سائر الشروط الا على شرط استقلال الترتار . فقد طلب مندوبو تركيا بقاء الترتار تحت سلطة الدولة العلية لان جـلالة السلطان بصفته خليفة المسلمين لا يمكنه التنازل عن السلطة عليهم. فرفض الروسيون هذا الطلب وبذلك انحل المؤتمر . وبعد انحلاله بزمن عرضت الروسـيا على الدولة العلية عقد مؤتمر آخر فقبلت الدولة وعقد المؤتمر بمدينة (بوخارست) بعد ان عقدت هدنة ثانية جعل آخر أجلها ٢١ مارس سنة ١٧٧٣ . وقد اتفق مندوبو الروسيا وتركيا فى هذا المؤتمر على مسئلة الترتار فرضيت الروسيا ببقائهم تحت سلطة جلالة السلطان . ولـكنها طلبت من تركيا التنازل لهـا عن (كرتش) و (ينى قلعة) . فلم تقبل تركيا ذلك وانحل هذا المؤتمر — كما انحل المؤتمر الاول بغـير نتيجة — فى أوائل ينـاير

سنة ١٧٧٣

وقد عادت المخابرات مرة أخري بين الدولتين بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٧٧٣ ولكن الاتفاق كان مستحيلا لان الروسيا كانت تطالب بعزم ثابت بكرتش ويني قلعة وساسة الدولة العلية كانوا يرفضون طلب الروسيا أشد الرفض لانهم كانوا يرون -والحق معهم- ان أخذ هذين الموقعين يجعل الاستانة فى خطر مستمر من جهة الروسيا . ولذلك أقفل باب المخابرات وعادت الحرب بين الدولتين. فأمرت القيصرة (رومانتسوف) جنرال الجيش الروسي بأن يسير وراء الدانوب ويحمل على العثمانيين فسار بأمرها الجيش الروسي يوم ١٣ يونيو سنة ١٧٧٣ وحمل على (سيليستريا) (وهي مدينة ببلاد البلغار) . ولكن الجيش العثماني انتصر عليه انتصارا عظيما وقطع عليه خط الرجعة حتى فقد الجيش الروسى معظم رجاله . فقام عندئذ الجنرال فيسمان الروسي بعمل جملة مناورات اضطرت الاتراك للرجوع الى الوراء . وقد مات فى هذه المناورات الجنرال فيسمان نفسه ولكنه أعاد للجيش الروسي بعض قوته

وقد رأت الروسيا عندئذ ان مصلحتها تقضي عليها بعقد الصلح مع الدولة العلية خصوصا وان جيوشها انهزمت هزيمة شديدة بالقرب من (وارنا) وان أهل القرم أظهروا ميلهم للانضمام مع جلالة السلطان ضد الروسيا . فضلا عن ان ثورة أهلية قامت في الروسيا تحت قيادة رجل اسمه (بوجا تشيف) كانت تهدد القيصرة وملكها . فلذلك طلبت الروسيا من النمسا التوسط بينها وبين الدولة العلية فى أمر الصلح مقابل جزء تعطاه من أملاك تركيا نفسها !

وفي ذلك الحين توفى المرحوم السلطان (مصطفى الثالث) وتولي بعده السلطان (عبدالحميد الأول) فأمر باستمرار الحرب ولكنها عادت بخسائر جمة على الدولة لأن الجيش كان غير مستعد للقتال بعد الحروب الطويلة التى قام بها . فاضطرّ الصدر الاعظم الي عرض الصلح على الجنرال { رومانتسوف } .وتم الاتفاق بينهما في ١٠ يوليو سنة ١٧٧٤ وأمضيا بعد ذلك في ٢١ يوليو سنة ١٧٧٤ على عهدة الصلح بمدينة { كوتشك قاينارجه } . وهى أشهر عهدة أمضت عليها الدولة العلية والحجر الأول للمسئلة الشرقية وعنوان النزاع بين المسيحية والاسلام وأصل الحروب الطويلة التي وجهت ضد الدولة في القرن التاسع عشر والازمات الشداد التي وقعت فيها

وشروط هذه المعاهدة ان الدولة العلية تتنازل للروسيا عن الكاباردا وتضع مقاطعات الدانوب تحت حمايتها وتعلن استقلال بلاد القرم تحت ضمانتها وتتنازل لها عن (ازوف) { وكرتش } و{ يني قلعة } . وتعطيها حق الملاحة فى البحر الاسود وشبه حماية معنوية على رعايا الدولة العلية المسيحيين عموما والارثوذكسيين منهم خصوصا

وهذا الشرط الاخير كان ولايزال آفة الدولة العلية فى علاقاتها مع دول أوروبا فكلها تتداخل في شؤون الدولة باسم المسيحية واذا قامت الحرب بينها وبين احدى الدول كانت العلة المسيحية وحقوقها . وان سياسة الروسيا مع الدولة العلية فى القرن الثامن عشر كانت كسياستها مع مملكة بولونيا التعيسة تخلق لنفسها حزبا في قلب المملكة تخلق لها الاضطرابات والمشا كل عند

الحاجةلتتداخل في شؤون المملكة الداخلية باسم هذا الحزب وبحجة نصرته. ولكن هذه السياسة التى أفلحت فى بولونيا تماماً بفضل النمسا والبروسيا لم تفلح فى تركيا تماماً كما كانت تؤمله الروسيا لما عندالعثمانيين من الشهامة الحقيقية ولما لجيشهم من القوة الهائلة ولما بين الدول الاوربية من الشقاق والاختلاف بشأن أمور تركياومسائل الشرق

أما النمسا فقد انتهزت فرصة اشتغال الروسيا وتركيا بأمر الصلح ووضعت يدها على جزء مهم من البغدان وعرضت على الروسيا مقابل ذلك مشروعا يتضمن تحالفها معها ضدالدولةالعلية !

ولم توقع الحكومة العثمانية نهائياعلى معاهدة (قاينارجة) الا يوم ٢٤ يناير سنة ١٧٧٥

ولم يمض على هذه المعاهدة زمن يسير حتى أحدثت الروسيافى بلاد القرم الاضطرابات بفضل الدخلاء العاملين بأمرها وأرسلت جيشاجرارا الى داخل البلاد بدعوى تسكين الاضطرابات . ولكن غرضها الحقيقي كان الاستيلاء على بلاد القرم وبالفعل استولت عليها وظهر للعيان ان الروسيا انما كانت تعمل لاخراج هذه البلاد من حوزة الدولة العلية وان بذل جهدها فى سبيل اعلان استقلالها لم يكن الا ليسهل لها الاستيلاء عليها. وقد احتجت الدولة العليةضد هذا العمل المخالف لشروط معاهدة (قاينارجه) وأرادت اعلان الحرب ضد الروسيا ولكنها رجعت عن عزمها بنصائح فرنسا التى كانت تعلم ان الروسيا والنمسا متفقتان على تقويض أركان السلطنة العثمانية

ولكن الروسيا كانت تبذل أقصي الجهد للوصول الي اعلان الحرب بينها وبين تركيا فأرسلت مبعوثين من عندها لتهييج بلاداليونان والافلاق والبغدان ضد السلطنة السنية ونشرت الجواسيس فى انحاء الدولة العلية ليحدثوا فيها القلاقل ويخلقوا الاضطرابات. فلما رأت الدولة العلية ذلك وأن لا مناص لها من الحرب طلبت من سفير الروسيا بالاستانة ان يخابر دولته فى تسليم حاكم الافلاق الذى عصي أمر الدولة والتجأ الى الروسيا وفي عزل قناصل الروسيا المهيجين للاهالي في بلاد الدولة وفي منح الدولة العلية حق تفتيش مراكب الروسيا التجارية التي تمر من بوغاز الاستانة

فرفضت الروسيا هذه الطلبات وكان ذلك الرفض اعلانا للحرب بينها وبين الدولة العلية

ولما كانت النمسا متفقة مع الروسيا على مساعدتها ضد تركيا أرسل جوزيف الثانى امبراطور النمسا جيشا عظيما لمحاربة الاتراك والاستيلاء على مدينة (بلغراد) فانهزم جيشه أمام العثمانيين واضطر للعودة الي مدينة {تمسوار} ببلاد المجر حيث اقتفى أثره الجيش التركى وهزمه هزيمة عظيمة

أما الجيش الروسي فقد استولى في هذه الاثناء على مدينة «أوزى» وبينما الجيش العثمانى يقاوم جيش الروسيا والنمسا اذ مات المرحوم السلطان (عبد الحميد الاول) فى ٧ ابريل سنة ١٧٨٩ وتولى بعده السلطان الغازى (سليم خان الثالث) حيث أمور الدولة مرتبكة والحرب قائمة على قدم وساق . وقد انتهز الروسيون فرصة انتقال الملك فى الدولة العلية واتحدوا

مع النمساويين فى الحركات العسكرية وتولي القيادة العامة قائد واحد .
فانتصر الجيشان على جيش الدولة واستولى الروسيون على مدينة « بندر » واحتلوا جزأ عظيما من بلاد الافلاق والبغدان وبسرابيا ودخل النمساويون بلاد الصرب ومدينة بلغراد

وقد مات حينذاك جوزيف الثانى أمبراطور النمسا وأعقبه على سرير المملكة النمساوية ليوبولد الثاني فسعى في عقد الصلح مع الدولة العلية تخوفا من قيام النمساويين بالثورة ضده تقليدا للامة الفرنساوية التي كانت ثائرة وقتئذ ثورتها الاولي الكبيرة ضد لويس السادس عشر .
فعقدت عهدة الصلح بين النمسا والدولة العلية في أغسطس سنة ١٧٩١ بمدينة « زشتوى » وقدردت النمسا الي الدولة العلية بمقتضي هذه المعاهدة بلاد الصرب وبلغراد التى كانت فى قبضتها ولم تخسر الدولة العلية من هذه الحرب مع النمسا خسارة تذكر

أما الروسيا فقد استمرت بمفردها على محاربة الدولة العلية حتى توسطت بينهما البروسيا وانكلترا وهولانده فأمضيت بينهما معاهدة بمدينة « ياش » أخذت الروسيا بمقتضاها بلاد القرم نهائيا وبسارابيا والبلاد الواقعة بين نهرى بوج دنيستر ومدينة « أوتشاكوف »

وبذلك انتهت هذه الازمة الشديدة التى جاءت في أواخر القرن الثامن عشر وكانت عنوانا لازمات شداد توالت بعد بعضها فى القرن التاسع عشر . تأتى عليها الواحدة بعد الاخرى

المسئلة الشرقية

فى

(القرن التاسع عشر)

ليس غرضنا ان نأتى في هذا الفصل على تاريخ الدولة العلية في القرن الحاضر بل على أشهر وأهم أزمات المسئلة الشرقية. فلذلك نهمل الحوادث الصغار ونفصل الازمات الشداد أزمة بعد أخري

الازمة الاولى

(استقلال اليونان)

كل من قرأ تاريخ الدولة العلية يعلم أن المرحوم السلطان الغازى { محمد الثانى) لما فتح الاستانه أمن الناس على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم على أموالهم وأرواحهم ودياناتهم وتقاليـدهم حيث اتبع أوامر الشرع الشريف ونشر راية الاعتدال الديني . فنال اليونانيون من هذه المعاملة الحسنة مالم يكن يخطر لهم على بال من السعادة والرفاهية ورأوا من سلطان آل عثمان اكراما لهم واحتراما لدينهم ولرجال دينهم حتى انه لما انتخب بطريرقهم بعد فتح الاستانة قال له المرحوم السلطان محمد الثاني : « كن بطريرقا لليونان والله يحميك ! وفى كل الاحوال والظروف اعتـمد على مساعدتى وتمتع بكل الامتيازات التى كانت لاسلافك من قبل »

وقد كانت هذه المعاملة الاسلامية فريدة فى نوعها غريبـة في بابها فان الكاثوليكيين أنفسهم كانوا يعاملون اليونانيين بالاحتقار والازدراء . ويستحيل على المؤرخين أن ينكروا على محمد الفاتح وعلى المسلمين هذه

الصفات العالية والمكارم الجليلة التى ظهرت فى الاستانة بعد الفتح كشمس تبدد الظلمات وآية من أكبر آيات الدين الاسلامي الباهر

وقد أدي هذا الاعتدال الدينى الي نمو التجارة في أيدي اليونانيين فصاروا بفضل الدولة العلية وبفضل تساهلها الدينى أغنياء اثرياء عائشين فى أتم الراحة والهناء ولكنهم لم يحفظوا للدولة العلية عهدا ولم يرعوا لها نعمة بل أنكروا المعروف والجميل وصاروا فى الصف الاول من أرباب الدسائس العاملين ضد السلطنة العثمانية وأضر الآلات لاعداء الدولة فى قلبها

وقد بلغت ثقة الدولة العلية برعاياها على اختلاف دياناتهم وأجناسهم وحسن نواياها نحو المسيحيين المحكومين بها انها عينت لمقاطعات صربيا والافلاق والبغدان حكاما من اليونانيين مؤملة انهم يخدمونها بصدق وأمانة كما اكرمتهم وأكرمت أمتهم فكانوا الاعداء الالداء فى ثياب الاصدقاء الامناء . وعوضا عن أن يقوموا بالواجب عليهم نحو دولة رفعتهم الي أسمى المناصب استعملوا سلطتهم ونفوذهم فى تهييج أهالي هذه البلاد ضد الدولة العلية والقاء بذور الثورات والاضطرابات فيها

*
* *

وقد أسس المهيجون من اليونانيين جمعية فى بلاد الروسيا اسمها (هيترى) — أى الجمعية اليونانية الوطنية — غرضها استقلال اليونان والانتقام من الدين الاسلامى ، وقد ساعد القيصر هذه الجمعية كل المساعدة فأخذت تنمو وتنتشر وأخذ الكثير من أعضائها يقتلون ويسلبون باسمها

وبدعوى المطالبة باستقلال اليونان . وكان (اسكندر ايبسيلانتى) و {ديمتريوس ايبسيلانتى } أهم أعضاء الهيترى في خدمة القيصر الشخصية . وكان {كابو ديستريا } زعيم الثورة اليونانية أحد وزراء القيصر اسكندر الاول

وكان ابتداء الثورة اليونانية دخول { ايبسلانتى } فى المقاطعات اليونانية في عام ١٨٢١ محرضا على الثورة بلاد اليونان كلها . وقد اعتبر هذا العمل بايعاز من الروسيا . وكان من البديهيات ان (ايبسلانتى } الذى كان ضابطا بمعية القيصر عمل ماعمل بأمر القيصر أو برضاه . وقد أتى { ايبسيلانتى) نفسه بما يدل على ذلك حيث كتب فى دعوته للثورة « واذا اعتدى أحد من الاتراك على أراضى بلادكم فلا تخشوا له بأسا فان دولة عظيمة مستعدة لمعاقبة المعتدين عليكم »

ولم يكن بين دول أوربا دولة تعارض هذه الحركة اليونانية مثل دولة النمسا فانها كانت تحيط الباب العالي علما بكل دسائس ثورويي اليونان وبكل تشجيعات الروسيا لهم وأعمالها السرية

أما انكلترا فكانت خطتها في بادئ الامر التظاهر بمساعدة تركيا ضد الروسيا ومقاومة الحركة اليونانية أشد المقاومة . ولكن الدولة العلية أظهرت شكها فى نوايا بريطانيا لعلمها بطمعها وجشعها وكراهتها الحقيقية للاسلام . خصوصا وان سوء قصدها كان قد ظهر باستيلائها على الجزائر اليونانية . وقد جاءت الايام ببرهنة بأسطع برهان على ان الدولة العلية كانت مصيبة فى سوء ظنها بالانكليز فقد انقلبت انكلترا فى مسئلة الثورة اليونانية ضد الدولة العلية كل الانقلاب وغيرت كراهتها الاولي

لليونانيين بالمحبة العلنية والمساعدة الظاهرة

ولما علمت النمسا باعمال الروسيا ومساعداتها لليونانيين بذل وزيرها الاول (مترنيخ) الشهير أقصى جهده لدى القيصر اسكندر الاول ليعيد السكون الى بلاد اليونان ويأمر الثوريين بعدم القيام في وجه حكومة المرحوم السلطان محمود والامتثال والخضوع لاوامر الدولة . وقد أظهر مترنيخ للقيصر اسكندر الاول مقدار الخطر الذي ينتج عن اشتعال نار الفتنة والثورة في بلاد اليونان مبينا له ان تعضيده لثورة اليونان يكون داعيا لانتشار الثورة فى كل انحاء أوربا ضد الملوك . فأثرت هذه الاقوال على القيصر اسكندر الاول وأعلن رسميا غضبه وسخطه على ايبسيلانتى ووجه ملامه لليونانيين ناصحاً لهم بالسكينة والانصياع لحكم الدولة العلية

ولكن هذه التصريحات العلنية لم تكن الا ترضية وقتية للنمسا التى كانت مضطربة الاحوال لاشتغالها بقمع الثورة الايطالية التى قامت وقتئذ فى وجهها . ولم يرجع القيصر اسكندر الاول عن عزمه بل صار يتظاهر علنا بمحبة السلم والميل الي الانصاف مع الدولة العلية وهو يكمن لها فى الباطن السوء والضرر منتظرا الفرص المناسبة

أما ايبسيلانتى فقد هزمته الدولة هو ورجاله شر هزيمة واضطر الي الهروب فى ترانسلفانيا حيث قبضت عليه النمسا وسجنته لغاية عام ١٨٢٧ . وقد أسس ثوار اليونان بالرغم عن سقوط ايبسيلانتي فى قبضة النمسا مجالس أهلية ومجلسا عموميا لهم كبرلمان يونانى

* *
*

وما انتشر فى أوروبا خبر قيام اليونانيين بالثورة ضد الدولة العلية حتى تظاهر الكثيرون من الكتاب والشعراء بتعضيدهم والانتصار لثورتهم ضد المسلمين . وأول من جاهر بالانتصار لليونانيين وبالنداء باستقلالهم هو اللورد (بيرون) الشاعر الانكليزى . فقد هاجر من بلاده وعاش غريباً ينشد مجد اليونان السالف وينادى أوروبا بمساعدة أبناء اليونان ونصرتهم . وقد أثرت كتاباته واشعاره فى أغلب بلاد أوروبا وجرى على سنته الكثير من شعراء فرنسا وكتابها وفي مقدمتهم { فيكتور هوجو } الشاعر الشهير . وأسست اللجان المختلفة فى فرنسا وانكلترا لمساعدة اليونانيين بالمال والرجال . وسافر المتطوعون من كل بلد فى أوروبا ومن كل جانب

وقد قامت الحركة كلها فى بلاد أوروبا باسم معارف اليونان وأنوارها القديمة وباسم الدين المسيحي . فكنت تجد الكتاب الذين لا دين لهم ولا عقيدة فى أفئدتهم يدافعون عن اليونانيين باسم الدين المسيحى ويوجهون الي الاسلام أقبح السباب وأدنى الشتائم

وكان أنصار اليونانيين يحسبونهم كآبائهم الأولين متى نالوا حريتهم واستقلالهم بزغت شموس المعارف والآداب والفلسفة من بلادهم وعادت أثينا مشرقا لانوار الحكمة والعرفان . والذين كانوا ينتصرون لليونانيين مؤملين هذا الأمل كانوا أما متعصبين في الدين ضد المسلمين يحملهم بغضهم على اعتقاد فاسد كهذا أو كانوا سليمى النية . فلقد برهن اليونانيون بعد استقلالهم على ان بينهم وبين اليونانيين القدماء بون بعيد

وفرق عظيم

ولا ريب ان اولئك الذين كانوا ينتظرون شروق أنوار الحكمة والفلسفة العالية من أبناء أثينا الحاليين تحسروا طويلا واندهشوا منتهي الاندهاش من خطئهم فى آمالهم هذا الخطأ الكبير واعتدائهم بغير حق على السلطنة السنية التى كانوا يقولون عنها انها المانعة لترقي اليونان والواقفة فى سبيل « شروق شموس الحكمة والعرفان من آثينا»

ومن الغريب ان أغلب أنصار اليونانيين ان لم نقل كلهم كانوا يجهلون تمام الجهل بلاد اليونان وأهلها . على انهم لو كانوا أرسلوا بعض الوفود لزيارة هذه البلاد والوقوف على حقيقتها وحقيقة أهلها لكانوا أدركوا انهم مخطئون خطأ كبيرا وان آمالهم البعيدة حلم لا حقيقة له ويستحيل ان يكون له وجود

وقد أنصف بعض الكتاب الأوربيين الدولة العلية وأظهروا للعالم المتمدن الحقيقة التى لا مراء فيها وفضحوا أعمال اليونانيين حتى خجل أنصارهم . وفي مقدمة هؤلاء الكتاب الفضلاء المسيو (الفريد لميتر) الفرنساوى فقد وضع كتابا على استقلال اليونان كشف فيه الغطاء عن أمور عديدة تشرف الدولة العلية وترفع من مقامها امام التاريخ وتشهر أكاذيب أنصار اليونان الجمة

ومن المستندات الرسمية العديدة التى أوردها حضرة المؤلف السالف الذكر عريضة رفعها جماعة من الفرنسويين كانوا سافروا الى بلاد اليونان لنصرة الثائرين فيها الى أميرال البحرية الفرنساوية بالبحر الابيض المتوسط

يسألونه فيها أن يردهم الى فرنسا . وهذه العريضة تترجم للقارىء عن الحقيقةوعن أ كاذيب أنصار اليونان فقد جاء فيها: «وقد وصفوا لنا اليونانيين قبل سفرنا من فرنسا بشجعان وابطال يفوقون آباءهم الاولين شهامة ومجدا . فما وجدناهنا الا رجالا يحملهم حب المال على حب الجرائم وانا ـا لا يزالون فى ظلمات الجهالة والوحشية »

وقد كتب القومندان (بوجول) في مذكراته عن ثورة اليونان بتاريخ ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٢٧ ماتعريبه :

« وقد جئت الشرق وانا من أ كبر انصار هـذه الامة (اليونانية) ولم يتغير اعتقادى فيها واحساسي نحوها الا بالتجربة . فهي مجردة عن الوطنية والشجاعة والاتحاد وهمّ كل رئيس من رؤسائها ان يكون غنيا وقد بلغت الفوضي حدها في بلاد اليونان . وأغلب اعضاء حكومتها ـ وكلهم محتقرون اشد الاحتقار ــ معروفون من الجميع بأنهم المسلحون للصوص البحار . ولولا تداخل الدول لخضع اليونانيون جميعا هذا العام . واعترافا بالجميل نحو أمم اوروبا لا يزال اللصوص اليونانيون يعتدون على تجارة هذه الامم نفسها ! »

وكتب الاميرال (ريني) أميرال الاساطيل الفرنساوية بالبحر الابيض المتوسط من أزمير بتاريخ ٢٣ مارث سنة ١٨٢٦ ماتعريبه :

« لقد تغش أوروبا بشأن كل مايختص بثورة اليونانيين ضد تركيا . فقد تنقص المستندات الرسمية وليس من عادة الاتراك ان ينشروها . والتقارير اليونانية ليست الا مراسلات خصوصية تجسم فيها الامور وتمر على (زانت) و (كورفو) والنمسا قبل ان تلونها الجرائد فى لوندره

وباريس بالالوان الساطعة البهية . ولكنها في أغلب الاحيان ألوان كاذبة . ولاشك ان هذا هو اللازم للتأثير على أفكار العالم . ولكن هذا لا يكفي لانارة أفكار الذين يقودون زمام الامور »

*
* *

وقد انتهز اليونانيون فرصة قيام (على باشا) والي يانيه ضد الدولة العلية لاحداث الاضطرابات والهيجان فى كل انحاء بلاد اليونان . فقد طغي هذا الباشا وعصى الدولة العلية وأراد الاستقلال والخروج من تحت السلطة الشرعية فصار يعمل لاستمالة اليونانيين اليه ضد الدولة العثمانية . ولكن أطماعه الشديدة واخلاقه الشرسة أكثرت من أعدائه بالرغم عن تملقه لليونانيين ونفاقه

وسبب عصيانه على الدولة ان اسماعيل باشا اكبر أصدقائه وأول المقربين اليه وقع بينه وبينه خلاف شديد أدى الى هروب اسماعيل باشا الي الاستانة حيث تعين فيها بالحرس السلطاني وأبلغ رجال الدولة أعمال هذا الرجل وسوء نواياه . فقررت الدولة عزل ابنه الذى كان حاكما لتساليا . فاغتاظ على باشا من ذلك وأرسل أحد اتباعه من الالبانيين الى الاستانة لقتل اسماعيل باشا . وبالفعل قتله هذا الالباني عند ذهابه للصلاة

وقد علمت الدولة وقتئذ بان الانكليز يشجعون على باشا على رفع لواء العصيان ضد الدولة العلية ووقفت على كل مراسلاته مع اليونانيين فامتلأت غيظا منه واعتبر خائنا للدولة والملة وأصدر شيخ الاسلام منشورا للمسلمين باعتباره خارجا على الدولة كافرا بنعمتها .

وقد أمرته الدولة بالحضور الى الاستانة فى ظرف أربعين يوما فخالف أمرها وصمم على معاداتها والقيام فى وجهها . وصار يجتهد فى استمالة المسلمين اليه فلما لم يفلح لانهم جميعا اعتبروه خائنا وخارجا من دين الاسلام مال الى اليونانيين وصار يتقرب منهم ويستنصر بهم ضد الدولة ويوزع الاموال عليهم . ولما أراد الانتفاع بهذا الود سألهم بتاريخ ٢٤ مايو سنة ١٨٢٠ تكوين جيش ينصره ضد الدولة . ولكن اليونانيين الذين كانوا يعرفون أخذ الاموال وسماع المدائح وبدائع الاقوال من هذا الطاغية كانوا يعرفون من أنفسهم انهم عاجزون عن تقديم الاسلحة والرجال فلم يجيبوا للعاصى طلبا ولم يلبوا له نداء بل بقي يناديهم وهم صامتون حتي اقترب منه الجيش العثمانى . فلم يجد له مخرجا من ورطته الا حرق مدينة «يانينا» والالتجاء الي جزيرة كان بني فيها قلعة حصينة جمع فيها كل ذخائره وأمواله

وقد كان يقود الجيش العثماني ضده خورشيد باشا حاكم المورة فوصل بمهارته وحكمته الى دخول القلعة التى كان ملتجئا بها هذا المتمرد ولما لم يجد على باشا لنفسه سبيلا غير التسليم سلم نفسه لخورشيد باشا الذى أنفذ أمر الدولة بقتله عقابا له على تمرده وعصيانه . وفى أوائل فبراير سنة ١٨٢٢ أرسل برأسه الى الاستانة لتعلق في مكان عام انذارا لكل عدو للدولة ولكل خائن

*
* *

وقد انتهز اليونانيون فرصة عصيان على باشا والى يانينا وأخذوا

يسلبون وينهبون فى كل انحاء اليونان وجعلوا المورة منبع الثورات والاضطرابات لخلوها من العدد الكافي من الجنود العثمانية. وفى ٥ مارس عام ١٨٢١ دخل من يدعى (كارافيا) وهو يونانى تعلم الجندية في الروسيا في ميناء (جالاتز) — وهى ميناء من رومانيا على الدانوب — وهجم على قلعتها برجاله العديدين حيث نهبوا وسلبوا وقتلوا من فى المدينة كلها وأسالوا الدماء وخربوا المنازل. وقد أشاع اليونانيون عندئذ فى كل اصقاع العالم ان ما أتوه فى هذه الميناء الصغيرة التى يكاد لا يوجد بها جنود يعد انتصارا كبيرا على الدولة العثمانية وعملا عظيما. وهاج كذلك أعضاء الهيتري بمدينة (ياسي) واحتالوا على حرسها وكان مكونا من خمسين رجلا فأفهموهم ان الاهالى عازمة على الثورة وقطع دابر الاتراك ولكنهم ان تجردوا من أسلحتهم وبنادقهم توطد الامن فى المدينة وعادت الامور الي السكينة والسلام فاغتر رئيس الحرس وظن ان أعضاء الهيترى صادقون فى أقوالهم فأجاب طلبهم وأمر الجنود بالتجرد من السلاح والذخائر الحربية. فقابل اليونانيون هذا العمل بأن نشروا لواء النهب والسلب في المدينة ورفعوا راية الفتك بالمسلمين فقتلوا الكثير منهم بلا تمييز بين الرجال والنساء والاطفال. ولما جاء (ايبسيلانتى) زعيم جمعية الهيترى استحسن هذه الفظائع والمنكرات ووافق عليها باسم الانتقام من الاسلام والمطالبة بالحرية!

وقد كانت جمعية الهيترى تهدد الاغنياء من اليونانيين بالقتل ان لم يساعدوها بالمال — وقد اتبعت هذه الخطة نفسها جمعية ثوار الأرمن

مع أغنياء الطائفة الارمنية ـ وحصل ان {ايبسيلانتى} المذكور لما جاء مدينة (ياسي) علم بوجود يونانى عظيم الثروة اسمه (بول اندرياس) فألقى القبض عليه بدعوى انه اختلس أموالا كثيرة من اموال الهيتري فادرك الرجل ان هذه التهمة القيت عليه ليقدم لايبسيلانتى شيئا من المال ففعل ذلك وكان فى فعله نجاته

وقد احدثت هذه الفظائع التي جرت فى (ياسي) فى كل بلاد اليونان فرحا شديدا واشتاقت نفوس اهاليها للسلب والنهب وذبح المسلمين باسم الحرية والدين !

وقد يجد الانسان في بعض الكتب المتصر أصحابها لليونان فصولا طويلة على هذه المذابح المختلفة والجرائم المديدة ومن هذه المؤلفات أشهرها مؤلف المسيو (بوكفيل) المسمي (محطة الشرق) فقد جاء بالرغم عن شدة تعصب المؤلف ضد المسلمين بحقائق يخجل منها كل انسان يحترم الانسانية ويحبها

ولما كانت المورة كما قدمنا منبعا للثورات والاضطرابات حاصر اليونانيون مدينة { مونبازيا } فقاوم أهلها الحصار طويلا حتى فقدوا كل الذخائر والمأكولات . وكان يقود اليونانيين وقتئذ (ديمتريوس ايبسيلانتى) فاستعمل الخداع للاستيلاء على هذه المدينة وأعلن أهلها بانه يحترم أملاكهم وأموالهم ويحترم قبل كل شيء أرواحهم اذا سلموا المدينة وانه يساعدهم على الرحيل منها اذا أرادوا ذلك . فصدق أهل هذه المدينة الشقية كلام (ايبسيلانتي) وسلموا القلعة والاسلحة . فدخل

اليونانيون المدينة وأول شيء قاموا به هو انهم لم يحترموا لرئيسهم قولا ولا عهـدا بل هتكوا الاعراض ونهبوا الاموال وقتلوا النساء والاطفال قبل الرجال

وانه ليسهل على القاريء أن يتمثل قوما لا سـلاح بأيديهم ولا قوة تحميهم يهجم عليهـم جماعة من أشرار اليونانيين متسلحون بأنواع السـلاح ويتمثل مناظر المعارك الدموية التى تجرى بينهم ودفاع الموت الذى يدافع به المسلمون عن نسائهم وأطفالهم

وقد كتب الكونتر اميرال الفرنساوى (هالجان) فى عام ١٨٢١ تقريرا عن دخول اليونانيين الى {مونبازيا} جاء فيه

« وقد وجد فى قلعة مونمبازيا ثلاثمائة يونانى لم يكتف الاتراك أيام الحصار بمعاملتهم بالحسني بل عاملوهم كاخوتهـم الحقيقيين أثناء المجاعة واحترموا كنائسهم كل الاحترام . ولـكن يونانيي الموره لم يعاملوا الاتراك بنفس هذه المعاملة عند ماأخذوا المدينة . بل أتوا بأشنع القبائح وأفظعها في مساجد الاتراك

« أما المسجونون فقد أرسلوا بغير زاد الي «كاسوميس» . ووجدت على الارض العائلات الاسلامية التعيسة تنازع نزاع الموت من الجوع والعطش ونائمة على الاحجار . وحوالى الجزيرة وجدت جثث القتلي . وبالرغم عن ذلك كله فقد أراد اليونانيون ضرب هاته العائلات بالرصاص. ولم تنج من أيديهم الا بفضل المسيو « دى بونفور » الذى هدد اليونانيين وأخذ كل الاتراك الموجودين بهذه الجهة في سـفينة مخاطبا ضباط اليونانيين

بأن ماعملوه هم ورجالهم لا يأ تى به الا لصوص البحار ! »

وهذا التقرير وحده يشهد بأبدع بيان على أن أ نصار اليونان فى أوربا كذبوا على العالم كله الا كاذيب الشنيعة وان الجرائم والفظائع الدموية التى جرت في بلاداليونان لم يأتها الا اليونانيون ضد المسلمين

وان الفيلسوف ليقف مندهشا امام هذه الدنايا والجرائم ويعجب كيف ان شعراء أوربا وكتابها كانوا ينتصرون لقوم لا تتغذى أرواحهم الا بذبح الابرياء ولا تستريح نفوسهم الا الى الجرائم . فهل كان ينتظر شعراء أوربا وكتابها من هؤلا القوم الذين كتب عنهم ضباط أوروبا نفسها وبعض من أفاضل كتابها ماقرأه القارىء أن يعيدوا لربوع اليونان مجدها السالف وأن يردوا للوجود أثينا مشرقا لانوار الحكمة والعرفان ؟ ؟

وقد استولي ثوار اليونان فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٢١ على مدينة (ناورين) الشهيرة وأتوا فيها من الفظائع مالم تره عين ولم تسمع به أذن

وكتب عن هذه الفظائع القس الارثوذكسي (فرانتزيس) ماترجمته

« وكانت البنات التى تريد الهروب من ايدى القتلة تجرى نحو شاطيء البحر وعلى أجسادها أثر الرصاص . ومع ذلك كانت ترمى وتقتل . وكانت النساء يحمل أكثرهن الاطفال على الذراع فيمزق المعتدون ملابسهن . واللواتي كانت تلقى بانفسهن الي البحر لتستر عوراتهن كانت ترمى كذلك بالرصاص وتقتل . وقد هشمت رؤوس بعض الاطفال التي اختطفت من أمهاتها . وألقى اليونانيون فى عميق البحار بنات واطفالا لم يتجاوز أغلبهم الرابعة أوالخامسة من العمر كأنهم قطع من لحوم الكلاب »

وفى ٥ اكتوبر من السنة نفسها استولي ثوار اليونان بعد حصار طويل على مدينة (تريبوليتزا) .وانه يستحيل على كاتب شرقى أوغربى مهما كانت بلاغته وقوة انشائه وعظيم تأثيره ان يصف المذابح الهائلة البهيمية — أوالتى لااسم لها — التى اتاها اليونانيون . بل يكفي القاريء ان يعلم ان اليونانيين ذبحوا فى (تريبو ليتزا) ثمانية الف من الرجال وفوق ذلك من النساء وان المذابح استمرت ثلاثة ايام كاملات حتى فسد الجو وتغير الهواء وانتشر من بعدها الوباء حيث عم كل بلاد اليونان وجاء من المنتقم الجبار منتقما للابرياء الشهداء من الظالمين المجرمين السافكين للدماء

وقد كتب أغلب كتاب أوروبا الا من أعماهم الغرض والتعصب على هذه الفظائع ووصفوها كما تستحق فقال عنها الكاتب الانكليزى (فنلي) المشهور — وكان قد شهد الحادثة بعينه — فى كتابه (تاريخ اليونان) :

« ان منظر هذه المذابح لا يعادله منظر في تاريخ البشر لا فى فظاعته ولا في طول مدته »

وقد أحدثت هذه الفظائع فى الاستانة تأثيرا شديدا جدا وهاج الاهالى طالبين عقاب اليونانيين الذين لهم يد فى جمعية الهيترى . فقام عندئذ شيخ الاسلام ونصح المسلمين بالسكينة والاعتدال وعدم الاعتداء على الابرياء انتقاما من الآفكين (وسيرى القارىء ان اليونانيين كافأوا شيخ الاسلام هذا بأن قتلوه هو وعائلته شهرا كاملا بعد ندائه في صالح الابرياء منهم)

فلما علم المرحوم (السلطان محمود) بما عمله اليونانيون بدسائس جمعية الهيترى

أمر بتفتيش منازل بعض اليونانيين المشتبه فيهم وعمل تحقيق تام على كل الذين اشتبه في أمرهم . فأبان التحقيق ادانة الكثيرين من اليونانيين ومنهم (موروزى) الذى كان للسلطان به ثقة عظمى فاستعملها فى تبليغ أعضاء الهيتري أسرار السياسة العثمانية . والبطريرق {جريجوريوس} فأمر السلطان باعدام الجميع عبرة لغيرهم من المفسدين والثوار

أما فى أثينا فقد اتبع اليونانيون خطتهم الدموية بنفسها فأسالوا الدماء بكثرة عظيمة ولم يرحموا أحدا من المسلمين

وقد انتشر بعض أعضاء الهيترى في أزمير وجعلوا غايتهم جمع الأموال بأدنى الوسائل وأسفل الطرق وألقاء الخوف والرعب في نفوس اليونانيين المقيمين بأزمير . فأشاعوا الاشاعات المختلفة عن نوايا الدولة العلية نحو اليونانيين حتى اضطرت العائلات اليونانية كلها الى المهاجرة من أزمير فاستفاد أعضاء الهيترى من هذه المهاجرة انهم جمعوا أموالا كثيرة وأوهموا أوربا بأن سبب هذه المهاجرة ظلم الدولة العلية وسوء معاملتها لليونانيين !!!

ومما يؤكد ذلك ان أحد رجال فرنسا بعث من أزمير بكتاب الى وزير البحرية الفرنساوية في ذلك الحين جاء فيه :

« وقد أشاع في كل أنحاء المدينة رجال يعملون على جمع الأموال بكل الوسائط الدنيئة الاشاعات المزعجة للخواطر بشأن نوايا الأتراك . فمتي علم الأهالى بأن أحد بواخرنا تقصد ميناء الأرخبيل تأتيني العائلات اليونانية وتسألني من كل جانب السفر على هذه البواخر . وقد يطول بى الامر

اذا أردت أن أشرح لسعادتكم كل الوسائل التى يمليها الشره وسوء القصد على رجال يعملون لجمع الأموال بدعوي الانسانية وانه يجب ان يكون الانسان هنا ليعتقد ذلك »

وقد استعملت هذه الوسائل فى جهات مختلفة وأهاج ثوار اليونان كل المسيحيين في البلاد اليونانية اما بدعوى الدين واما بالتهديدات والانذارات

أما فى الارخبيل فقد جعل اليونانيون همهم الاكبر السرقة واللصوصية والقتل والسلب والنهب . وقد كانت الدولة العلية استخدمت الكثيرين من أبناء اليونان في بحريتها ثقةمنها بهم كثقتها بكل رعاياها على اختلاف دياناتهم وأجناسهم . فلما قامت الثورة اليونانية ترك البحرية العثمانية كل اليونانيين الموظفين بها فأعاق ذلك الدولة العلية عن قمع الثورة فى الارخبيل كما قمتها بعد فى بلاد اليونان نفسها

وقد قدمنا فيما سبق ان شيخ الاسلام أصدر منشورا بالاستانة نصح فيه المسلمين بالسكينة وعدم الاعتداء على الابرياء من اليونانيين وقلنا ان مكافأته من هؤلاء كانت القتل . وذلك ان المرحوم السلطان (محمود) عزله من منصبه لهياج الشعب ضده . فغادر الاستانة على باخرة عثمانية قاصدا بلاد الحجاز . ولما وصلت الباخرة الارخبيل هجمت عليها بعض السفن اليونانية وضايقتها من كل جانب حتى أسرتها وأخذت مافيها من الاموال والخيرات . ولما رأي البحارة اليونانيون ان شيخ الاسلام وعائلته بين ركاب السفينة قبضوا على بناته وذبحوها أمامه وألقوا بها الي البحر ثم قتلوا كل من بالسفينة على مشهد منه حتى صار وحده أمامهم

فقتلوه شر قتلة جزاء له على نصحه المسلمين بالسكينة وعدم الاعتداء على الابرياء من بنى اليونان :: !

*
* *

وقد أحدثت مذابح اليونان تأثيرا شديدا في الروسيا فقام القسس ورجال الدين يحرضون الاهالى ورجال الحكومة على أن يطلبوا من القيصر الانتقام من الهلال للصليب وطرد الاتراك المسلمين من بلاد اليونان المسيحية. ومع ان اليونانيين هم الذين اعتدوا على المسلمين وأتوا الفظائع الجسام فان أنصار اليونان فى أوربا ملؤا الارض بكاء وعويلا واتهموا الدولة العلية بانها تذبح الابرياء وتسفك الدماء . فارسل عندئذ القيصر { اسكندر } انذارا للدولة العلية على يد سفيره بالاستانة المسيو (ستروجونوف) جاء فيه

« ان الباب العالى يجبر المسيحية على أن تتساءل اذا كانت تستطيع أن تنظر بغير حراك الى ابادة أمة مسيحية وترضى بهذه الاهانات الموجهة للدين المسيحي » . وطلب القيصر من الدولة العلية في مذكرته هذه طلبات ملؤها التهديد والوعيد

وفى الوقت نفسه أرسل الى الدول الاوربية مذكرة يفسر فيها لها خطته وسلوكه ويسألها عن الخطة التي تنوي كل واحدة منها اتباعها اذا قامت الحرب بين الروسيا والدولة العلية . وعلى أى صورة ترضي كل منها تقسيم الدولة العلية .....

فكان القيصر اسكندر الأول يريد بثورة اليونان تقسيم الدولة العلية

وبلوغ امانيه من الاستانه والبوسفور

أما الدولة العلية فقد أجابت على انذار الروسيا بغاية الشرف والشهامة غير خائفة تهديدها ووعيدها . فترك عندئذ سفير الروسيا الاستانه وأعلن فى ٨ أغسطس سنة ١٨٢١ انقطاع العلائق السياسية بين الدولتين فلما رأت النمسا ذلك خافت النتائج الهائلة والعواقب الوخيمة التي تنتج عن الحرب بين تركيا والروسيا واتفقت مع انكلترا على مقاومة الروسيا ومعارضة أغراضها واتحدت معها على منع الحرب بين الدولة العليه وبينها بكل الوسائل فكتبت وزارة لوندره كما كتبت وزارة فينا الي القيصر تعارض مشروعاته وتعده بالتوسط مع النمسا لدي الباب العالي لنوال ترضية للروسيا . فقبل القيصر توسط النمسا وانكلترا ورضخ لنصائحهما . وبالفعل توصل ساسة النمسا وانكلترا الى منع الحرب بين الروسيا وتركيا

ولا يحسبن القارىء ان توسط انكلترا مع النمسا لمنع الحرب بين الدولة العلية والروسيا كانت تقصد به انكلترا خدمة تركيا أو مساعدتها . بل الحقيقة ان الانكليز لما رأوا الروسيا تسعي لجعل بلاد اليونان تحت حمايتها المعنوية واستخدامها في سبيل سياستها قاموا في وجهها وردوها عن محاربة تركيا ثم تظاهروا ابعدئذ بنصرة اليونان أكثر منها حتى حول اليونانيون انظارهم الى بريطانيا وصار للانكليز النفوذ الأول في اليونان . حيث شكلوا في لوندره الجمعيات العديدة لمساعدة اليونان ونصرتهم ولم يتأخر ماليو انكلترا عن تسليف مبالغ طائلة لحكومة اليونان الثورية . فصارت انكلترا

بذلك أول عدوة للدولة العلية وأول دولة منتصرة لليونان .

وفي أوائل عام ١٨٢٣ صار حاكم الجزائر اليونانية الانكليزي الذى كان يعامل قبل هذا الحين ثوار اليونان بغاية القساوة والشدة يحميهم ويساعدهم ويتركم يتآمرون في جزائره ضد الدولة العلية .

ولما رأت الدولة ان الاضطرابات قد كثرت فى بلاد اليونان وان الثورة قد عمت كل انحائها طلبت من المرحوم (محمد على باشا) عزيز مصر ان يمدها بالرجال فأجاب الطلب وأرسل جيشا جرارا على أساطيل مصر تحت قيادة ابنه المرحوم (ابراهيم باشا)

وفي أثناء تأهب المصريين للدخول في بلاد اليونان كانت الدول الاوروبية تتناقش في سان بطرسبورغ فى أمر المسئلة اليونانية . ولكن انكلترا كانت تعمل على عدم نجاح المؤتمر حتى يكون لها حرية تامة فى العمل . وغاية ماأقر عليه هـذا المؤتمر هو ان الدول الاوروبيـة تطلب من الباب العالى ان يعطى أمة اليونان شيأ من الحرية والاستقلال فى ادارتها . وقد أجاب الباب العالي على هذا الطلب بانه لايهب اليونانيين حقا جديدا الا بعد تمام خضوعهم وانه لايقبل مطلقا تداخل أية دولة أوروبية أو كل الدول بينه وبين رعاياه .

*
* *

أما المصريون فقد أتوا في بلاد اليونان من الاعمال الجليلة مايخلده لهم التاريخ وما يحق لمصر ان تفتخر به فى كل آن وفى كل زمان . فانهم خدموا الدولة العلية أكبر الخدم وأجلها وبرهنوا على ان المصري اذا تعلم وتربي

يقوم بأشرف الاعمال وأعظمها . فقد هزم المصريون اليونانيين شر هزيمة واستولوا على كل بلادهم حتى ارتفعت أصوات أنصار اليونان فى أوروبا ضدهم وسموا بطل مصر المرحوم (ابراهيم باشا) بالسفاح اظهارا لغيظهم من رجل قام بالواجب عليه نحو دولته وامته وملته.

وقد قدمنا فيما سبق ان البحرية العثمانية كان أغلب عمالها من اليونانيين وكانت غير قادرة على قطع دابر اللصوص من الارخبيل وحدها . فلما طلب المرحوم السلطان (محمود) من عزيز مصر ان يمده برجاله وسفنه أمر المرحوم (محمد علي باشا) بارسال أساطيل مصر الفخيمة الى مياه الارخبيل فاستعدت البواخر فى الاسكندرية .ورأت عندئذ هذه الميناء الزاهرة مظهر جلال مصر وقوتها فى البحر مما لم تر له فى طول حياتها مثيلا . وكان الرأي المنتشر حين ذاك بين قناصل دول أوربا فى مصر ان مصر بقوتها وسلطتها تقهر وحدها بلاد اليونان وتعيدها خاضعة للدولة العلية قبل تمام ستة أشهر

وقد أتمت مصر تجهيزاتها الحربية في ٩ يونيو سنة ١٨٢٤ . وكان الاسطول المصري مركبا من ثلاث وستين مركبا حربية عظيمة ومن ثمانية الف جندى مصري من خيرة الرجال . وكان مع الاسطول والجيش ذخيرة سنتين كاملتين

وبعد مبارحة الجنود المصرية لثغر الاسكندرية وقفت بجزيرة (كاكسوس) وأخضعتها وقهرت أهلها الذين كان أغلبهم يعيش من النهب والسلب. وبعد ذلك بقليل استولى الاميرال التركى خسرو باشا على « ايبسارا » التى أتى

أهلها من قبل اخضاع الدولة لها من الفظائع مايعجز القلم عن وصفه حتي انهم قتلوا الكثيرين من أهل ساموس لعدم رضاهم بدفع شبه جزية لهم

وما أخذ المصريون والاتراك هذين الموقعين المهمين حتي نادى أنصار اليونان في أوربا بالويل والثبور ونشروا الاكاذيب والمفتريات عن دخول العثمانيين في هذين البلدين مدعين انهم ذبحوا الابرياء وقتلوا الاطفال والنساء. هذه العبارات نفسها التى تذكر فى كل خلاف يقع بين المسلمين والمسيحيين في الدولة العليه والتى لا تتغير وان تغيرت الظروف والحوادث......

وفى أول سبتمبر عام ١٨٢٤ اجتمع المصريون والاتراك في خليج (بودرون) تحت القيادة العامة لخسرو باشا .فلما علم (مياوليس) رئيس بحرية ثوار اليونان باجتماع هذه القوى العظيمة جمع سفن الثوار كلها بين (كوس)وجزيرة (كابارى). فوجه عندئذ(ابراهيم باشا)أسطوله الى جزيرة كريد حيث كان وصلها من الاسكندرية جنود أخري وأسلحة وذخائر جديدة .وجري حين ذاك ان البحارة اليونانيين الذين كانوا تحت قيادة (مياوليس) طالبوه بماهياتهم ومرتباتهم الماضية وأنذروه بانهم يعودون الى جزائرهم ولايبقون بسفنه اذا لم يعطهم هذه المرتبات.فحار(مياوليس) فى أمره مع هؤلاء القوم الذين كان يظنهم شجعانا ابطالا وخداما للوطن اليوناني والذين كان يسميهم انصار اليونان فى أوربا برجال الحرية والاستقلال وبورثة اليونانيين القدماء ! ! !

فاضطر عندئذ (مياوليس) الي الذهاب الى مدينة (نوبلي) . وقدكانت هذه المدينة مركز حكومة اليونان الثوروية

أما(ابراهيم باشا) فقد أتم كل تجهيزاته ومعداته وسار باسطوله وجنوده قاصدا (مودون) بالمورة حيث وصلها فى ٢٤ فبراير سنة ١٨٢٥. وما استقر بها حتى أخذ يهيء الجيش للقتال والحرب .وفى ٢٥ مارس من السنة نفسها بدأ المصريون بمحاصرة مدينة {ناورين} الشهيرة ومدينة{ بيلوس }

ولا يسل القارىء عن مقدار الاحتقار والازدراء الذى كان يظهره اليونانيون نحو الجنود المصرية المظفرة فقد كانوا يظنونهم نساء فى الحرب يهربون من ساحة القتال لاول طلقة نارية .ولكنهم لما اقتربوا منهم عرفوا أن امامهم شجعانا كبارا وأبطالا يحق لمصر على مدي الدهر أن تفتخر بهم كل الفخار ، وحق لمحمد علي ولابنه الكريم وقتئذ ويحق لسلالتهما من بعد ان تفاخر بهم جنود أعظم الامم المتمدنة

وفى كل واقعة حدثت بين المصريين واليونانيين كان اليونانيون يولون الادبار ويهربون مسلمين البلاد والمواقع !

وقد رأي (ابراهيم باشا) ان الاستيلاء على (ناورين) لا يكون الا بالاستيلاء على جزيرة (سفاكتيريا) فأرسل اليها حسين بك الجريدلى المشهور بشهامته العظيمة ونظره الصائب فى مسائل الاستحكامات العسكرية.فقهر جنود هذه الجزيرة اليونانية واستولى عليها . وما مضي الا ثلاثة أيام على استيلائه عليها حتى فتح أهالي(بيلوس)ابوابها وسألوا(ابراهيم باشا)أن يتركهم يهربون بدون ان يلحق بهم الاذى . فقبل ذلك (ابراهيم باشا) وكانت نتيجة

تسامحه الجميل ان أهالى { ناورين } لما تضايقوا من طول الحصار ويأسوا من الأمر خابروه في أمر تسليم المدينة اليه بعين الشروط التي سلمت بها { بيلوس } فرضي ابن عزيز مصر بطلبهم وسقطت (ناورين) فى أيدي المصريين فى شهر مايو سنة ١٨٢٥

ولما رأى (ابراهيم باشا) ان اليونانيين امتلات قلوبهم بالخوف منه ومن جنوده الاعزاء شرع في مهاجمة مدائن الموره ومعاقلها فاستولى بدون صعوبة تذكر على (نيزى) و (كالاماتا) وبلغ (تريبوليتسا) التى تركها اليونانيون وتركوا فيها ذخائرهم من شدة تسرعهم فى الهروب منها . وفى ٢٦ يونيو من سنة ١٨٢٥ استولى (ابراهيم باشا) على مدينة { أرجوس }

وقد جعل اليونانيون دأبهم وقتئذ حرق مساكنهم ومعاقلهم ومنازلهم وتخريب المدائن والقرى . وكان أنصار اليونان في أوروبا يكذبون على العالم كله ويدعون ان ابراهيم باشا هو الذي يخرب مدائن اليونان . وقد بلغت قحة بعضهم ان سماه بالسفاح !

اما خسرو باشا فقد صدرت اليه أوامر الدولة بأن يسافر باسطوله الي الاسكندرية حيث يستعد المرحوم (محمد على باشا) لارسال مدد جديد . فسافر اليها وكان المرحوم (ابراهيم باشا) أرسل كذلك باسطوله اليها وبقي هو وجنوده فى الموره . فاهتم أمير مصر رحمه الله بتجنيد الجنود حتى تهيؤا جميعا وكان عددهم احدى عشر ألف مقاتل وسافروا من الاسكندرية بتاريخ ٢٣ اكتوبر سنة ١٨٢٥ . وكان فى ذلك الحين (رشيد باشا) محاصراً المدينة

« ميسولونجي » التي كان المدد يصلها من اليونانيين من جهة البر وكانت محاطة ببرك عفنة انتشرت منها الامراض والحميات فى جيش رشيد باشا مما أطال الحصار وأضر بالجيش العثمانى ضررا بليغا. ولما علم بذلك (ابراهيم باشا) سافر بجنوده الي (ميسولونجي) . وكانت الجنود المصرية وصلت عندئذ من مصر برفقة خسرو باشافقوي عدد الجيش المصرى التركى المحاصر لهذه المدينة . وفي ٩ مارس سنة ١٨٢٦ استولي الجيش على قلعة (فازيليادي) وفى ١٣ منه سقطت (اناتاليكون) فى أيدي العثمانيين ولما رأى قواد الجيش المصرى التركى ان (ميسولونجي) واقعة فى أيديهم لامحالة وانها ان وقعت بغير التسليم من سكانها أسيلت فيها الدماء كتبوا الي أهلها بتسليم المدينة والاسلحة وخروج من يشاء الخروج منها وأعلنوا كل من يريد البقاء فيها انه يبقى آمنا مطمئنا

وقد جاء عندئذ (مياوليس) باسطوله ووقف في خليج (باتراس) ولكن الاسطول المصرى التركي هزمه شر هزيمة وقضى بهذه الهزيمة على كل آمال اليونانيين

وقد أراد اليونانيون المقيمون بميسولونجى الهجوم على الجيش المصرى التركي فى مساء ٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦ ولكن (ابراهيم باشا) وجنوده تنبهوا للامر وأطلقوا الرصاص عليهم فحصل بين اليونانيين فزع شديد وولوا الادبار وفى فجر يوم ٢٣ ابريل من السنة نفسها أى فى اليوم التالي سقطت مدينة (ميسولونجي) فى أيدي الجيوش العثمانية

وفي شهر يونيو سنة ١٨٢٧ استولى الجيش العثمانى على مدينة { آتينا}

عاصمة اليونان الحالية . وقد أعجب كل منصف محب للانسانيـة بالخطة التى جري عليها العثمانيون فى دخولهـم آتينا حيث عاملوا أهلها بالرفق ولم يقتلوا بل ولم يهينوا أحدا ما بخـلاف ماعمله اليونانيون مع المسلمين عند استيلائهم في أول الثورة اليونانية على المدائن والقري

وتفصيل أخـذ آتينا بالعثمانيين ان اليونانيين استدعوا اليهم اللورد (كوشران)والسير {روبرشرش}الانكليزيان ليقودا جيوشهم وعصاباتهم فأجابا الطلب وسافرا الى اليونان وتوليـا رئاسة الجيش اليونانى المحاصر في آتينا

وقد أبدى الجيش العثماني بقيادة { رشـيد باشا } فى محاصرة آتينا من المهارة والشهامة ماأبقي له ذكرا عاطرا فى التاريخ .فقد جمع هـذا القائد العثماني الجليل بين منتهي الشهامة العثمانية ومنتهى الانسانية الـتى أمر بهاالشرع الشريف

وان انتصار جيش { رشـيد باشا } على ثوار اليونان فى آتينا لمن الانتصارات المعـدودة فى تاريخ الحروب البشرية . فقد كاد السـير { روبرشرش } نفسه أن يقع أسيرا فى قبضة العثمانيين لولا انه عندالهزيمة ألقي بنفسه الى البحر حتى أدرك مركبا كانت بالقرب من الشاطئ

ولمـا رأي القائدان الانكليزيان ان لامناص من التسليم وسقوط آ ثينا وقلاعها فيأيدي العثمانيين سألا قومندان مركب {جومون)الفرنساوية أن يتوسـط بين اليونانيين والعثمانيـين فى أمر الصلح فاجاب سؤلهما وكتب بذلك الى { رشيدباشا } فقبـل القائد العثمانى الشروط التى عرضها

عليه المسيو {لوبلان} قومندان مركب (جومون) وهي نزع السلاح من الجنود اليونانية وترك الحرية المطلقة لكل من يرغب السفر من أثينا ومعاملة الذين يرغبون البقاءفيها بالحسني وعلى الخصوص الجرحى منهم . ولما علم السير (شرش) بقبول (رشيد باشا) لهذه الشروط فرح كثيرا واندهش غاية الاندهاش من هذا الاعتدال العظيم الذي أظهره ظافر كبير كرشيد باشا

ولكن ثوار اليونان أرادوا أن يظهروا شيأ من الشهامةالتى كان يترنم بها أنصارهم فى أوربا فرفضوا هذه الشروط وأبوا تسليم قلاع أثينا . ولو كان { رشيد باشا } رجلا وحشيا كماقال عنه ذلك كذباأ نصاراليونان فى أوروبا لكان دخل أثينا جوابا على وقاحة ثوار اليونان وشهامتهم الكاذبةوقضي عليهم وعلى جنودهم وضباطهم شر قضاء ولكنه تأنى في الامر واستعمل الدعة التى جبل عليها رعاية للابرياء من سكان أثينا

الا ان (رشيد باشا) أنذر السير (شرش) بانه اذا لم تسلم أثينا وقلاعها للجيش العثماني فى أقرب زمن هاجم المدينة وكان حرا فى عمله غير ملوم . فارسل السير { شرش } بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٨٢٧ اعلانا لثوار أثينا وضباطها أمرهم فيه بوجوب التسليم وأنذرهم بسوء العاقبة ان خالفوا أمره

ولكن ثوار أثينا جروا على خطتهم الأولى ورفضوا الانصياع لأوامر السير (شرش) أى لأوامر قائدهم ورئيسهم

فلما رأى ذلك (رشيد باشا) كتب الى المسيو (لويلان) قومندان

مركب (جومون) كتابا فى غاية اللطف والرقة أظهر فيه انه عمل كل مافى وسعه للمحافظة على أرواح الابرياء من اليونانيين القاطنين بأثينا ولكن خطة ثوارهم تحمله على اتخاذ طريقة أخرى للاستيلاء على أثينا .

وعندئذ أعلن السير (شرش) ثوار أثينا بانه يتركهم وأنفسهم لعدم انصياعهم لأوامره . فوقعوا فى حيص بيص وارتبكوا أشد الارتباك وانتهزوا فرصة وجود مركب نمساوية في الميناء فسألوا قومندانها التوسط بينهم وبين (رشيد باشا) فى أمر تسليم المدينة وقلاعها بطريقة سلمية . فسلم هذا الضابط النمساوي طلبهم للمسيو (دى ريني) قومندان مركب (سيرين) الفرنساوية فأستلم هذا الاخير الطلب وأخذ يخابر {رشيد باشا} مدة ثلاثة أيام حتي قبل القائد العثمانى دخول آثينا بالسلم وعدم سفك الدماء . وفي يوم ٥ يونيو سنة ١٨٢٧ أمضي زعماء الثورة اليونانية بآثينا على شروط تسليم المدينة ورحلوا جميعا عنها بعد ذلك .

وقد كتب المؤرخ الانكليزي (فنلى) فى كتابه {تاريخ اليونان} عن خطة (رشيد باشا) ودخوله آثينا ماتعريبه :

« لقد اكتسب {رشيد باشا} في سقوط آثينا بخطته التي جرى عليها شرفا أبديا . وظهر فوق السير {روبر شرش} شهامة في الحرب ورأيا فى السلم . ولم يترك العثمانيون وسيلة من وسائل الاحتراس الا وأتوها . ولم ينتقموا أقل انتقام من اليونانيين »

*
* *

وقد توفى في أول دسمبر عام ١٨٢٥ القيصر اسكندر الاول وتولي

بعده(نيقولا الاول) . وما جلس هـذا القيصر على أريكة الملك حتى أعلن عـداءه لتركيا وأرسـل للحكومة العثمانيـة بتاريخ ١٧ مارس سنة ١٨٢٦ انذارا طلب منها فيه جملة طلبات مختصة بالافلاق والبغدان وبلاد الصرب وترك لها مهلة ستة أسابيع لقبول طلباته وأنذرها بأنها انلم تقبل هـذه الطلبات انقطعت العـلائق السياسية بين الدولتين واشتعلت نيران الحرب

فانتهزت انكلترا هذه الفرصة للتقرب من الروسيا وأرسلت فى بادىء الامر الى بلاد اليونان ثم الي الاستانة سفيرا يعرض توسط انكلترا بين الدولة العلية واليونان فرفضت الدولة طلبه بعد ان قبله اليونانيون الذين كانوا فى أسوأ الحالات بفضل (ابراهيم باشا) بطل مصر وابن عزيزها فاغتاظت انكلترا من الدولة وعملت على الاضرار بمصالحها والانتقام منها وأرسلت (والنجتون) الشهير — بطل واترلو التى هزم فيها نابليون — الى سان بطرسبورغ ليتفق مع القيصر على المسئلة اليونانية ضد الدولة العلية وبالفعل اتفق معه وأمضى بينهما اتفاق يتضمن ان الروسيا تقبل توسط انكلترا بين الدولة العليـة واليونان وان بلاد اليونان تصير مستقلة استقلالا نوعيا وانها تختار بنفسها حاكما عليهـا

ومن الغريب ان انكلترا لمـا لم تفلح في أمر التوسط بين الدولة العلية واليونان أرادت أن تتوسط بالقوة والقهر وبالرغم عن الدولة العلية نفسها مستعينة في ذلك بالروسيا . وهكذا كانت انكلترا تفهم معنى صـداقتها لتركيا ومعنى اخلاصها لملك آل عثمان !

ولما رأى المرحوم السلطان (محمود الثاني) ان انكلترا والروسيا متفقتان ضده اضطر الي قبول مطالب الروسيا منتظرا الفرص المناسبة . وأرسل مندوبين من قبله للمخابرة مع مندوبي الروسيا فى أمر عقد معاهدة بين الدولتين ، وقد اجتمع المندوبون فى (آق كرمان) ووضعوا بها في سبتمبر عام ١٨٢٦ عهدة سميت باسم هذه المدينة تضمنت ان يكون للروسيا حق الملاحة في البحر الاسود والمرور من البوغازين بدون ان تفتش الدولة سفنها وأن تكون بلاد الصرب مستقلة تقريبا وتضمنت كذلك بعض شروط مختصة بامتيازات الافلاق والبغدان

ويقول بعض المؤرخين ان الذى حمل تركيا على قبول هذه المعاهدة غير اتفاق انكلترا والروسيا ضدها هو تعهد الروسيا صريحا للحكومة العثمانية بعدم التداخل في صالح اليونان

وقد اجتهدت انكلترا بعد عقد هذه المعاهدة فى استمالة فرنسا لها وللروسيا وتوصلت الى عقد اتفاق بينها وبين الدولتين لمساعدة اليونان ضد تركيا أمضي عليه فى لوندره بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٨٢٧

*
* *

وقد كان هذا الاتفاق أساسا لواقعة (ناورين) الشهيرة فان الدول الثلاث لما رأت ان ﴿ابراهيم باشا﴾ فاز فى المورة وانتصر نصرا مبينا واخضع اليونانيين كافة وان الثورة قاربت الانتهاء وأخذ لهيبها فى الانطفاء أمرت كلتاها أميرال أسطولها بان ينذر (ابراهيم باشا) بالوقوف عن كل عمل عدائى ضد اليونانيين وبالعودة الى الاسكندرية مع رجاله وأسطوله . فرفض

{ ابراهيم باشا }هذا الطلب أوهذا الانذار قائلالكل أميرال انه لايتبع غير أوامر أبيه وأوامر الدولة العلية . ولكنه لمارأي من قوادالاساطيل الاوربية استعدادهم لاشهار الحرب لاسطوله وعدهم برفع بلاغهم الي الاستانة والي والده الجليل . واتفق معهم على هدنةوقتيةلحين ورودأوامر الدولة وأوامرأبيه

ولكن قواد الاساطيل لم يعملوا باتفاقهم مع (ابراهيم باشا) بل اخذوا يراقبون حركاته وسكناته ويشجعون خلافا لشروط الهدنة كل ضابط يوناني أوأوربي فى خدمة اليونان على مهاجمة المدائن والمواقع التي وقعت فى قبضة (ابراهيم باشا) وجنوده فشجعوا اللورد كوشران على مهاجمة قلعة (فازيلادي) كما شجعوا غيره من الضباط . وقد احتج (ابراهيم باشا) على هذه الأعمال ولما رأى ان احتجاجه لدى قواد الاساطيل الاوروبية لم يفد شيئاً وتحقق من تشجيعهم اللورد كوشران على مهاجمة مدينة { باتراس } خرج من ميناء (ناورين) مع بعض مراكبه لانقاذ تلك المدينة التي كان بها فوق الألف مصرى . ولكن الاسطول الانكليزى أنذر { ابرهيم باشا } بالعودةالى { ناورين } فعاد هووأسطوله احتراماللهدنةالتي كان يذكره بهاقوادالاساطيل الاوربية وكانوالايذكرون بهاأنفسهم

وجرى عندئذان { ابراهيم باشا} نزل الي البروتوغل فى المورة فانتهز قوادالاساطيل الدولية فرصةغيابه عن الاساطيل المصرية العثمانية وأجمعوا على تدميرها .فأصدرالاميرال {كودرنجتون}الانكليزي — الذي كانت

له القيادة العامة على الاساطيل الفرنساوية والروسية والانكليزية — أمره باستعداد السفن الدولية وعين لكل سفينة مكانها وألقى التعليمات اللازمة لكل ضابط يقود مركبا . وفى يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ ادعى الاميرال (كودرنجتون) ان مركبا من المراكب المصرية قتل أحد بحارته انكليزيا من مركب انكليزية . وجعل هذه الجريمة المختلقة سببا لتدمير المراكب المصرية والتركية فسلط عليها الاساطيل المتحدة الدولية حتى دمرتها عن آخرها وزالت هذه الاساطيل الفخيمة فى يوم واحد حيث كان قومندانها الاول وأميرها الاعظم (ابراهيم باشا) متغيبا عنها ظانا أن قواد الاساطيل الاوربية يحترمون كلامهم وعهودهم !

ويقدر المؤرخون عدد الذين ماتوا من بحارة مصر فى هذه المذبحة الشهيرة بستة ألف بحرى ، وقد عد أنصار اليونان مذبحة (ناورين) بواقعة المجد والفخار . أما أنصار الحقيقة فقد قضوا عليها شر قضاء ووجهوا الملام أشد الملام الى حكومات فرنسا والروسيا وانكلترا التى قامت باسم المدنية بامر ليس فيه الا العار والشنار . وقد قال امبراطور النمسا وقتئذ عن حادثة « ناورين » بانها « مذبحة » !! ونعم التسمية . وقال عنها جورج الرابع نفسه ملك انكلترا انها « حادثة مشؤومة »

وقد تهيج الاحرار فى انكلترا ضد الاميرال « كودرنجتون » واعتبروا عمله وحشيا لا شرف فيه ولا فخار فاضطرت الحكومة الانكليزية لأن تعلن عدم موافقتها على عمل « كودرنجتون » . ولكنها لم تعلن عدم موافقتها على هذا العمل الفظيع الوحشي الا بعد حدوثه .... ويتضح

من المستندات الرسمية التى لا تزال باقية فى وزارة البحرية الفرنساوية والتي أتي على بعضها المسيو « الفريدلميتر » في كتابه عن استقلال اليونان ان حكومات فرنسا والروسيا وانكلترا كانت متفقة من قبل على كل ماأتاه قواد أساطيلها . وقدقال الاميرال « كودرنجتون » لما علم بعدم موافقة حكومته على مذبحة « ناورين »: «ان الوزراء يضحونني ليحفظوا مراكزهم »

أما { ابراهيم باشا } فقدعادبعدالمذبحة ولا يسألن القارىء عن تحسره الشديد على أسطولهالعظيم الذى تركه زاهياقويا وعاد فوجدهأثرا بعدعين وعن عظيماندهاشه منهذاالعملالفظيع الذى قام به دعاة المدنية وأنصار الحريةوالانسانية . وقداحتج{ابراهيم باشا}أشدالاحتجاج على هذا العمل الوحشي وزاد احتجاجه واندهاشه عند ماعلم بالمطاعن السافلة التى كان يوجهها اليه الاميرال (كودرنجتون) وبانهـذا الانكليزي الذي دمر الاساطيل المصرية والتركية بأسفل الطرق وأدنى الوسائلادعى انه ـ اى ابراهيم باشا ـ هو الخائن للعهدالناكثلشروط الهدنة وانهالمسبب لواقعة (ناورين)

وقد كتب الضابط الفرنساوى البحريالمسيو { بوجول }تاريخ مذبحة « ناورين » وأتى فيهاعلى كلماقاله له (ابراهيم باشا) عقب المذبحة . وانا نأتى هنا على ترجمة فصل يتضمن تصريحات « ابراهيم باشا » بشأن تهم الاميرال كودرنجتون. كتب المسيوبوجول ماترجمته :

« قاللي (ابراهيمباشا) عند زيارتي اليه : انهم يتهمون إبراهيم بأنه

خان العهد ولم يحترم كلامه ولكنني مستعد لان أسافر لباريس وللوندرة اذا اقتضي الحال ذلك لاظهر الحقيقة ولكي يحمل الذين اسالوا دماء الابرياء وحدهم الفضيحة والملامة . وما أ نشئت السفن الا لتكون فريسة النار أو البحار فلذلك لست اليوم آسفا عليها . ولكن اتهامى بانى خنت عهودى هو وشاية سافلة . واني أعتمد علي شرفك باحضرة الضابط لتبلغ كلمة بكلمة الي أميرالك ماقلته لك

فقل له ان ثاني يوم نواقعة « ناورين » دعا الاميرال الانكليزي الاميرال التركى الى مركب انكليزية وأوشى له بانى قدمت اليه مبالغ طائلة ليساعدنى على الاستقلال بمصر من الدولة العلية ومن التابعية للحضرة السلطانية وقال له بانى خائن وأشار عليه بتبليغ ذلك للضباط والبحارة الاتراك . فماذا يقال عن هذا السلوك وعن هذا الغش ؟ أولم تبلغ الوقاحة بالاميرال الانكليزي انه طلب من الاميرال التركي ان يسلمه امرأة من نسائى ؟ »

وانه ليسهل على القاريء ان يحكم بعد اطلاعه على أقوال « ابراهيم باشا » أى الرجلين صادق . أ ابراهيم ذلك البطل النادر المثال الذي عامل ثوار اليونان بعد انتصاره عليهم النصر المبين بالرأفة والرحمة وما سفك للابرياء دما . ذلك الذى احترم عهده . أم كدرنجتون الذي تولى أمر تدمير أساطيل لم تعاده أقل عداء وخان بذلك عهده وكلامه وشرفه بل لطخ أوروبا والمدنية الغربية بدنس الفضيحة والعار .

*
* *

وبينما كانت الدول الثلاث تتداخل لصالح اليونانيين وتسفك دماء الابرياء

لاجلهم وتدمر الاساطيل غدرا لمساعدتهم ونصرتهم كان اليونانيون يهجمون على سفن التجارة الاوربية ويسرقون كل مافيها من المتاجر والمصانع والاموال . وقد أيد هذه الحقيقة الاميرال الفرنساوى «دي ريني» نفسه وكتب جملة كتب على هذه السرقات الفظيعة والتعديات المتعددة الى وزارة البحرية الفرنساوية وقدقال في كتاب من كتبه (ان عدد السفن التي اعتدى اليونانيون عليها وسرقوا مابها بلغ في شهر واحد ستين سفينة) فليعجب القارىء بقوم تحارب أوربا لاجلهم وتخون عهدها حبا فيهم ويلطخ قواد أساطيلها شرفهم وشرف دولهم بمذبحة (ناورين) وهم يجيبونها على هذا التناهى في الاحسان بالتناهي فى اساءة رعاياها وسرقة أمتعتهم وأموالهم ومتاجرهم ومصانعهم ! ! !

*
* *

وقد طلبت الحكومة العثمانية من الدول الثلاث ترضية علنية لمذبحة «ناورين» فرفضت الدول طلبها ولم تكتف برفضه فقط بل طلبت منها ان تقبل مطالبها المشتركة بشأن اليونان وان تعلن استقلالها فأجابت الدولة على هذا الطلب الغريب بالاندهاش والاستغراب والرفض . فبارح عندئذ سفراء انكلترا والروسيا وفرنسا الاستانة بتاريخ ٨ دسمبر سنة ١٨٢٧

وفى ١٢ دسمبر من السنة نفسها تجدد بين الدول الثلاث اتفاق لوندرة السالف الذكر . وأخذت الروسيا من ذلك العهد تعمل لاعلان الحرب بينها وبين الدولة العلية . وبتاريخ ١٦ ابريل سنة ١٨٢٨ اشهرت بالفعل

اعلانها الحرب لتركيا. وفى ٧ مايواجتازت الجنودالروسيةنهر (بروث)

ولا شك ان الدولة العلية كانت وقتئذ فى أشد الاخطار وكانت أزمتها شديدة قوية فان الروسيا أظهرت عداءهالها باشهار الحرب عليها .وانكلترا أظهرت عداءها لها بمساعدة اليونانيين فى السر والجهر وبترك أسطولها واقفا فى مياه الشرق يهدد موانيها وبعقد المؤتمرات المختلفة لاعلان استقلال اليونان بالرغم عن اخضاع (ابراهيم باشا) لثورويهم وانطفاء نار الفتنة. وفرنسا اشتركت فى هذه العداوة بارسال جيش جرار تحت قيادة الجنرال « ميزون» الى بلاد اليونان

وقد رأى عندئذ المرحوم «محمدعلي باشا» بنظره الصائب ان الدول الثلاث متفقة كلها ضد الدولة العلية وأن مأمورية مصر قدانتهت بقمع الثورة اليونانية فأصدر أمره الى ابنه المرحوم (ابراهيم باشا)بالعودةهو وجنوده الي الوطن العزيز فصدع بامر والده وعاد لمصر. حيث احتلت الجنود الفرنساوية المواقع والبلاد التى أخلتها جنود مصر

وبذلك يري القاريء ان الدول الثلاث كانت تعمل فى آن واحدضد الدولة العلية وكانت الدولة بلا نصير ينصرها ولا صديق يساعدها وكانت النمسا تعضدها بالقول فى الباطن وتعلن فى الظاهر صداقتها للروسيا شأنها في سياستها على الدوام . فضلا عن ان الجيش العثمانى كان حديث التشكيل لان المرحوم السلطان (محمود) قد ألغي طائفة الانكشارية

ومع ذلك فقد أظهرت الجنود العثمانية في الحرب مع الروسيا من الشهامة والثبات ماحير رجال الحرب فى أوربا وأدهش الروسين . فان الجيش

الروسي مع عظيم استعداده وكثرة عدده لم يستول على «وارنا» الا بعد صعوبات جمة ولم يستطع أخذ مدينة شوملا . وأضطر للرجوع الى الوراء فى شهرى اكتوبر ونوفمبر بعد ان خسر الخسائر الجمة . وقد قارن وقتئذ (مترنيخ)وزير النمسا الاول تقهقر الروسيين فى هـذه الحرب بتقهقر نابليون في عام ١٨١٢

وقد استمرت الحرب في عام ١٨٢٩ . ولكن الجنود العثمانية التى كانت مشكلة حديثا كما قدمنا لم تستطع مقاومة الجيش الروسي تمام المقاومة فاستولى هذا الجيش على مدينة (اسكي استانبول) واجتاز جبال البلقان وبلغ فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٢٩ مدينة (أدرنه) . وبالرغم عن هذه الانتصارات فان القيصر نيقولا الاول كان يخاف الهزيمـة لما رأى عند الجيش العثمانى من الدراية والكفاءة فى سنة ١٨٢٨ ولذلك سأل ملك بروسيا أن يتوسط في أمر الصلح بينه وبين الدولة العلية . فقبل ملك بروسيا ذلك وتوسط بالفعل فى أمر الصلح وفي ٤ ستمبر من السنة نفسها أمضت الروسيا والدولة العلية على معاهدة { أدرنه }. وهي تتضمن استيلاء الروس على جمـلة مواقع اسيوية وضمانة حقوق الافلاق والبغـدان وصربيا وحرية مرور السفن الروسية من بوغازي الدردنيل والبوسفور وحرية التجارة للرعايا الروسيين وتتضمن أيضا ان الدولة العلية تدفع للروسيا غرامة حربية تبلغ الخمسة ملايين ونصف من الجنيهات . وان الدولة العلية تقبل ما اتفقت عليه الدول بشأن اليونان

وهذا الاتفاق بين الدول بشأن المسئلة اليونانية لم يكن مشتملا الا على

جعل بلاد اليونان مستقلة تمام الاستقلال ! وقد أمضت الدول فى لوندره بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٨٣٠ على معاهدة بهذا المعنى

وبذلك انتهت هذه الازمة الشديدة وتم استقلال اليونان. وأن القاريء يجد من خلال هذه السطور ومن مطالعة هذه الحوادث الحكم الصحيح على خطة الدول نحو الدولة العلية ويرى كيف انها أخرجت من تحت حكم الدولة بلاد اليونان بحجة المسيحية والمدنية مع ان الروسيا جزأت من قبل مع البروسيا والنمسا بلاد بولونيا ولم ترع للمسيحية حرمة ولا للمدنية مقاما !

وهكذا الغرض فى كل الامور يعمى الدول كما يعمي الافراد

﴿ الازمة الثانية ﴾

(مسئلة الشام)

(بين مصر والدولة العلية)

ان هـذه الازمة هى الازمة التى اذاتذكرها العثمانيون والمسلمون امتـلأوا حسرة وأسفا أكثر من كل أزمة سواها ، لانها أعظم شقاق وقع بين التابع والمتبوع وبين مصر والدولة العلية أي بين قلب الخلافة الاسلامية وهذه الخلافةنفسها وبين روح المملكة العثمانية وهذهالمملكة

وسيجد القارىء فى هذا الفصل تفاصيل هذه الازمة المشؤمة وما جرّتعلى الدولة ومصر والاسلام من الاضرار والمصائب ممايبقى أبد الدهر درسا للعثمانيين والمسلمين ونذيرا بأن الشـقاق بين أعضاء مجموع واحد يعود على المجموع كله وعلى أعضائه عضوا عضوا بالمصائب العظام والبلاياالجسام

ابتدأت هـذه الازمة بخلاف وقع بين عزيز مصر ووالى (عكا) بسبب مهاجرة بعض المصريين الي الشام حيث لم يرض والى (عكا) بأن يعيدهـم الى مصر طبقا لرغائب المرحوم { محمد على باشا } . فأمر عزيز مصر ابنه المرحوم (ابراهيم باشا) بالسفر الي بلاد الشام علىرأس جيش جرار للانتقام من هذا الوالي فسافر واسـتولي فى ٢٧ مايو سـنة ١٨٣٢ على (عكا) وبعد الاستيلاء عليهادخل هووجيشه دمشق وحمص وعبرجبال طوروس بعدمعارك مختلفة بين الجيش المصري والجيش التركي وقد انتهت سنة ١٨٣٢ بوصول المرحوم (ابراهيم باشا) الى قلب

آسـيا الصغري حيث وقعت بين عساكر مصر وعساكر الدولة واقعة { قونيه } الشهيرة التى انتهت بسقوط هـذه المدينة في أيدى المرحوم « ابراهيم باشا » . وكان ذلك في ٢١ دسمبر سنة ١٨٣٢ ـ وقدوقع فى هذه الواقعة أسيرا فى أيدى المصريين المرحوم « رشيد باشا » الذى كان يقود الجيش التركى امام « ابراهيم باشا » والذي كان من قبل في بلاد اليونان مكلفا بقمع الثورةاليونانية

ولا شك ان هذه الانتصارات المتوالية تدل من جهة على ما كان لمصر وقتئذ من القوة الهائلة وتحمل الانسان من جهة أخرى على التساؤل كيف تقهقر الاتراك الابطال في هذه المواقع . فالجواب على ذلك ان المرحوم السلطان { محمود الثاني } كان قد ألغى طائفة الانكشارية كما قدمنا وكان مشتغلا بتنظيم جيش جديد عند ماقام المرحوم { محمد على باشا } باحداث هذه الازمةالمشؤومة ولم يكن الجيش التركي الجـديد مستعدا تمام الاستعداد للقتال .

وكان من نتيجة هـذا الخلاف المشؤوم بين مصر والدولة العليـة ان المرحوم السلطان (محمود الثانى) اضطر للاستنصار بالدول الاوروبيـة . فانتهزت الروسيا هذه الفرصـة لتقوية نفوذها في تركيا وجعل سيطرتها عظيمة على الباب العالي فاظهرت للدولة العلية استعدادها لمساعدتها ضد عزيز مصر وأرسلت الى الاستانة الكونت (مورافييف) أحد ضباط القيصر الخصوصيين مكلفاً بتبليغ الباب العالى ان الحكومة الروسية تقدم اليه اذا أراد أسطولا قويا وجيشاً عظيما لنصرة الدولة ضـد عزيز مصر

ومكلفاً كذلك بالسفر الي الاسكندرية لاقناع المرحوم (محمد على باشا) بضرورة الاتفاق مع الدولة والرجوع عن نواياه ومشروعاته ضدها

وبالفعل ذهب (مورافييف) الي الاستانة فاستقبل رجال الدولة بلاغه بالرضي مع الحزن الشديد على هذه الحالة التى وصلوا اليها بسبب الشقاق المشؤوم بين المتبوع الاعظم والتابع أى بين خليفة الاسلام وأكبر أمرائه

وقد سافر الكونت (مورافييف) من الاستانة الى الاسكندرية في يناير عام ١٨٣٣ بقصد اقناع عزيز مصر بوجوب حل المشكلة حلا سلمياً

هذه كانت سياسة الروسيا وسيرى القارىء نتائجها السيئة على الدولة العثمانية .أما البروسيا فلم تتداخل في الامر بل تركت بقية الدول الأوروبية مشتغلة بالمسئلة وانتظرت النتيجة.وقد ود بعض ساسة النمسا أن تتداخل دولتهم فى هذه الازمة المهمة لتحول دون أغراض الروسيا ولكن القابضين على أمور المملكة النمساوية حينئذ رأوا ان الثورة تهدد دولتهم من كل جانب وانهم فى حاجة شديدة لعضد الروسيا ومساعدتها فالتزموا لهذا السبب الحيادة واختاروا سياسة مراقبة الحوادث والانتظار

اما انكلترا فقد كانت أميالها من بادىء الامر ضد أميال عزيز مصر . ولكنها كانت تخاف أضعاف نفوذها فى تركيا بتقوية نفوذ الروسيا فكانت تريد العمل ضد الروسيا ومساعدة تركيا فى آن واحد غير ان ايرلندا كانت في ذلك الحين قائمة بالثورة ضد بريطانيا رغبة فى نوال حريتها واستقلالها فبقيت لذلك انكلترا مترددة فى سياستها

ولم يكن لعزيز مصر بين الدول الاوربية دولة تريد نصرته فى السر

والجمهور غير فرنسا . فان الرأي العام فيها كان يحب (محمد علي باشا) حبا شديدا وكانت أعمال عزيز مصر ومجهوداته فى سبيل رفع شأن مصر وتمدينها معروفة في فرنسا ومقدرة فيها حق قدرها لا سيما وان أغلب عمال عزيز مصر في تمدين مصر كانوا من الفرنساويين . وكان بين (لويس فليب) ملك فرنسا وبين (محمد علي باشا) مودة شديدة وصداقة متينة

الا ان سفير فرنسا فى الاستانة كان يخاف سقوط نفوذ دولته فى المملكة العثمانية بقدر ارتفاعه وازدياده فى مصر فعرض على الباب العالي ان يتوسط بينه وبين أمير مصر وكتب الى المرحوم «ابراهيم باشا» يرجوه باسم فرنسا ان لا يتقدم فى فتوحاته وكتب الي المرحوم (محمد على باشا) يسأله ان يقبل الشروط التي أرسل بها اليه المرحوم السلطان (محمود الثانى) مع خليل باشا . وهذه الشروط كانت تنحصر فى تنازل الدولة لعزيز مصر عن ولايات (عكا ونابلس وصيدا وبيت المقدس) . ولكن (محمد علي باشا) كان يريد الاستيلاء على الشام كلها وكان قنصل فرنسا بمصر يشجعه على أمياله وأغراضه . فلذلك لم يقبل عزيز مصر الشروط السلطانية التي عرضها عليه خليل باشا ولم يلق رجاء سفير فرنسا بالاستانة عنده قبولا لانه اعتبره مجاملة لتركيا وغير صادر عن تعليمات سياسية واردة من الحكومة الفرنساوية . وأمر ابنه المرحوم (ابراهيم باشا) بالتقدم فى فتوحاته فصدع بالامر وتقدم الى ان وصل مدينة (كوتاهيه)

فلما علم المرحوم السلطان (محمود الثانى) بذلك سأل الروسيا فى آخر يناير سنة ١٨٣٣ أن ترسل اليه باسطولها فوعدته بذلك . وفي هذه الاثناء عاد

« مورافييف » من الاسكندرية وكان قد نجح فى مأموريته لدى (محمد على باشا) بعض النجاح فأعلن الباب العالى أن أمير مصر وعده وأصدر أمره لابنه بالوقوف عن التقدم فى فتوحاته . فلما علمت الدول الاوروبية بذلك رأت ان مجيء الاسطول الروسي الي مياه البوسفور صارغيرلازم فسألت الباب العالى ان يجعل وقوفه ببلادالقرم ولكن الروسيا كان يهمها ان يظهراسطولها فى مياهالشرق ويعلم المسلمون قبل المسيحيين انهاصارت الحامية للمملكة العثمانية والامينة على مصالح دولة آل عثمان ! ! !

فجاءالاسطول الروسى الي مياه البوسفور وجعل مرساه امام سراى السلطان وبعد وصوله بأيام قليلة وصل جزء من الجيش الروسي الي الاستانة وأقام بها . فهاجت لذلك انكلترا والنمسا وفرنسا وطلبت من الدولة العلية الاسراع بالاتفاق مع عزيز مصر وابعاد العساكر الروسية عن أراضى الدولة . فقبل المرحوم السلطان (محمود الثانى) طلب الدول الثلاث وبعد مخابرات مختلفة أعلنت الدولة العلية في أوائل مايو سنة ١٨٣٣ بخطين شريفين أنها عينت أمير مصر واليا على الشام وعلى ولاية (أطنه) . وقدسمي هذا الاتفاق الذى صدر به الخطان الشريفان باتفاق (كوتاهية) نسبة الى المدينة التى كان محتلالها (ابراهيم باشا) عند عقد هذا الاتفاق

ولما صدر هذان الخطان الشريفان سألت الدول الاوروبية الدولة الروسية ان تسحب أسطولها من مياه البوسفور وجنودها من أراضي الدولة فأجابت الطلب ولكنها لم تنفذه الا بعد ان أمضت مع الدولة

العلية على معاهـدة (خونكار اسكله‌سي) التى جعلت للروسيا فى الدولة العلية نفوذا قويا وسلطة عظيمة

ومضمون هذه المعاهدة ان الدولة العلية تحالف مع الروسيا تحالفاً دفاعيا وان تتعهد كل واحدة منهما بمساعدة الاخرى فى داخل بلادها أو فى خارجها حسب الظروف . ولاشك ان ظاهر هذه المعاهدة لا يفيد شيأ غريبا ولـكن المتأمل يرى ان الدولة الروسية كانت غير واقعة وقتئذ تحت خطر . فكان من المستحيل ان ترسل الدولة العلية يوما ماجيشاً تركيا لداخل البلاد الروسـية بخلافها فانها كانت واقعة تحت خطر ظاهر وكان احتمال دخول الجنود الروسية الى قلب المملكة العثمانية حاصـلا . ذلك فضلا عن ان الروسيا كان في استطاعتها ان تحـدث فى قلب الدولة من الاضطرابات ماتشاء لما كان لها فيها من الآلات القوية. أى انه كان يمكنهـا ان ترسل بجنودها الى داخل الدولة في أى وقت تريد

والذى يثبت ان دخول الجيوش العثمانية الى قلب المملـكة الروسية كان مستحيلا حتى في حالة قيام الحرب بين الروسيا وبين احـدى الدول خلافا لظاهر معاهـدة (خونكار اسكله سى) ان الروسيا اشترطت في آخر المعاهدة ان الدولة العلية غير ملزمة بارسال مدد عسكري اليها في حالة وقوع الحرب بينها وبين احدى الدول بل يكفيها عوضاً عن ارسال مدد عسكري ان تقفل بوغاز الدردنيل أمام أساطيل الدولة أو الدول المحاربة للروسيا

وقد علمت فرنسا وانكلترا بهذه المعاهدة وعملت كلتاهما على أبطالها

ولكن مسعاهما لم ينجح وتكدرت بذلك علائقهما مع الروسيا

*
* *

ولم يسر حكم هذا الاتفاق طويلا فان انكلترا التي كان يسوءها استتباب السكينة والسلام فى الشرق والتى اقتضت سياستها فى كل أطوار المسئلة الشرقية اضعاف سلطة المسلمين عملت على تحريض الدولة العلية على الاخذ بالثار والانتقام من عزيز مصر . وفضلا عن اهتمام انكلترا باضعاف السلطة الاسلامية فى الاستانة ومصر فانه كان يروق لها ان تأخذ المركز الاول فى النفوذ لدى الباب العالي وتخفض من نفوذ الروسيا وسلطتها . فلذلك استمرت تحرّض الدولة على الانتقام من (محمد على باشا) ووجدت عند رجال الدولة أذانا صاغية لان قلوبهم كانت قد تغيرت من جهة مصر وأميرها وتركت فيها حوادث الشام آلاما كبارا

وقد نجحت انكلترا فى هذه السياسة وعقدت مع الباب العالى اتفاقا تجاريا يخول لها كل ما للروسيا من الحقوق والامتيازات وقابلت ثقة تركيا بها بان استعدت لاحتلال (عدن) كأنها أرادت ان تعرف الحكومة العثمانية مقدار ثمن المودة الانكليزية ....

ومع ذلك فقد اتبعت الدولة العلية آراء الانكليز ونصائحهم وسيرت جيشاً جرارا الي آسيا تحت قيادة (حافظ باشا) . فعبر هذا الجيش نهر الفرات في ٢١ ابريل سنة ١٨٣٩ وفي ٧ يونيو من السنة نفسها أعلنت الدولة العلية الحرب على جيوش مصر . وقد كان المرحوم (محمد على باشا) علم من

قبل باستعداد الدولة لمحاربته واخراجه من الشام فتأهب للقتال واستعد أكمل استعداد

فلما علمت الدول الأوروبية باستعداد الدولة العلية للحرب اهتمت كلها بالمسئلة وأخذت انكلترا تبذل الجهد فى استمالة فرنسا اليها والاتفاق معها على مساعدة تركيا ضد (محمد على باشا) واضعاف نفوذ الروسيا فى الدولة العلية . ولكن فرنسا لم تقبل الاتفاق مع انكلترا ضد عزيز مصر لما كان له عندها وعند الشعب الفرنساوى من الاحترام العظيم والكلمة العلياء

وقد قام وقتئذ الخطباء على منبر مجلس النواب الفرنساوى بالقاء الخطب البليغة دفاعا عن أميال عزيز مصر وأغراضه السياسية سائلين حكومتهم مساعدته ومنع كل عمل عدائى ضده . ولم يظهر الرأي العام الفرنساوي قوته وشدة تأثيره على حكومته فى ظروف كثيرة مثل ما أظهر في مسئلة الخلاف بين مصر والدولة العلية فانه كان منتصراً لعزيز مصر أشد الانتصار

وقد أدى رفض فرنسا الطلب انكلترا الى اتفاق هذه الدولة مع الروسيا اتفاقا مبدئيا ضد عزيز مصر

أما النمسا فقد عرضت على الدول مشروع عقد مؤتمر بفيينا لحل المشكلة المصرية ، فلم تقبل الروسيا هذا الطلب خوفا من تداخل الدول في شؤون تركيا الداخلية واضعاف نفوذها بمثل هذا التداخل . ورفضت فرنسا كذلك طلب النمسا منعاً لاتفاق الدول ضد (محمد على باشا)

وبينما الدول مشتغلة بهذا الخلاف الخطير اذ انتشر خبر واقعة (نصيبين)

أو « نزيب » التى انتصر فيها الجيش المصري بقيادة « ابراهيم باشا » على الجيش التركى فى ٢٤ يونيو سنة ١٨٣٩ . وبعد هذه الواقعة بأسبوع واحد توفى المرحوم السلطان (محمود الثاني) ولم تكن وصلته أخبار واقعة « نصيبين » لعدم وجود الاسلاك البرقية وقتئذ . وتولي بعده على الاريكة العثمانية ابنه السلطان الغازي (عبد المجيد خان)

وفي ٤ يوليو من السنة نفسها شرع أحمد باشا القبودان الأول للأسطول العثماني فى تسليم هذا الاسطول لعزيز مصر وسبب ذلك انه كان يبغض خسرو باشا الصدر الاعظم بغضاً شديدا ويميل كثيرا الى عزيز مصر . فلما علمت الدول الاوروبية بهذا النبأ الغريب أرسلت مذكرة الى الباب العالى بتاريخ ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩ تفيده انها متفقة كلها على مساعدته فى هذه الازمة ودفع الخطر عن المملكة العثمانية. وقد اشتركت فرنسا مع بقية الدول في ارسال هذه المذكرة ولم يكن قصدها بذلك الاشتراك معها ضد (محمد على باشا) بل منع اتفاقها ضده اتفاقا حربياً

وبناء على رجاء فرنسا لم يتقدم « ابراهيم باشا » بعد « نصيبين » بل وقف عندها

وقد عرض وقتئذ بالمرستون وزير خارجية انكلترا على الدول الأوروبية ان ترسل جميعها انذارا لعزيز مصر تأمره فيه بسحب جنوده من الشام والاكتفاء بأمارته على مصر وتهدده بانها تنفذ مطالبها بالقوة ان لم يرض بها ويذعن اليها . فعارضت فرنسا مطلب بالمرستون أشد المعارضة وطلبت باسم (محمد على باشا) تعيينه أميرا على مصر والشام وبلاد العرب

واستمر الجدال بين حكومتي باريس ولوندره طويلا واشتدت لهجة السياسيين من الجانبين كما اشتدت لهجة جرائد الدولتين وتكدرت عقب ذلك العلائق بين الحكومتين . فسعت الروسيا فى ان تضم اليها انكلترا وتجعل مابين هذه وفرنسا من الخلاف اساساً لوفاق يوضع بينها وبين انكلترا وأرسلت لهذا الغرض البارون دى (برونو) للوندره. ولكن بعض وزراء الحكومة الانكليزية كانوا يخالفون بالمرستون رأياً وكانوا يودون الاتفاق مع فرنسا . فلم يتم لهذا السبب بين انكلترا والروسيا الاتفاق وعاد البارون دى (برونو) الى سان بطرسبورغ ليتلقى تعليمات جديدة

وقد زاد وقتئذ تهيج الشعب الفرنساوى فى صالح عزيز مصر ازديادا هائلا وخاف { لويس فيليب } ملك فرنسا من عواقب هذا التهيج فأمر بارجاع بقايا { نابليون الأول } من جزيرة سانت هيلينه ودفنها بباريس فى موكب حافل ليشتغل الشعب الفرنساوى عن مصر وأميرها بذكرى نابليون الأول وذكرى فتوحاته وانتصاراته العديدة . وبالفعل جيء بجثة نابليون الأول وسارت فى باريس في موكب لم ير له مثيل لا فى جلاله ولا في فخامته. مما حول أنظار الشعب الفرنساوى عن مصر قليلا لا كثيرا

أما انكلترا فقد اتفق سواسها مع البارون دى { برونو} بعد عودته من الروسيا ودعوا الدول الأوروبية لارسال مندوبين من قبلها لحضور مؤتمر يعقد بلوندره لحل المشكلة المصرية . وقد اشتركت فرنسا في هذا المؤتمر غير ان سفيرها بلوندرة المسيو {جيزو) الشهير وجه عنايته كلها

لمد أجل المؤتمر ومنع الدول من الوصول الى اتفاق نهائى لأن الحكومة الفرنساوية كانت مشتغلة سراً بالتوسط بين تركيا ومصر وكانت تؤمل بلوغ نتيجة مرضية لعزيز مصر بدون تداخل الدول الاخري .

وقد نجحت فرنسا فى مخابراتها السرية مع مصر والباب العالى بعض النجاح وتوصلت الى عزل (خسرو باشا) الصدر الأعظم . الا ان (بونسونبي) سفير انكلترا بالاستانة علم بمخابرات فرنسا السرية وأبلغ حكومته هذا الخبر العظيم الاهمية . فهاج (بالمرستون) لذلك واغتاظ كثيرا وصمم على الانتقام من فرنسا فدس الدسائس ضد (محمد على باشا) فى الشام وأقام أهلها ضده وعمل على عقد اتفاق بين انكلترا والروسيا والنمسا والبروسيا أى بين كل دول أوروبا ماعدا فرنسا . وبالفعل عقد هذا الاتفاق وأمضي مندوبو الدول الاربع فى لوندرة بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ على اتفاقية مختصة بالمشكلة المصرية .

وهذه الاتفاقية تضمنت ان (محمد على باشا) يرد الى الدولة جزيرة كريد وبيت المقدس وأطنه وبلاد الشام الشمالية وان يحفظ له ولأبنائه من بعده مصر ويتولى ولاية (عكا) مدة حياته . وانه ان لم يخضع لاوامر الدول في مدة عشرة أيام من تاريخ ارسال الانذار الدولى اليه لا تترك الدول له غير مصر وان لم يخضع فى مدة عشرة أيام أخرى لا تترك له مصر نفسها وتضمنت هذه الاتفاقية غير ذلك ان الدول تشترك في حماية بوغازى الاستانة والدردانيل ضد كل اعتداء

وقد اتفق مندوبو الدول في هذه الاتفاقية على انها تنفذ قبل توقيع

دولهم عليها اذا اقتضي الحال ذلك

وما علم (لويس فيليب) ملك فرنسا بهذه الاتفاقية حتى أعلن غضبه وسخطه ووافق وزيره الاول (تيير س) على الاستعداد للحرب فجند هذا الاخير الجنود الفرنساوية وجمع الرديف واشتغل بتحصين الحدود وساعد الجرائد على تهييجها الشعب ضد دول أوروبا . فتهيجت فرنسا كلها منادية بالانتقام لها ولأمير مصر من دول أوروبا

وفى ١١ سبتمبرسنة ١٨٤٠ ضرب الاميرال الانكليزى (نابييه) ثغر بيروت وجبر (ابراهيم باشا) على اخلاء هذا الثغر . وبعد اخلائه بثلاثة أيام أعلن الباب العالى عزل (محمد على باشا) من أمارة مصر نفسها وكان ذلك بناء على ايعاز (بونسونبي) سفير انكلترا بالاستانة . فاحدثت هاتان الحادثتان فى فرنسا تأثيرا شديدا وهياجا عظيما مما جعل عناية الحكومة الفرنساوية بتتميم استعداداتها الحربية عظيمة شديدة وصير الحرب قاب قوسين أو أدنى

وقد استعفى بعد ذلك بقليل المسيو (تييرس)من رئاسة الوزارة الفرنساوية وعين مكانه المرشال (سولت) وتقلد المسيو (جيزو) سفير فرنسا بانكلترا منصب وزارة الخارجية . فبذل أقصي جهده في تعديل اتفاقية ١٥ يوليو التى عقدت بين الدول الاربع فى لوندرة ولكنه لم يفلح في مسعاه لشدة كراهة (بالمرستون) وزير خارجية انكلترا لفرنسا ولعزيز مصر

وفي ذلك العهد جاءت الاخبار من الشام مؤيدة آمال بالمرستون فان

الاسطول الانكليزي والاسطول النمساوي استوليا على أهم الموانى السورية وخرجت (عكا) نفسها من أيدي الجنود المصرية فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٠ ـ ولم يستطع المرحوم(محمدعلى باشا) قمع الهيجان الذى احدثته الدسائس الانكليزية ضده فى الشام . فسر بالمرستون بهذهالاخبار وأراد ان يزيد الطين بلة ويجعل الاضطراب عاما في كل أنحاء أوروبا فاقترح على الدول الاوروبية عزل (محمد على باشا) من أمارة مصر نفسها واخراجه هو وعائلته من الديار المصرية . فازداد لذلك الهياج فى فرنسا ازديادا هائلا وحمل المسيو (تيرس) في مجلس النواب الفرنساوى على الوزارة حملة شديدة متهما أياها بترك انكلترا تنتقم من { محمد على باشا } صديق فرنسا الحميم فأجاب المسيو (جيزو) وزير خارجية فرنسا على اعتراضات { تيرس} وغيره من الخطباء بأن فرنسا لاتقبل أبداً نزع أمارة مصر من أيدي { محمد على باشا } وأبنائه من بعده وأنها مستعدة للدفاع عن حقوقه في مصر ولو اضطرت الي الحرب . فأدركت أوروبا من لهجة الحكومة الفرنساوية ان قبول اقتراح بالمرستون يكون داعية لحرب عامة وأصلا لمصائب جمة فرفضته إرضاء لفرنسا ومنعا للحرب وعواقبهاالوخيمة

ولم يرضخ المرحوم (محمدعلى باشا) لأوامر الدول الأوروبية الا عندمارأى ان فرنسا غير قادرة على مقاومة أوروبا كلها وان الأميرال الانكليزي (نابييه) يهدد ثغر الاسكندرية ان بقي مستمرا على المقاومة وعدم الانصياع لأوامر الدول . فأمضى معه اتفاقية تعهد فيها

بسحب الجنود المصرية من الشام وتعهد له فيها الاميرال (نابديه) بجعل امارة مصر له ولابنائه من بعده . وما وصل خبر هـذه الاتفاقية الى الاستانة حتى أشار « بونسونبي » سفير انكلترا بها على الباب العالى برفضها فرفضها وصرح بأنه لايقبل جعل امارة مصر وراثية لعائلة (محمد على باشا) بل له وحده مدة حياته

فلما علمت فرنسا بذلك عرضت حكومتها على مجلس النواب مشروع تحصين مدينة باريس أى اتمام الاستعدادات الحربية فأقر المجلس على المشروع بارتياح تام وأيد الحكومة فى خطتها ودفاعها عن حقوق مؤسس العائلة الخديوية . فاضطربت حكومة النمسا وحكومة البروسيا عند ماتحققت ان استعدادات فرنسا للحرب حقيقية وان الاعتداء على حقوق (محمد على باشا) وسلالته فى مصر يكون سببا لحرب عمومية فى أوروبا.واتفقتا على منع الحرب بكل الوسائل وتأييد « محمد على باشا » وسلالته من بعده فى امارة مصر وجبرتا بالفعل انكلترا والروسيا على تقديم مذكرة مشتركة معهما للباب العالي طلبت فيها الدول الاربع جعل امارة مصر لمحمد على باشا وسلالته من بعده . وقد قدمت هـذه المذكرة فى ٣١ يناير سنة ١٨٤١ وأخذت النمسا بعد تقديمها تجتهد فى استمالة فرنسا للاشتراك مع بقية الدول في أمر تسوية المسئلة المصرية . فقبلت فرنسا ذلك ولكنها اشترطت عدم التعرض لاتفاقية لوندرة التى أبرمت بالرغم عن معارضتها وتم مفعولها

وقد أقرت فرنسا مع الدول في لوندره على اتفاقية البوغازات التي

تضمنت قفل بوغاز الدردنيل والبوسفور لكل سفن الدول الحربية بلا استثناء

وقبل ان تمضي الدول على هذه الاتفاقية أصدر الباب العالى — متبعا فى ذلك نصيحة السفير الانكليزى « بونسونبي » — خطا شريفا أعلن فيه ان حكومة مصر تبقي وراثيـة لعائلة « محمد على باشا » ولكن الدولة تحتم انتخاب من تشاء من أعضاء العائلة لامارة مصر عند وفاة أميرها الحاكم وان لاتجند مصر اكثر من ثمانية عشر ألف عسكري وان تؤخذ الضرائب بنفس الطريقة التى تؤخذ بها في تركيا وأن يرسل للدولة منها الربع . فرفض عزيز مصر هـذه القيود كما رفضتها فرنسا وعاد الهياج والاضطراب فى فرنسا الي ما كانا عليـه . فاهتم « مترنيخ » وزير النمسا الاول بالامر وسعى فى عزل الصدر الاعظم « رشيد باشا » الذي كان يعمل بنصائح السفير الانكليزي فعزلته الدولة وعينت مكانه (رفعت باشا) وأصدرت ارادة جديدة بتعيين (محمد على باشا) واليا على مصر وجعل امارة مصر لابنائه من بعده الأرشد فالارشد. وبان يتفق بعد بين مصر والباب العالى على مبلغ ترسله مصر سنويا للدولة العلية

فقبل المرحوم (محمد علي باشا) هذه الشروط فى ١٠ مايو سنة ١٨٤١ ولم يعد لانكلترا وسفيرها بالاستانة حجة لخلق المشاكل ومد أجل الشقاق وبذلك أمضت الدول كلها فى لوندره بتاريخ ١٣ يوليو من السنة نفسها على اتفاقيتين الاولي معلنة قفل باب المسئلة المصرية (حين ذاك) والثانية متعلقة بقفل بوغازي الدردنيل والبوسفور أمام سفن الدول الحربية

وبذلك انتهت هذه الازمة المشؤمة

*
* *

لاريب ان المرحوم (محمد علي باشا) كان يعمل لتوسيع نطاق ملكه وكان مولعا بان يتولي امارة مصر والشام لتتم له الكلمة في الشرق وفى البحر الابيض المتوسط . وكأنه رأي ماراه قبله نابليون من ان صاحب مصر لا يهنأ له عيش ولا تكمل له سعادة بغير الشام وكذلك صاحب الشام لا تؤيد امارته ولا تقوي سلطته الا باستلامه زمام أمور مصر فطمح لذلك مؤسس العائلة الخديوية لجعل الشام تحت حكمه وانتهز فرصة رفض والي (عكا) قبول طلبه بارجاع المصريين المهاجرين من مصر الى وطنهم لفتح الشام وتحقيق أمانيه . ومما سهل له ذلك علمه بارتباك أحوال الدولة عندئذ واشتغال المرحوم السلطان (محمود الثانى) بتنظيم جيش جديد

وقد ذهب بعض المؤرخين الى ان (محمد علي باشا) كان يؤمل القبض على زمام الخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية والجلوس على أريكة ملك آل عثمان . ولكني لست ممن يرون هذا الرأي بل ولا ممن يظنونه ظنا . فان (محمد علي باشا) الذى وهبه الله من الذكاء النادر والفكر الحاد والنظر الصائب والبصيرة الصادقة ما جعله فى نظر الكثيرين فوق « نابليون » رأيا وعملا أبعد من أن يؤمل مثل هذا الامل المستحيل وان ذلك الذي سخرت له الرجال وذللت أمامه صعاب الاعمال كان يعلم أكثر من كل انسان ان زوال المملكة العثمانية أمر لا يكون الا اذا

زال هذا الوجود وان دولة الروسيا القوية العظيمة لم تستطع بلوغ هذه الغاية . فكيف به وما كان الا أمير مصر ؟

كلا . انى لست ممن يرون بان مؤسس العائلة الخديوية الكريمة كان يؤمل أو يحلم ان يقبض على زمام الدولة العثمانية ولكنه كان يريد أن يحكم الشام مع مصر . وهاهي رسائله الى { لويس فيليب } ملك فرنسا مدونة في المستندات الرسمية والتاريخية تثبت ان غاية أمانيه كانت الاستيلاء على الشام .

ولو كان يعلم عزيز مصر بالنتائج السيئة والعواقب الوخيمة التي تنشأ عن دخوله الشام ووقوع الخلاف بينه وبين الدولة العلية لكان ولا محالة عدل عن أمنيته وعمله . ولا جرم أن (محمد على باشا) تندم طويلا على هذا الخلاف المشؤم وتحسر على ما فرط منه

وقد يذهب الانسان عند مايقلب صحائف تاريخ هذه الازمة المشؤمة الى ان هنالك أسرارا لم يكشفها لنا التاريخ دفعت بعزيز مصر ضد الدولة العلية . فان المرحوم (محمد على باشا) كان يعلم علم اليقين ان انكلترا هي أول عدوة له ولمصر وانها لذلك تعاكسه بكل ما في وسعها . وكان لا يغيب عنه ان الروسيا لا يروق لها استيلاؤه على الشام وتأسيس دولة اسلامية جديدة يكون لها من القوة والحول ما تستطيع معه الدولة العلية يوما من الايام ان تقهر الروسيا وتردها عن ديارها

وعلى أى حال فهذه الازمة المشؤمة يجب أن تكون درساً أبديا للعثمانيين والمصريين بل ولسائر المسلمين . فان هذا الخلاف القديم كان سببا

لمصائب جمة تساقطت على مصر وعلى الدولة العلية . وفى أغلب الملمات التي نزلت بالدولة أو بمصر يري الانسان أثرا من آثار ذلك الشقاق المنحوس

وقد يعمل بعض المفسدين على احياء الضغائن في صدور رجال الدولة العلية بأيهامهم ان مصر طامحة الآن وفي كل آن الي ماطمح اليه مؤسس العائلة الخديوية . وهى دسيسة لايقصد بها الا الاضرار بمصالح الدولة وبمصالح مصر

فاذا كان الخلاف القديم قد جرّ على الدولة وعلى مصر المصائب والبلايا فواجب على بني الدولة وبنى مصر أن يعتبروا به وان يجعلوا الوفاق والاتفاق رائدهم فى كل أعمالهم ، فمصر من الدولة روحها ومن الخلافة فؤادها ولا حياة لهذا الجسم العظيم الا بالاتفاق بين أعضائه فى العمل

واذا كانت دول أوربا تتحد وتتفق مع قوتها وعظمتها عند مايهم المسيحية أمر فكيف لاتتحد معاشر المسلمين وبلادنا واقعة فى أشد البلاء والاخطار محدقة بها من كل جانب وأعداؤها يكيدون لها أعظم كيد كلما سنحت لهم الفرص

لاسلامة للدولة العلية ولمصر الا بالوفاق والاتحاد وقد أدرك هذه الحقيقة المصريون عن بكرة أبيهم مقتدين بالعباس أميرهم المحبوب فتقربوا من الدولة العلية وجاهروا بمحبتها في السراء والضراء واعترف العالم كله بأن أهل مصر أصدق المخلصين للدولة العلية وللعرش الشاهاني اذ ثبت ذلك بأجلى بيان في الحرب الاخيرة . ولا ريب عندي ان أمة مصر العزيزة ثابتة فى أميالها لاتتحول أبد الدهر عن اخلاصها للدولة العلية حماها الله

وأنه ليجب علي كل مصرى صادق وعلى كل عثمانى يخلص الحب لبلاده ان يحبط أعمال الذين يبثون الدسائس بين مصر والدولة العلية ويلقون بذور الشقاق بين جلالة الخليفة الاعظم وسمو الخديوي الافخم فان أولئك العاملين على خلق الشحناء والبغضاء بين المتبوع والتابع لاشد خصوم الدولة وألد أعدائها

(كتاب)

من { محمد على } أمير مصر

الي

{ لويس فيليب } ملك فرنسا

نأتى هنا على ترجمة كتاب ارسله عزيز مصر الي ملك فرنسا بشأن حوادث الشام ومسئلة الخلاف بينه وبين الدولة العلية. وكنا قد نشرناه في جريدة المؤيد الغراء عقب خطبة القيناها بالاسكندرية وأشرنا فيها اليه .

ومن هذا الكتاب يعرف القاريء حقيقة أفكار المرحوم (محمد على باشا) وأمياله وقت الأزمة السالفة الذكر

القاهرة فى ١٦ رمضان سنة ١٢٥٦ هجرية (نوفمبر سنة ١٨٤٠)

أيها الملك المعظم

انى أشعر بالحاجة لاظهار شكرى لجلالتكم . ذلك الشكر الذى يجيش فى صدري

فلقد ألقت نحوى حكومة جلالة الملك من أمد بعيد انظار رعايتها واليوم تتوج جلالتكم مآثرها على باعلانها للدول ان وجودي السياسي ضروري للموازنة الاوربية

وان هذه العواطف الجديدة من شأنها أن تحدد لى واجبات أعرف القيام بها . وأول هذه الواجبات هو أن أوضح لملك فرنسا بكل صراحة أسباب سلوكي الحالى واحداً بعد آخر

لقد كانت فى سائر الازمان سعادة الدولة العثمانية أصدق أمنية أتمناها من صميم فؤادي حيث انا أود أن أراها دائما سعيدة قوية آمنة .وكانت قصاري آمالي ومرامى انظاري موجهة نحو مساعدتها على أعدائها أولا والمحافظة على كل ماملكته يدي بعد المجاهدات العظيمة في سبيل الدفاع عنها ثانيا

أما الذي حببنى نحو فرنسا — وأقول ذلك بكل صراحة — وحملني على اتباع نصائحها دائما فهو ماتبينته من انها أكثر الحكومات رغبة في خير الدولة العثمانية بلا خديعة ولا مواربة ولا شائبة قصدسيء . وكذلك أرجو ان تعتقد جلالتكم ان حبي لبلادي هو الذى كان دائما الدافع لي والقائد لرمامى

وعلى ذلك استطعت بعد المجاهدات العظيمة والاحوال المتناقضة تأييد الامن في الشام فحل فيها اليوم السلام محل الفوضي والاضطراب . واذا كنت قد أظهرت عظيم رغبتى في بقاء هذه البلاد تحت حكومتي فذلك لاني معتقد بانها اذا نزعت من يدى عادت اليها المصائب التى استأصلت

جرائمهامنها.ومن جهةأخرى أرىان الشام تصيراذا بقيت فى يدى عنصر قوةأستطيع بهوقتئذ مساعدة مولاى السلطان ودولتى العلية مساعدةفعلية حقيقية ولكنها لما كانت فى يد الدولة العلية — وذلك ماأتجاسر على القول به — كان الاضطراب والفوضي والحروب الاهلية مستحكمة فيها . وهاقد تحققت اليوم شيأ مما كنت أخافه . فلقد ساعد النفوذ الاجنبي عناصر الشقاق والاضطراب حيث لم يكن يفلح أول الامر مسعي الذين كانوا يهيجون الامة . ولكن مساعى أولئك الذين يظنون أنهم يخدمون استقلال تركيا باحداثهم الاضطراب فى احدي ولاياتها نجحت هذه المرة لا فى اهاجة خواطر البلاد فقط بل وفي اقامة الامة ضد بعضها فثارت بذلك الحروب الاهلية

وان دواعي المصلحة العمومية التى كانت ترغبني فى المحافظة على الشام وجعلها تحت حكومتى زالت اليوم بالمرة ولم تبق هنالك الا مصالحى الخصوصية ومصالح عائلتى واننى مستعد لحياطة هذه المصالح بكل مايصل اليه جهدى في سبيل سلامة العالم . فاترك اذن الامر للحكمة العالية واضع بين يدي ملك فرنسا حظى فهو الذى يسوى كما تقتضيه رغبته الخلاف الحالى

واذا وافق ماأعرض على جلالتكم فانى أرضي من الشام بعكا لانها البلد التى قاومت بكل الوسائل مساعي التهييج التى عملت لاثارتها ضدي . وقد يجوز اذ جلالتكم تري من العدل ان تترك لى جزيرة { فنديه } التى صارت تحت سلطة حكومتي حسنة زاهية من عهد بعيد .

ولكن اذا أرشدتكم حكمة جلالتكم العالية الى ان زمن التساهل والتنازل قد فات وان المحافظة الشديدة واجبة فاني مستعد للكفاح الي آخر لحظة من حياتي أنا وسائر أولادي . وان جيشي في الشام لا يزال عظيما ودمشق وحلب وكل المدائن المهمة لاتزال تحت سلطتي وجيشي الذي في الحجاز هاهو عائد نحو مصر وقد وصل قسم منه الي القاهرة ويصل القسم الآخر قريبا . وبين يدي شيوخ ذوو نفوذ هم نازعون الآن الى جبل لبنان متعهدين بان يخضعوا لسلطتي الدروز والمارونيين . ولديّ أربعون باخرة مستعدة للسفر لاول اشارة من جلالتكم

وعليه فأؤمل ان أسباب مسعاى لاتبقى مجهولة بعد اليوم حتى لا يظن انسان ما أن الخوف صار قائدي الآن فان حياتي كلها براهين داحضة لمثل هذه الدعوي . ولو كان الخوف يقودني لجاز أن أرى ضعيفا واهنا ولكنت تنازلت منذ ١٥ يوما حيث كان وجودي مهددا بالاخطار . ولكن اليوم وقد أنقذ وجودي السياسي باعلان فرنسا فانني لاأخاطر بشيء كبير ان طالت الحرب

كلا . وليست القوة التي يعدونها ضدي هي التي ترهبني . بل ان الذي يرهبني هو ان أكون سببا لحرب عمومية وأن أجر فرنسا التي أنا مدين لها كثيرا الى حرب لايكون لها داع غير فوائدي ومصالحي الشخصية

ولهذا فانني أعرض حقيقة الامر على انظار جلالتكم واعترافي لكم بالجميل يجعل ذلك فرضاً وواجباً عليّ. فضلا عن اني معجب وواثق بملك

فرنسا ذلك الاعجاب وهذه الثقة اللتين تحمل العالم كله عليهما حكمة جلالتكم وذكاؤكم العالى . وانني بهما أضع حظى بين يديكم

ومهما كان قرار الملك فانى أقبله بشكر وامتنان مادامت جلالتكم مشتركة في المعاهدة التي سيتفق عليها بين الدول العظيمة والتى تقرر حظى ومستقبلى .

وأخيراً مهما وقع ومهما كان الامر فانى أرجو الملك أن يسمح لي بأن أقول له « ان اعترافى بالجميل نحوه ونحو فرنسا سيبقى فى قلبي الى الابد وانى أتركه ارثا لابنائى وأبناء أبنائي من بعدى كواجب مقدس »

ولقد كنت أود أن أكلف أحد ضباطي العظام المعول عليهم بحمل هذا الكتاب الي أعتاب جلالتكم . ولكن الصعوبة وطول القورنتينة حملتانى على تكليف الكونت « والوسكي » بتوصيله الي جلالتكم اه

(محمد على)

الازمة الثالثة

حرب القرم

تبين للقارىء من الفصل السابق ان انكلترا حلت محل الروسيا في النفوذ لدي الباب العالى وصارت وحدها المسموعة الكلمة فى الازمة الاخيرة عند رجال الدولة وانها توصلت الى ابطال معاهدة (خونكار اسكله سى) التى خولت للروسيا حق ارسال جيوشها الى قلب الدولة العلية عند الحاجة .فاستاءت الروسيا لذلك وعقدت النية على الانتقام من الدولة العلية التي أحلت انكلترا محلها وقد كان المرحوم السلطان الغازى (عبد المجيد خان) عاملا على اصلاح أحوال الدولة وتنظيم ادارتها فأصدر فرمان الكلخانة الشهير الذي اشتمل على اصلاحات عديدة كانت تكفي لتقويم أحوال الدولة وتقويتها فى ظرف قليل من السنين . فساء ذلك القيصر (نيقولا الاول) لان سياسته كانت تقتضي تقهقر الدولة على الدوام وعدم تمكنها من اصلاح شؤونها وتقويم المعوج فى أحوالها. ولذلك أوعز الي المسيحيين الارثوذكس في الدولة بمعارضة « التنظيمات » والعمل على ايقاف تنفيذها. وبالرغم عما بذله الارثوذكس من معارضة التنظيمات الجديدة فان الحكومة العثمانية التي كان على رأسها وقتئذ (رشيد باشا) ابتدأت في تنفيذها واستبشر كل العثمانيين بقرب فلاحها تمام الفلاح ونيل ثمارها . الا ان ذلك كان من شأنه ازدياد حقد القيصر (نيقولا الاول) على الدولة العلية . فأمر باجراء التجهيزات الحربية اللازمة واستعد لمحاربة الدولة مؤملا اضعافها وايقافها فى طريق الاصلاح

ولايجاد المشاكل بين الروسيا والدولة العلية أوعز القيصر { نيقولا الاول } الي القس « دانيلو » الذى كان حاكما على الجبـل الاسود وتابعا للدولة العلية بان يرفع راية العصيان في وجه الدولة ودعاه قبل ذلك للسفر الى سان بطرسبورغ فسافر اليها وقوبل فيها باحتفاء عظيم وأهداه القيصر المـال والنياشين وحرّضه ضد الدولة بكل أنواع التحريضات حتى عاد الي الجبل الاسود ونادي أهله باسم الصليب والدين الارثوذكسي بالقيام في وجـه الدولة فلبوا نداءه وثاروا أجمعين

فلما علمت الحـكومة العثمانية بذلك سيرت جيشا عظيما بقيادة عمر باشا { وهو قائد عثمانى جليل اشتهر بقهر بلاد البوسنه } لقمع ثورة أهل الجبل الاسود . فسار الجيش ووقعت بينه وبين الثوار مواقع دموية فى جبال هـذه البلاد حتي قهر الثوار وتم له الظفر والنصر . وقد كان لهذه الحادثة تأثير شـديد فى أوروبا فاهتمت كل الدول بالأمر وعلى الخصوص النمسا فانه كان يهمها عدم اضطراب الاحوال في البلقان ولـكنها كانت مدينة للروسيا بمساعدتها فى عام ١٨٤٩ في قمع الثورة المجرية فاضطرت للتظاهر بمساعدة أهل الجبل الاسود لدي الباب العالى وكان غرضها الحقيقي توطيد السكينة والسلام في البلقان واحباط مساعى الروسيا . فسألت الباب العالي فى آخر عام ١٨٥٢ ان يعتدل في انتقامه من أهالى الجبل الاسود حتى لاتجد الروسيا حجة لخلق مشاكل جديدة

وفى هذه السنة نفسها حدث خلاف عظيم بين الروسيا وفرنسا بشأن الاماكن المقدسة فى الشام وذلك ان لفرنسا بمقتضى معاهدات قـديمة

وحقوق ثابتة حماية معنوية على الكاثوليكيين فى الشرق . وقد توصلت بهذه الحماية الي جعل مفاتيح كنائس (أورشليم) بأيدى الكاثوليكيين . فأرادت الروسيا أن ترفع كلمة الدين الارثوذكسي بتسليم مفاتيح الكنائس بأورشليم الي القسس الارثوذكس ليزداد نفوذها فى الشرق مما يخالف مصلحة فرنسا فى الشرق وشرفها كل المخالفة فلذلك احتجت الحكومة الفرنساوية على رغبة الروسيا وطلبت من الباب العالي ان يفصل في هذا الخلاف بمقتضى الحقوق والمعاهدات فعين الباب العالى لجنة للتحقيق .وبعد بحث طويل أقرت اللجنة على ان للكاثوليكين وحدهم الحق في امتلاك الكنائس بأورشليم . وبناء على هذا القرار أصدر الباب العالى فرمانا بذلك بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٥٢ .فاستاءت الروسيا من هذا الفرمان غاية الاستياء وألحت على الحكومة العثمانية بابطاله مدعية ان معاهدتى «قينارجه »و «ادرنه »تخولان لها هذا الحق ولكن الباب العالي أبقى فرمان ٩ فبراير بالرغم عن الحاح الروسيا ومعارضتها

وفى آخر عام ١٨٥٢ تعين لويس نابليون (نابليون الثالث) امبراطورا على فرنسا فعمل على رفع شأن بلاده فى الشرق وسر لهذا الخلاف الناشي بين دولته وبين الروسيا ليدافع فيه عن مصالح الكاثوليكية ويستميل بذلك رجال الدين اليه

وقد خافت النمسا وقتئذ ان يتسع الخرق على الراتق وتشتعل نيران الاضطرابات في البلقان ونيران الحرب بين الروسيا والدولة العلية فبذلت جهدها في تسوية مسئلة الجبل الاسود وأرسلت فى يناير عام ١٨٥٣ الي

الاستانة الكونت دى { لينجن } يرجو الباب العالى باسم النمسا توطيد السكينة فى هذه الجهات المضطربة والعفو عن ثوار الجبل الاسود ومكافأة المسيحيين الذين لم يثوروا ولحقهم الضرر في هذه الاضطرابات فأجاب الباب العالي رجاء النمسا وتأيدت السكينة والطمأنينة فى الربوع المضطربة .

اما مايختص بمسئلة الاماكن المقدسة فقد أرادت فرنسا ان تتساهل مع الروسيا خصوصا وانها بلغت مرامها واكتسب (نابليون الثالث) ميل الكاثوليكيين اليه فسألت الباب العالي ان يمنح القسوس الارثوذكس بعض امتيازات في كنائس أورشليم وخابرت الحكومة الروسية فى أمر عقد لجنة بسان بطرسبورغ من مندوبى الحكومتين للنظر فى مسئلة الاماكن المقدسة فقبلت الروسيا وكان يخيل وقتئذ للعالم كله ان الخلاف بين الروسيا وفرنسا أوشك ان ينتهي بسلام

*
* *

غير ان القيصر (نيقولا الاول) أمر فى الوقت نفسه البرنس (منشيكوف)بالسفر الى الاستانة ليخلق سببا لاعلان الحرب على الدولة العلية . وكانت مأموريته ظاهرها انه مكلف بتسوية مسئلتي الجبل الاسود والاماكن المقدسة مع الباب العالى . وقد سافر (منشيكوف) من سان بطرسبورغ في ١٠ فبراير سنة ١٨٥٣ مصحوبا بضباط عديدين خلافا للعادة الجارية عند سفر أحد السياسيين الى أحدي العواصم لمخابرة حكومتها فى أمر . وجمعت الروسيا على نهر { بروث } جيشا مكونا من خمسين ألف عسكري وبدت جليا لكل أوربا رغبة الروسيا فى الحرب بل عزمها على اعلانها

وكان يظن القيصر (نيقولا الاول) ان البروسيا والنمسا تساعدانه ضد الدولة العلية وان انكلترا لا تعارضه فى شيء وكان لا يخاف مساعدة فرنسا لتركيا ولا يظن ان انكلترا وفرنسا تتحدان مع تركيا ضده . وكان سفيره بلوندرة يمثل له الحكومة الانكليزية ميالة للسلم والرأي العام الانكليزي مضادا للحرب والعلائق بين انكلترا وفرنسا غير متينة لا يخشي معها من عقد اتفاق بين هاتين الدولتين . كل ذلك حمل القيصر (نيقولا الاول) على الاستعداد للحرب وعدم المبالاة بنتائجها

وقد سعى القيصر طويلا فى الاتفاق مع انكلترا على تقسيم الدولة العلية بين دولته وبينها فتحادث في هذا الصدد كثيرا مع السير (هاميلتون سيمور) سفير انكلترا بسان بطرسبورغ ولكنه لم يفلح لان انكلترا كانت تعلم ان بقية الدول الاوربية لا ترضي بأمر خطير كهذا وان تقسيم الدولة العلية ليس بالامر السهل وعلى فرض وقوعه فانه يجر اكبر المصائب على العالمين فضلا عن ان هذا التقسيم لا يفيد فى الحقيقة غير الروسيا

وفى ٢٨ فبراير سنة ١٨٥٣ وصل البرنس « منشيكوف » الى الاستانة بين رجاله وضباطه وفى أبهة أراد بها التأثير على أفكار رجال الباب العالى. وصار فى كل أفعاله يعمل على خلق سبب لاعلان الروسيا الحرب على الدولة العلية فطلب أولا عزل (فؤاد باشا) ناظر الخارجية العثمانية الذي كان عدوا للروسيا لتسهل له المخابرات . ثم عرض على الباب العالى مشروع عقد تحالف دائم بين الروسيا والدولة العلية تعترف فيه الدولة بحماية القيصر على الكنيسة اليونانية . فاندهش رجال الدولة من هذا المشروع الغريب

وأدركوا ان الروسيا تريد اعلان الحرب لانها تعلم جيدا أنه يستحيل على الدولة قبول هذا المشروع فان لرؤساء الكنيسة اليونانية سلطة دنيوية على نحو الخمسة عشر مليونا من المسيحيين وما حماية الروسيا على الكنيسة اليونانية الا حماية حقيقية على هؤلاء المسيحيين.

وقد أبلغت الدولة العلية سراً وكلاء الدول الاوربية طلب الروسيا هذا ووصل عندئذ للاستانة سفيرا فرنسا وانكلترا بها وكلفا من قبل حكومتيهما بالعمل بالاتفاق. وبما ان البرنس (منشيكوف) كان لا يزال يجاهر بأن مأموريته تنحصر فى حل مسئلتى الجبل الاسود والاماكن المقدسة اتفق السفيران على تعجيل حل هاتين المسئلتين حتى يضطر «منشيكوف» الى مبارحة الاستانة وإعلان انتهاء مأموريته أو التصريح بنوايا القيصر الحقيقية. وسبق اننا ذكرنا ان مسئلة الجبل الاسود انتهت بتوسط النمسا لدي الباب العالي. أما مسألة الاماكن المقدسة فقد رضيت فرنسا بتسويتها بما فيه ترضية للقيصر وتمت هذه التسوية فى ٤ مايو سنة ١٨٥٣ ولم يبق هنالك سبب ظاهرى لبقاء «منشيكوف» بالاستانة. الا ان القيصر بقى على نيته الاولي وكان لا يزال يظن ان انكلترا لا تساعد الدولة ضده فقدم «منشيكوف» في ٥ مايو سنة ١٨٥٣ للباب العالى انذارا شديد العبارة طلب فيه أن يجيبه فى ظرف خمسة أيام على طلبه بشأن عقد اتفاقية بين الدولتين يضمن فيها الباب العالى للكنيسة اليونانية حريتها الدينية وامتيازاتها الدنيوية ويجعل للروسيا عليها حماية حقيقية وأعلن «منشيكوف» الباب العالي فى انذاره بانه ان لم يقبل مطالب الروسيا

قامت الحرب بين الدولتين . فأجاب الباب العالى بان الكنيسة اليونانية متمتعة بتمام حريتها وبانه مستعد مع ذلك لان يؤكد امام العالم كله لسائر رعاياه المسيحيين ضمانته لحريتهم الدينية وبانه يرفض رفضاً باتاً جعل الكنيسة اليونانية تحت حماية الروسيا مبيناًللبرنس { منشيكوف} أنه لايستطيع قبول هذا الطلب بدون تعريض استقلال الدولة للخطر ووضع ادارتها الداخلية تحت مراقبة أجنبية { أى تحت مراقبة الروسيا }

وفي ذلك الحين عين (رشيد باشا) صدراً أعظم ووزيراً لخارجية الدولة وكان معروفا بكراهته الشديدة للروسيا فتظاهر (منشيكوف) ببعض اعتدال في خطته وسأل الباب العالي ان يرسل رسالة للحكومة الروسية يصرح لهافيها بقبول مطالبها وبذلك لاتطلب منه الروسيا عقد اتفاقية بهذه المطالب . فأجاب { رشيد باشا } على هذا السؤال الجديد بالرفض وكان ذلك فى ٢٠ مايو سنة ١٨٥٣ . فانقطعت المخابرات وعاد (منشيكوف) الي سان بطرسبورغ . وفى ٣١ مايو من السنة نفسها أرسل { نسلرود} وزير الروسيا الاول انذارا جديداً للباب العالى بمعنى انذار « منشيكوف » وأعلن فيهبان الروسياتحتل مقاطعتي الافلاق والبغدان اذا رفض الباب العالى قبول مطالبها . وقد كان ورفض الباب العالى رفضاً جديداً قبول هذه المطالب فأرسل { نسلرود } فى ١١ يونيو سنة ١٨٥٣ الى وكلاء الروسيا لدي الدول الاجنبية منشورا بين لهم فيه الاسباب التي حملت الروسياعلى الشروع فى احتلال الافلاق والبغدان أى

على اعلانها الحرب على الدولة العلية

*
* *

ما انتشر خبر تهديد الروسيا للدولة باحتلال مقاطعتي الافلاق والبغدان حتى هاج الرأي العام في انكلترا وفرنسا واندهش ساسة الحكومتين من جراءة الروسيا الغريبة واقدامها على هذا العمل الخطير النتائج . فاتفقتا علي مساعدة الدولة العلية ضدها وأرسلتا اسطوليهما الي فرضة «بزيكا» أى الى مدخل الدردانيل ليسهل لهما ان تساعدا الحكومة العثمانية مساعدة فعلية عند مسيس الحاجة

واظهارا لما جلبت عليه العائلة السلطانية المعظمة من محبة رعاياها على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم وحسن رعايتها لهم على السواء أصدر الباب العالى خطا شريفا بتاريخ ٦ يونيو سنة ١٨٥٣ منح فيه سائر المسيحيين فى الدولة العلية الحرية الدينية التامة أى أكدلهم استمرار الحكومة العثمانية على احترام هذه الحرية التي تمتعوا بها دائما هم وأسلافهم من قبل. وعرضت فرنسا من جهة أخري علي الدول الاوروبية مشروع عقد مؤتمر لازالة الخلاف بين الروسيا والدولة العلية. فبرهنت بذلك الدولة العلية ونصيرتها الاولي فرنسا على اعتدالهما وميلهما للسلم وتركتا مسؤلية الحرب وسفك الدماء على الحكومة الروسية التى بقيت على عنادها ولم ترجع عن قصدها

وعند ما علم القيصر (نقولا الاول) بارسال الاساطيل الفرنساوية والانكليزية الى الدردانيل غضب غاية الغضب وزاد غضبه رفض الباب العالي للانذار الذي أرسله اليه المسيو (ذى نسلرود) وزير الروسيا

الاول فأصدر الي الشعب الروسي بتاريخ ٢٥ يونيو من السنة نفسها منشورا يبن له فيه انه أشهر على تركيا حربا يجب عليه اعتبارها حربا صليبية وجهادا فى سبيل الارثوذكسية . وبعث كذلك (دي نسلرود) بمذكرة الي الدول الاوروبية أظهر لها فيها ان الدولة العلية وانكلترا وفرنسا جبرت الروسيا على الحرب باعمالها العدائيه ضدها . كأن وزير القيصر أراد أن يغالط أوروبا بهذه المذكرة أو كأنه نسي ان دولته هددت تركيا باحتلال مقاطعتى الافلاق والبغدان وان فرنسا وانكلترا ما أرسلتا باسطوليهما الى مياه الدردانيل الا عند توقع اشتعال نيران الحرب

وقد هاجمت الجيوش الروسية فى ٤ يوليو سنة ١٨٥٣ مقاطعتى الافلاق والبغدان واحتلتهما بعد أيام قليلة فاستولى بذلك القلق على أفكار سواس الدول الأوربية وعلى الخصوص دولة النمسا التى كان موقفها حرجا للغاية فانها كانت لاترضى معارضة الروسيا لما لهذه الدولة عليها من الايادى البيضاء في قمع الثورة المجرية عام ١٨٤٩ ولانها الدولة الوحيدة التى تستطيع مساعدتها ضد الثورات فضلا عن ان الروسيا كان في قدرتها أن تهيج العنصر السلافى فى بلاد النمسا ضد الحكومة النمساوية. وكان من جهة أخرى اعتداء الروسيا على الدولة العلية مخالفا لمصلحة النمسا كل المخالفة وكان سواسها يعلمون علم اليقين انها لو ساعدت الروسيا استطاعت فرنسا وانكلترا ان تهيج ضدها ايطاليا والمجر وبولونيا . فلذلك بقيت النمسا محتارة في أمرها مضطربة في سياستها وغاية ماأقر عليه سواسها انهم سألوا الباب العالي ان لايجعل جوابه على احتلال الروسيا لمقاطعتى الافلاق والبغدان اعلان الحرب عليها بل

مجرد احتجاج على هذا الاحتلال حتي يسهل للنمسا مخابرة الدول في حل المسئلة حلا سلمياً . فقبل الباب العالي سؤال النمسا وبرهن بذلك للعالم كله على عظيم اعتداله وسلامة أمياله مما شجع النمسا على دعوة الدول لعقد مؤتمر بفيينا . وقد أجابت الدول دعوة النمسا واجتمع مندوبوها بفيينا في ٢٤ يوليو سنة ١٨٥٣ ولم تقبل الروسيا الاشتراك فى هذا المؤتمر بل اكتفت بأن وعدت الدول بقبول ماتقرره فيه ان وافق مصلحتها .

وقد أقر هذا المؤتمر على قرار مبهم العبارة والمعني كان يسهل لسواس الروسيا أن يفسروه حسب اهوائهم وأغراضهم فرفضته الدولة العلية منعا للمشاكل . فلما رأت فرنسا وانكلترا ان الاتفاق مستحيل وان الروسيا عاملة على منعه وايقاد نيران الحرب أمرتا أسطوليهما بعبور الدردانيل والوقوف أمام الاستانة . وكان ذلك بناء على طلب الباب العالي ورغبته وفى آخر سبتمبر سنة ١٨٥٣

وفى هذه الاثناء تقابل القيصر (نيقولا الاول) في مدينة (اولموتز) مع الامبراطور (فرنسوا جوزيف) امبراطور النمسا وطلب منه الاتحاد معه ضد تركيا وفرنسا وانكلترا فاعتذر امبراطور النمسا عن قبول هذا الطلب مظهرا للقيصر أسفه من عدم تمكنه مساعدته . فلما لم يجد من امبراطور النمسا اقبالا على مساعدته طلب من ملك بروسيا مقابلته وقابله وعرض عليه كذلك الاتحاد معه ولكن نتيجة مسعاه عند ملك بروسيا كانت كنتيجة مسعاه عند امبراطور النمسا

أما الدولة العلية فقد اهتمت باتمام تجهيزاتها الحربية ولم تغفل شيأ

من لوازم الحرب . وكان الرأى العام العثمانى متهيجا جـداضد الروسـيا والمسلمون فى حالة قلق وهياج عظيمين خصوصا وان منشور القيصر لشعبه أبان لهم ان الحرب دينيةصليبية فاجتمعوا اجتماعات وألوفا امام سراى السلطان وطلبوا بأعلى أصواتهم اعلان الحرب قلبت الدولة طلبهم وبعد جلسة عقدت من وزراء الدولة وكبرائها تحت رئاسة المرحوم السلطان الغازى { عبد المجيد خان } أعلنت الدولة الحرب على الروسـيا بتاريخ ٤ اكتوبرسنة ١٨٥٣ . وفى ٨ منه أنذر (عمر باشا) قائد الجيوش العثمانية البرنس (غورتشاكوف) قائد الجيوش الروسـية بانجلاء العساكر الروسية من مقاطعتى الافلاق والبغدان وحدّد له خمسة عشر يوما أجلا للجلاء يبتدئ الحرب بعـدها اذا لم ينفذ البرنس (غورتشاكوف) طلب (عمر باشا)

وقدكان القيصر « نيقولا الاول » مؤملا قهر تركيا ليس فقط بقوة جيوشه الجرارة بل بفضل الاضطرابات والثورات التي كان يعمل عماله وصنائعه لاحداثها فى الدولة العلية. فان جملة من مهيجي اليونان قاموا فى مقاطعة تساليا وابيرا اللتين كانتا تحت حكم الدولة بتحريض الاهالي على العصيان في وجه الحكومة العثمانية .وساعدت الحكومة اليونانية وقتئذ هؤلاء المهيجين وسمحت لعدد عديد من ضباطها وجنودها بالسفر سراً الي تساليا وابيرا لنشر لواء الثورة بالفعل. وكان القيصر يحرض من جهـة أخرى شاه العجم على محاربة الدولة العلية

ولمـا كان أمل القيصر وطيدا في نجاح ثوار اليونان والوصول الي

احـداث الاضطرابات فى الدولة من كل جانب أظهر لدول أوروباميله للسلم ورغبته فى تسويه المسئلة تسوية سلمية . وكان قصده بذلك إغفال الدولة العلية عن اتمام تجهيزاتها الحربية واضعافها بالاضطرابات والثورات .

وقد اغترت النمسا بتصريحات القيصر وحسبتها صادرة عن اخلاص فجمعت سفراء الدول بفيينا ثانيـة في مؤتمر . وقررت معهم في ٥ دسمبر سنة ١٨٥٣ أمرين الاول المحافظة على استقلال الدولة العليـة والثانى استقلال الحكومة العثمانية تمام الاستقلال فى ادارتها وأعمالها الداخلية .

وأرسلت النمسا مع هـذا القرار مذكرة للباب العالى سألته فيها أن يخبر الدول فى أقرب وقت على أى شروط يقبل المخابرة مع الروسيا فى أمر الصلح

ولكن جيوش الدولة كانت فدسارت تحت قيادة (عمر باشا)وهزمت الجنود الروسية هزيمة عظيمة اهتزت لها أوربا كلها وانتهت باسترجاع الدولة لمقاطعة الافلاق الصغرى وبابعاد الجيوش الروسية من صربيا التى كان يجتهد الروسيون فى تهييجها ضـد الدولة . وفى آسيا أتى الجيش العثماني بقيادة (عبده باشا) ما أتاه مثيله بقيادة(عمرباشا) حيث دخل الاراضي الروسية وهـزم جنودها واحتـل قلعـة (سانت نيقولا) . فأزعجت القيصر هذه الانتصارات الباهرة وانتقاما من تركيا أمر أسطوله بالبحر الاسود أن يدمر أسطولها ففاجأه في ميناه (سينوب) وأرسـل عليه نيرانا حتي دمره بعد مجهودات عظيمة

فلما وصل خبر واقعة (سينوب) الي المرحوم السلطان (عبدالمجيد خان)

أرسل الي دولتي فرنسا وانكلترا يسألهما ارسال أساطيلهما الى البحر الاسود لحماية الموانى العثمانية . فأجابت الحكومة الفرنساوية الطلب بدون امهال بخلاف الحكومة الانكليزية فانها تأخرت لعدم ميل { أبردين } رئيس الوزارة الانكليزية الى الحرب وأمله في حل المسئلة حلا سلميا . غيران الرأى العام الانكليزى كان ميالا الي الحرب متهيجا ضد الروسيا وكان (بالمرستون) وزير خارجية انكلترا من اكبر أنصار الحرب فقدم استعفاءه فى ١٥ دسمبر عام ١٨٥٣ عند مارأى تأخر (أبردين) فى ارسال الاساطيل الانكليزية الي البحر الاسود . فازداد تهيج الرأى العام الانكليزى واضطر (أبردين) الى دعوة بالمرستون لسحب استعفائه والعودة للوزارة تاركا له قيادة السياسة الانكليزية كما يرى ويشاء فأرسل (بالمرستون) الاساطيل الانكليزية الى البحر الاسود حسب طلب الدولة العلية .وفي ٢٧ دسمبر أرسلت فرنسا وانكلترا مذكرة مشتركة للروسيا أعلنتاها فيها بوجوب سحب مراكبها وسفنها من البحر الاسود وبان أساطيلهما داخلة الي هذا البحر وبانهما تسمحان للدولة العلية بترك مراكبها وسفنها فيه . فكان ذلك الاعلان فى الحقيقة اعلانا للحرب من فرنسا وانكلترا على الروسيا . ولم ترض حكومتا الدولتين التصريح به علنا لاشتغالهما بأمر اتمام التجهيزات الحربية

كل هذه الحوادث كان من شأنها ازدياد حيرة النمسا فعادت هذه الدولة مرة ثالثة الي مخابرة الدولة العلية وبقية الدول فى أمر منع الحرب فطلبت من الدولة ايضاح الشروط التى تطلبها لعقد الصلح فأجابتها الدولة بان شروطها أربع : أولا اعلان استقلال بلادها وأراضيها وضمانة دول

فرنسا وانكلترا والنمسا والبروسيا لهذا الاستقلال . ثانيا انجلاء العساكر الروسية من مقاطعتي الافلاق والبغدان . ثالثا تجديد الضمانات المقدمة من أوروبا للدولة في عام ١٨٤١ . رابعا احترام أوروبا كلها وفي مقدمتها الروسيا لاستقلال الحكومة العثمانية في كل أعمالها داخلية كانت أو خارجية

فلما عرضت هذه الشروط على سفراء البروسيا والنمسا وفرنسا وانكلترا بفيينا قبلوها وصدقوا عليها وكلفوا حكومة النمسا في ١٣ يناير سنة ١٨٥٤ بتبليغها للروسيا . وبقيت الدول منتظرة جواب الروسيا على انذار فرنسا وانكلترا أولا وعلى مذكرة الدول الاربع ثانيا الا أن القيصر (نيقولا الاول) كان لا يزال مؤملا مساعدة البروسيا والنمسا له فأرسل الي برلين البارون (دى بودبرج) والي فيينا الكونت (أورلوف) ليسألا الحكومتين البروسية والنمساوية ان تبقيا على الحيادة أثناء الحرب ويعدهما القيصر مقابل ذلك بدعوتهما بعد الاشتراك معه فى حل المسئلة الشرقية . فطلبت النمسا من الكونت (أورلوف) أن لا تعبر الجنود الروسية نهر الدانوب ووعدته بالبقاء على الحيادة اذا قبلت الروسيا هذا الشرط ولكن الروسيا وجدت قبول هذا الشرط يضر بها ضررا عظيما فى الحرب فرفضته وحملت بذلك النمسا على أن ترفض طلبها البقاء على الحيادة وأن تحفظ لنفسها حرية تامة في العمل

وقد رفضت البروسيا أيضا طلب الروسيا بالرغم عن قرابة القيصر (نيقولا الاول) لملكها وتحقق القيصر عندئذ انه لا نصير له بين دول

أوربا وانه سيحارب تركيا وحده . فرفض مذكرة الدول الاربع التى أرسلت اليه في ١٣ يناير سنة ١٨٥٤ وأجاب على كتاب ودى أرسله اليه (نابليون الثالث) امبراطور فرنسا نصحه فيه بقبول مطالب الدول بان شرف الروسيا يحتم عليها الحرب . وبقي بذلك على عناده الاول غير حاسب لنتائج الحرب حسابا

فلما علمت الحكومة الفرنساوية والحكومة الانكليزية بنوايا القيصر أرسلتا الي حكومته بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٨٥٤ انذارا هددتاها فيه بوجوب اخلاء مقاطعتى الافلاق والبغدان والا أعلنتا عليها الحرب واجتهدت فرنسا وانكلترا بعد ذلك فى ضم النمسا والبروسيا اليهما ضد الروسيا . غير ان ملك بروسيا رفض الاشتراك فى الحرب ضد الروسيا وأبلغ حكومات فرنسا وانكلترا والنمسا بانه مستعد للاتفاق معها على بعض قواعد سياسية تكون فيما بعد أساسا لتسوية الخلاف بين الروسيا وتركيا . فقبلت الدول الثلاث ذلك واجتمع مندوبو البروسيا والنمسا وانكلترا وفرنسا فى فيينا مرة رابعة وأمضوا على بروتوكول (مذكرة) ٩ ابريل سنة ١٨٥٤ المشتمل على القواعد الآتية : أولا استقلال الدولة العلية. ثانيا انجلاء العساكر الروسية من مقاطعتى الافلاق والبغدان . ثالثا استقلال الحكومة العثمانية فى أعمالها وترك الحرية التامة لها فى منح رعاياها المسيحيين الامتيازات اللازمة . رابعا الاتفاق على الضمانات اللازمة لتنظيم العلاقات السياسية للدولة العلية مما يضمن سلامة التوازن الاوربي

وعندماوصل انذار فرنساوانكلترا السابق الذكرالى القيصر (نيقولا الاول) رفضه رفضا باتا وقبل اعلان الحرب عليه من الدولتين . فعقدت فرنسا وانكلترا عندئذ في ١٢ مارس سنة ١٨٥٤ تحالفا مع الدولة العلية ضد الروسيا اشترط فيه بادي بدء ان فرنسا ترسل خمسين ألف جندى الي تركيا وان انكلترا ترسل خمسة وعشرين ألفا ولكن الحرب اقتضت ارسال جنود كثيرة حتي ان فرنسا وحدها فقدت في ساحة القتال فوق المايه ألف جندي واشترط فى هذا التحالف ان دولتى فرنسا وانكلترا تسحبان جنودهما فى مدة خمسة أسابيع بعد عقد الصلح مع الروسيا .واشترط كذلك ان دولتى فرنسا وانكلترا ترسلان أساطيلهما الى البحر الاسود. وبالفعل استولت فرنسا وانكلترا على البحر الاسود وأرسلتا جيوشهما الى الدانوب . ولقمع الثورة فى تساليا وابيرا أرسل جزء من هذه الجيوش الى هاتيك الجهات فقمعت الثورة في زمن يسير وعادت السكينة بعد الاضطرب

*
* *

وبعد ان اتفقت فرنسا مع انكلترا ضد الروسيا اجتهدت الحكومتان في استمالة النمسا اليهما لان قوة الجيش الروسى كانت على الدانوب وكان يسهل التغلب عليه وقهره اذا ساعدت النمسا دول تركيا وفرنسا وانكلترا غير ان النمسا كانت تأبى العمل ضد الروسيا قبل اتفاقها على ذلك مع البروسيا فخابرت هذه الدولة التى كان من صالحها خدمة الروسيا بدون أن يدرك ذلك أحد وطالت المخابرات بينهما وانتهت بعقد اتفاقية بين

النمسا والروسيا بتاريخ ٢٠ ابريل سنة ١٨٥٤ تضمنت ان النمسا ترسل لحكومة الروسيا انذارا بعدم تقدم جنودها وبانسحابها من مقاطعتي الافلاق والبغدان وان النمسا والبروسيا تعلنان الحرب على الروسيا اذا عبرت البلقان أو أعلنت استيلاءها على المقاطعين

وقد وجهت البروسيا عنايتها بعد عقد هذه الاتفاقية الي ابطال مفعولها مع بقائها وأخرت ارسال النمسا للانذار المتفق عليه مؤملة استيلاء الجيوش الروسية في هذه الاثناء على مدينة { سيليستريا } التي كانت محاصرة لها والتي لم تستطع الاستيلاء عليها . ولم ترسل النمسا انذارها للروسيا الا في ٣ يونيه عام ١٨٥٤

ولما لم يستطع (غورتشاكوف) الاستيلاء على (سيليستريا)دفع عنها الحصار وسحب جيوشه عائدا الى الوراء وعندئذ اتفقت النمسا مع الباب العالي بتاريخ ١٤ يونيو سنة ١٨٥٤ على احتلالها لمقاطعتي الافلاق والبغدان وصد هجمات الروسيا عنهما ومساعدة عساكر فرنسا وانكلترا في حركاتهما الحربية الا ان البروسيا كانت عاملة كما قدمنا على ممانعة النمسا في خطتها فأوعزت الى حكومات الاتحاد الجرماني باشتراط جملة شروط للتصديق على الاتفاقية التي عقدت بين البروسيا والنمسا في ٢٠ ابريل فعملت هذه الحكومات الصغيرة بايعاز البروسيا واشترطت عدة شروط منها اشتراكها في المخابرات التي ستجري بين الدول بشأن المسئلة الشرقية ومنها انه اذا كانت النمسا ستجبر الروسيا على اخلاء مقاطعتي الافلاق والبغدان يجب عليها كذلك ان توقف سير انكلترا وفرنسا وتجبرهما على الامضاء

على هدنة . فاضطرت النمسا لقبول هذه الشروط ورضيت فرنسا وانكلترا بناء على رجائها بأن لاتسير جيوشهما من جهة المقاطعتين . واتفقتا عندئذ على تجريدة (القرم) والهجوم على مدينة (سباستول)

وقد انقذت الروسيا من اخطار هائلة وخسائر جمة بتحول الجيوش الفرنساوية والانكليزية بعد التركية عن مقاطعتي الافلاق والبغدان اتباعاً لرجاء النمسا . والفضل في ذلك للبروسيا التي أوعزت لحكومات الاتحاد الجرماني باشتراط هذا الشرط على حكومة النمسا

فلما تحققت الروسيا من ميل البروسيا وحكومات الاتحاد الجرماني اليها أرسلت للنمسا بتاريخ ٢٩ يونيه عام ١٨٥٤ جوابها على انذارها مبينة انها لاتستطيع الرضا باخلاء المقاطعتين من جنودها الا اذا قدمت لها النمسا ضمانات كافية وأعلنت عدم اتحادها مع فرنسا وانكلترا وتعهدت بمنعهما من محاربة الروسيا فى الافلاق والبغدان . فرأت النمسا عندئذ ضرورة الاتفاق مع فرنسا وانكلترا على شروط جديدة لتسوية الخلاف بين الروسيا وتركيا تكون بمثابة انذار جديد للروسيا ، وجمعت بفيينا مندوبي فرنسا وانكلترا مع مندوبيها لوضع هاته الشروط . فلما وصل هذا الخبر الي ملك البروسيا أوعز الى امبراطور الروسيا باعلان اخلاء المقاطعتين من الجنود الروسية مؤملا بذلك تعطيل أعمال مندوبي الدول الثلاث بفيينا . ولكنهم لبثوا مجتمعين بضعة أيام قرروا فيها (يوم ٨ أغسطس عام ١٨٥٤) ان العلاقات السياسية بين تركيا والروسيا لاتعود لمجراها الأول : أولا اذا بقيت حماية الروسيا على مقاطعات الافلاق والبغدان

وصربيا واذا لم توضع الامتيازات التي منحها الباب العالى لهذه المقاطعات تحت ضمانة الدول كلها . ثانيا اذا بقيت الملاحة في الدانوب غير حرة . ثالثا اذا لم تغير الدول معاهدة ١٣ يوليو عام ١٨٤١. رابعا اذا استمرت الروسيا مدعية ان لها حق حماية المسيحيين كلهم أو بعضهم فى الدولة العلية واذا لم تضمن أوروبا كلها استقلال الدولة العلية وسلامتها

وقرر مندبو الدول بان لاتحيد دولهم بعد عن هذا القرار وان لا يعقد الصلح الا بقبوله

وقد أرادت النمسا ان تصدق البروسيا وحكومات الاتحاد الجرماني على هـذا القرار ولكنها لم تقبل منه الا الشرطين الاولين ورفضت الآخرين وأعلنت النمسا انها لاتحد معها الا اذا تعهدت بمنع الجيوش التركية والفرنساوية والانكليزية من الهجوم على المقاطعتين أو محاربة الروسيا من هذه الجهة. فحارت النمسا في أمرها لانه كان لا يمكنها قبول هذا الطلب بغير تكدير لاتفاقها مع حكومات تركيا وفرنسا وانكلترا

وفي هذه الاثناء انتصرت الجيوش التركية والفرنساوية والانكليزية على الجيوش الروسية انتصارات باهرة فقهرتها على شواطيء نهر (ألما) واستولت على مواقع مختلفة وفي ٢٥ اكتوبر عام ١٨٥٤ هزمت الجيوش المتحدة جيوش القيصر فى (بالاكلاوا) وفي ٥ نوفبر هزمتها فى (أنكرمان) . وكان حصار (سباستوبول) لايزال مستمرا

وقد رأت فرنسا وانكلترا ان النمسا تماطلهما كثيرا في أمر الاتفاق معهما اتفاقا نهائيا صريحا فافتكرتا فى طريقة تحملها على الاتفاق معهما

وهي دعوة حكومة (اليمونتي) الي الاشتراك معهما في الحرب ضد الروسيا . ويعلم كل مطلع على التاريخ أن النمسا كانت تبغض حكومة (اليمونتي) الايطالية أشد البغض لعملها على تحرير ايطاليا كلها من تحت نير النمسا . فلما علمت حكومة فينا بان (اليمونتي) على وشك الاتحاد مع فرنسا وانكلترا خافت من مساعدة هاتين الدولتين فيما بعد لهذه الحكومة الصغيرة وأبلغتهما انها مستعدة للاتفاق معهما وعقدت معهما بالفعل في ٢ ديسمبر عام ١٨٥٤ اتفاقا تضمن ان النمسا تتبع قرار ٨ أغسطس الذي أقرت عليه الدول الثلاث وانها لا تتخابر بمفردها مع الروسيا وانها تدافع عن مقاطعات الافلاق والبغدان وصربيا ضد كل اعتداء وان فرنسا وانكلترا تتعهدان للنمسا بمساعدتها ماديا اذا قامت الحرب بينها وبين الروسيا . وانه اذا لم يتم الصلح قبل أول يناير عام ١٨٥٥ بالشروط التي قررتها الدول الثلاث في ٨ أغسطس عام ١٨٥٤ اجتمع مندوبوها وتداولوا في الوسائل الفعالة التي توصلها الى مرامها

ويعلم القارىء مما سبق ان البروسيا كانت ميالة للروسيا وعاملة على انقاذها فلما علمت باتفاق النمسا مع فرنسا وانكلترا ضد الروسيا سعت في تأخير تنفيذ هذا الاتفاق لتكتسب الروسيا زمنا تستطيع فيه تحسين أحوال جيشها وتقويته وليسهل للبروسيا حل الاتفاق بين النمسا وفرنسا وانكلترا أو على الاقل اضعافه فأشارت على الحكومة الروسية أن تعلن النمسا بقبولها لقرار ٨ اغسطس عام ١٨٥٤ وتسألها عقد مؤتمر بفينا للمناقشة فيه . فسرت النمسا بذلك وحسبت الروسيا صادقة في بلاغها وطلبت من

فرنسا وانكلترا ارسال مندوبين من قبلهما لحضور المؤتمر . فرضيت الدولتان بذلك ولكنهما طلبتا من النمسا ارسال مذكرة مشتركة للبرنس (غورتشاكوف) الذي كان عين سفيرا للروسيا بفيينا توضح فيها الدول الثلاث معنى قرار ٨ أغسطس السالف الذكر . فلم تجد النمسا مناصا من القبول وحررت المذكرة وأرسلتها في ٢٨ دسمبر عام ١٨٥٤ مفسرة لمعني قرار ٨ أغسطس . وبعد عشرة أيام من تاريخ ارسالها أجاب البرنس (غورتشاكوف) بمذكرة فسر فيها قرار ٨ أغسطس تفسيرا يناقض تفسير الدول الثلاث أى تفسير الدول الواضعة للقرار واستمرت المناقشات طويلا قبل عقد المؤتمر نفسه

وقد أحس مندوبو فرنسا وانكلترا أن النمسا تخدع دولتيهما وتعمل على عدم الوفاء بتعهداتها . فأبلغوا حكومتيهم ذلك وأشاروا عليهما بعقد اتفاق بينهما وبين حكومة « اليمونتي » انتقاماً من النمسا . وقد كانت الامراض والحميات أضرت بالجيوش الفرنساوية والانكليزية ضررا بليغا وشدة البرد عطلت الاعمال الحربية . فاتفقت فرنسا وانكلترا مع « فيكتوررامانويل » ملك اليمونتي على مساعدة حكومته لهما ضد الروسيا وارسال ثمانية عشر ألف مقاتل . وأمضي (كافور) الشهير وزير اليمونتي على هذه الاتفاقية فى ٢٦ يناير سنة ١٨٥٥ . وقد سر (كافور) بها سرورا عظيما لعلمه بان اشتراك اليمونتي مع فرنسا وانكلترا فى الحرب ضد الروسيا يجعل لبلاده شأناً يسمح له بعرض المسئلة الايطالية على الدول وقت المناقشة فى شروط الصلح بعد اتمام الحرب . ولذلك يعتبر

المؤرخون اتفاقية ٢٦ يناير عام ١٨٥٥ مصدراً لتكوين الوحدة الايطالية وأصلالها . وما عقدت هـذه الاتفاقيـة حتى سافرت الي تركيا الجنود اليمونتية تحت قيادة الجنرال {لامارءورا}

وفى هذا الوقت نفسه تقدم القائد العثماني (عمر باشا) الى مـدينة (ايباتوريا) — التى هى أيضا ثغر من ثغور بحيث جزيرة القرم — وانتصر على الجيوش الروسية فيها نصرا مبينا فى ١٧ فبراير عام ١٨٥٥ وانضم بعد هذا النصر الي جيوش الدولة وجيوش فرنسا وانكلـترا المحاصرة لمـدينة (سباستوبول)

ولما رأت النمسا أن فرنسا وانكلـترا أساءتا الظن بها ورضيتا بمساعـدة اليمونتي اجتهـدت فى ارضائهما والاشـتراك معهما فى العمـل فعـرضت على البروسيا وحكومات الاتحاد الجرماني أمر استعدادها للحرب وعزمها على ارسال جنودها ضد الروسيا فرفضت طلبها بأشنع صـورة ووجهت اليها المـلام العنيف على اتباعها ارشادات فرنسا وانكلترا بدون مراعاة مصلحة البروسيا والحكومات الجرمانية . وكان الموغر للصدور وقتئذ ضد النمسا المسـيو « دي بسمارك » الطائر الصيت وكان عضوا بالمجلس المشـترك لحـكومات الاتحاد الجرمانى بفرانكفور ومسموع الكلمة عند حكومته « البروسيا » . وقد أظهر بمهارته السياسية الفائقة لحـكومة البروسـيا وحكومات الاتحاد الجرمانى ان خير وسـيلة لمساعدة الروسيا هي جمع العساكر البروسيانية والجرمانية على الحـدود امام الحدود الفرنساوية لتخشى فرنسا شأنها ويرجع « نابليون الثالث »

عما كان عزم عليه من ارسال جيش جرار الي النمسا مخترقا به البلاد الجرمانية لمحاربة الروسيا وجعلها بين نار جيوشه من جهة مقاطعتي الافلاق والبغدان وبين نار الجيوش المتحدة من جهة القرم . وقد أفلحت سياسة « بسمارك » وعدل (نابليون الثالث) عن مشروعه عند ماعلم بوقوف الجنود البروسيانية والجرمانية امام حدود فرنسا

وقد خطر على بال (نابليون الثالث) عندئذ أن يسافر بنفسه الى الشرق ويتولي القيادة العامة على جيوش تركيا وفرنسا وانكلترا ولكن انكلترا عارضته في رغبته كما عارضه الكثيرون من نصّاحه ووزرائه

وفى ٢ مارس من السنة نفسها (١٨٥٥) توفي القيصر { نيقولا الاول } وتولي بعده القيصر (اسكندر الثاني) فأعلن لاوروبا رغبته فى السلم وميله الى عقد الصلح مما اطمأنت له خواطر الكثيرين من رجال السياسة وحمل فرنسا على طلب عقد مؤتمر دولي جديد بفيينا حيث قبل طلبها وعقد المؤتمر فى ١٦ مارس

ولما عقد المؤتمر اتفق مندوبو النمسا وانكلترا وفرنسا وتركيا والروسيا على شرطي اعلان عدم حماية الروسيا لمقاطعتي الافلاق والبغدان وحرية الملاحة في نهر الدانوب . أما يختص بضمانة استقلال الدولة العلية وسلامتها فقد صرح مندوبو الروسيا بان دولتهم تحترم استقلال تركيا ولكنها لا تقبل الاشتراك مع الدول فى أمر ضمانته وقد رفضت الروسيا كذلك الشرط الرابع وهو المتعلق بتحديد عدد سفنها فى البحر الاسود . فأوقفت بسبب ذلك جلسات المؤتمر في ٢٧ مارس عام ١٨٥٥ . ولما أعيد عقد المؤتمر رفض

(غورتشاكوف) مرة جديدة تحديد عدد سفن الروسيا في البحر الاسود وضمانتها مع الدول لاستقلال الدولة العلية وعرض على دول أوروبا قفل بوغازى الاستانة والدردانيل كما تعهدت به الدول فى معاهدة عام ١٨٤١ واعطاء الباب العالى حق فتحهما عند الحاجة لسفن الدول المتحالفة معه . فلم يحصل بذلك الاتفاق بين مندوبى الدول وأوقفت جلسات المؤتمر للمرة الثانية فى ٢٧ ابريل عام ١٨٥٥ . وفي أوائل يونيه أعيد عقد المؤتمر للمرة الثالثة ولكن مندوبي الدول تضاربت آراؤهم كما حصل فى المرة الاولي والثانية ولم يجدوا سبيلا للاتفاق فأعلن قفل المؤتمر نهائيا بلا نتيجة تذكر

*
* *

وقد رأت فرنسا وانكلترا أنهما صارتا في أشد حاجة للاتفاق بعد خيبة المؤتمر الدولى فسافر الامبراطور (نابليون الثالث) الي لوندرة لزيارة الملكة { فيكتوريا } حيث قوبل فيها بغاية الاجلال والاكرام . وبعد زمن قليل من زيارته ردت له الملكة زيارته بباريس . وبعدئذ اتفقت الحكومتان الفرنساوية والانكليزية على اصدار أوامر جديدة لقواد جيوشهما ببلاد القرم أمرتاهم فيها بأن يحملوا الحملة الاخيرة على {سباستوبول} وعينت الحكومة الفرنساوية في القرم الجنرال { بيليسييه } بدل { كانروبر } على قيادة الجيش الفرنساوى وأمرته بالزحف على قلاع ومعاقل العدو فاستولى بجيوشه في ٧ يونيو عام ١٨٥٥ مع مساعدة جيوش الدولة العلية له على قلعة (مامولون فير) المعروفة بالقمة الخضراء . وهجم فى ١٨

يونيو على حصن (ملاكوف) فصدت الجيوش الروسية عنه جيش فرنسا . فاستاءت لذلك فرنساوانكلترا وتركيا وجمعت قواها واتفق قواد هذه الجيوش المجتمعة { عمر باشا } و { بليسيه } و { سمبسون } و (لامارمورا) على عمل مشترك الاستيلاء على [سباستو بول] . فهاجمت الجيوش المجتمعة فى ٨ سبتمبر عام ١٨٥٥ مدينة [سباستوبول] حيث احتل الجنرال الفرنساوى (ماك ماهون) قلعة { ملاكوف } بعد موت الكثيرين من جنود الدول المتحدة ومن جنود دولة الروسيا . وكان ذلك اليوم مشهودا ومن أكبر أيام الحروب وانتهى بسقوط { سباستوبول } فى أيدى الجيوش المتحدة .

وقد أحدث سقوط (سباستوبول) تأثيرا هائلا فى كل أوروبا وانتظر العالم كله ايقاف الحرب وعقد الصلح بين الروسيا ودول تركيا وفرنسا وانكلترا . ولكن الحرب بقيت مستمرة واحتلت الجيوش المتحدة جملة مواقع مهمة منها مدينة (قلبرون) ولولا اقبال الشتاء لاستمرت الحرب بلا انقطاع . وفى أثناء الحرب استولت الاساطيل الفرنساوية والانكليزية على ميناء { بترو باولوسك } واحتلت فى بحر البلطيق (بومارسند) وضربت { سفيابورج }

فلما رأت الروسيا أن لا استطاعة لها على استمرار الحرب بذلت جهدها في استمالة فرنسا لها وحل عقدة الاتفاق بين هذه الدولة وبين انكلترا وأرسلت الى باريس جملة من عمالها وصنائعها ليستميلوا اليها رجال السياسة الفرنساوية والقابضين على أزمة الرأى العام من الكتاب والخطباء فاظهر

الامبراطور (نابليون الثالث) استعداده لمساعدة الروسيا ولكنه وجدها ترفض مطالب الظافرين فاضطر الى الاستمرار على خطته الاولي نحوها ولما كان من صالح انكلترا ان تضعف نفوذ الروسيا في بحر البلطيق اتحدت هى وفرنسا اتحادا دفاعيا مع حكومة السويد التي كانت ألد عدوة للروسيا وقتئذ وكانت تطمح لاسترجاع (فنلندا)

وجرى في هذا الاثناء ان (فيكنورامانويل) ملك اليمونتى ذهب الي باريس برفقة وزيره الشهير { كافور } فانتهز الامبراطور (نابليون الثالث) هذه الفرضة للانتقام من النمسا التي خدعته وخدعت انكلترا فى حرب القرم فاستقبل ملك اليمونتى ووزيره أحسن استقبال ووعدهما بالمساعدة على تحرير ايطاليا وتكوين وحدتها فاضطربت الحكومة النمساوية وخافت شر العاقبة وأبلغت فى الحال حكومتي فرنسا وانكلترا أنها مستعدة لان ترسل معهما انذارا للروسيا تهددها فيه باعلان الحرب عليها اذا رفضت مطالب الدول الثلاث .وسألت الحكومة النمساوية فرنسا وانكلترا أن تمضيا معها على اتفاقية نضمن امام العالم استقلال الدولة العلية وسلامتها . فقبلت فرنسا وانكلترا طلب النمسا واتفقت الدول الثلاث على صورة الانذار وأرسلته بالفعل لقيصر الروسيا بتاريخ ١٦ دسمبر عام ١٨٥٥ وأعلنته بوجوب قبوله قبل تمام شهر أى قبل ١٧ يناير عام ١٨٥٦.

وهذا الانذار يشتمل على الشروط الآتية

أولا جعل المقاطعات الدانوبية تحت رعاية الدول العظمى وضمانتها ومنع الدولة العلية من ارسال جنودها اليها بدون تصريح الدول . وتعديل

الحدود من جهة البسارابيا

ثانيا تقرير حرية الملاحة في نهر الدانوب تحت ضمانة الدول

ثالثا جعل البحر الاسود حراً . ويعمل لذلك اتفاقية خصوصية بين الروسيا والباب العالي تضمنها الدول بعد. وقبول الدولة العلية فى المجتمع الاوروبي . وعرض كل خلاف يقع بينها وبين احدي الدول على بقية الدول وتقرير مبدا قفل بوغازي الاستانة والدردانيل

رابعاً تأكيد حقوق المسيحيين فى تركيا بدون الحاق ضرر باستقلال السلطان وسيادته العالية

خامسا جواز وضع شروط جديدة اذا اقتضت مصلحة أوروبا ذلك

فأجابت الروسيا على انذار دول فرنسا وانكلترا والنمسا فى ٥ يناير عام ١٨٥٦ بقبول الشروط الاربعة الاولى ورفض الشرط الخامس لابهامه ولكن البروسيا خافت اشتعال نيران حرب عمومية في كل أوروبا تقوم معها الثورات والاضطرابات فنصحت الروسيا بقبول المطالب الخمسة والخروج من هذه الازمة الخطرة عليها وعلى مصالحها. فاتبعت الروسيا نصيحة البروسيا وأبلغت الدول رسميا فى ١٦ يناير عام ١٨٥٦ قبولها لشروطها كلها

فاجتمع عندئذ المؤتمر الدولى بباريس فى ٢٥ فبراير عام ١٨٥٦ وعقدت جلساته تحت رئاسة الكونت (والوسكي) وزير خارجية فرنسا واشتركت الدولة العلية والروسيا فيه كما اشتركت حكومة البيمونتي التى أرسلت نائباً عنها الكونت (كافور) الشهير .وكان (عالى باشا) مندوبا عن الدولة العلية في هذا المؤتمر

وقد اتفق مندوبو الدول فى هذا المؤتمر بغير صعوبة على الشروط التى عرضتها من قبل فرنسا وانكلترا والنمسا والتى أتينا عليها ولم يختلفوا الا فى قبول طلب (نابليون الثالث) بشأن ضم الافلاق والبغدان الي امارة واحدة فقرروا النظر في هذا الامر بعد انتهاء المؤتمر

ولم يمض علي مؤتمر باريس عامان حتى قررت الدول فى باريس نفسها بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٨٥٨ جعل هاتين المقاطعتين إمارة واحدة تحت ضمانة الدول

وقد أمضت الدول الاوروبية على عهدة باريس فى ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ وأعلن قفل المؤتمر في ١٦ ابريل من السنة نفسها بعد ان تناقش اعضاؤه في جملة مسائل أهمها المسئلة الايطالية التى عرضها على المؤتمر الكونت (كافور) ووجه انظار الدول اليها ولكن المؤتمر لم يقرر شيئاً في هذه المسائل واكتفى بالاتفاق علي بعض شروط خارجية عن عهدة باريس مختصة بالملاحة والتجارة

*
* *

انتهت هذه الحرب بنتائج مختلفة نأتي عليها واحدة بعد أخرى

تبين للقارىء ان هذه الحرب أصلها مسئلة الاماكن المقدسة والخلاف بين الكاثوليكيين والارثوذكس . وطالما كانت تؤمل كل دولة من الدول الاستيلاء علي الشام والقبض على زمام الكنائس ببيت المقدس فجاء الخلاف بين فرنسا والروسيا بشأنها دليلا على أن هذه الاماكن المقدسة يجب أن تبقي الي الابد في أيدى

الدولة الاسلامية العظمى لأنها الدولة الوحيدة التى تقدر ان تحفظ الموازنة بين كل الديانات في بيت المقدس وتعطي كل ذي حق حقه . وانه لو تركت الاماكن المقدسة لدول اوروبا لوقع بينها وبين بعضها شقاق عظيم وقامت حرب دموية لنزوع كل واحدة منها الي امتلاكها ورغبة كل دولة فى سبق غيرها الى الاستيلاء عليها .

فدفعا لهذا الخطر الجسيم يجب أن تبقى هذه الاماكن فى أيدى الدولة العلية العادلة الامينة . وقد أدرك ساسة أوروبا ذلك وعلموا ان مسئلة الاماكن المقدسة هى من أهم الاسباب التى تحتم ضرورة بقاء الدولة العلية

واذا كانت الدولة العلية قد اكتسبت من حرب القرم هذه النتيجة المهمة فانها لم تكسب غيرها شيأ ما فقد فقدت المال والرجال وأضاعت نفيس وقتها ولم تأخذ من بلاد الروسيا بلدا واحدة بل انسلخت عنها فى الحقيقة (الافلاق والبغدان) . وقد خدعتها الدول بمنحها امتيازين أثبتت الحوادث بعد أنهما لا يفيدانها شيأ مذكورا . فقد تعهدت الدول كلها بضمانة استقلال الدولة العلية وسلامتها وأرتنا الحوادث أن دول أوروبا نفسها سلخت من الدولة العلية جملة بلاد باسم هذا المبدأ نفسه مبدأ ضمانة استقلال الدولة العلية وسلامتها . واتفقت الدول كذلك على اعتبار الدولة العلية دولة أوروبية وقبولها فى المجتمع الاوروبى. ولم تر الدولة لهذا الامتياز فائدة ما بل كانت نتيجته جر البلايا عليها بازدياد تداخل أوروبا فى شؤنها الداخلية

وقد خرجت الروسيا من هذه الحرب سليمة لم تخسر فيها غير المال والرجال شيأ . ومعاكسة الدول لها فى البحر الاسود لم تكن الا معاكسة

وقتية كما أظهرته جلياً الحوادث بعدمؤتمر باريس

أما الدولة التي استفادت كثيرا من هذه الحرب فهي دولة البروسيا فانها استمالت اليها الروسيا بخطتها نحوها وأوجدت عندها كراهةشديدة للنمسا التي لم تساعدها ضد تركيا كما ساعدتها هي في قمع الثورة المجرية عام ١٨٤٩ وأحدثت البروسيا بين النمسا وبين حكومات الاتحادالجرماني شقاقا كبيرا . فحمل البروسيا كل ذلك على محاربة النمسا عام ١٨٦٦ هذه الحرب التي ساعدت الروسيافيها البروسيا مساعدة معنوية وانتهت باستيلاء البروسيا على مقاطعتين من أملاك النمسا وقد تمت نتائج هذه الحرب بهزيمة فرنسا أمام البروسيا عام ١٨٧٠ وتكوين الوحدة الالمانية

ومن أهم نتائج حرب عام ١٨٦٦ على النمسا غير فقدها مقاطعتين مهمتين استقلال المجر منها استقلالا اداريا . وهي أيضا نتيجة من نتائج حرب القرم

وقد استفادت كذلك من حرب القرم حكومة البيمونتي فانهاأرسلت الي مؤتمر باريس كما قدمنا الكونت «كافور» الشهير الذي استلفت أنظار مندوبي الدول الي حالة ايطاليا ومظالم النمسا وحمل على الحكومةالنمساوية حملة شديدة كان لها رنة ودوى في كل أصقاع العالم . ومن حسن حظ البيمونتي ان (نابليون الثالث) كان مغرما بتحرير البلاد النازعة للاستقلال وكان ميله لايطاليا أشد من ميله لسواها خصوصاً وان بغضه للنمسا كان عظيما بعد حرب القرم لتلاعب هذه الدولة في سياستها وعدم وفائها في وعودها مع فرنسا وانكلترا . ولم تمض الاسنون قلائل بعد حرب القرم حتى نالت ايطاليا

استقلالها وتكونت وحدتها . فكانت بذلك حرب القرم سبباً لسقوط مقاطعتين مهمتين من أملاك النمسا في قبضة البروسيا وسببا لاستقلال المجر استقلالاً ادارياً وسببا لخروج ايطاليامن تحت نير النمساواستقلالها وتكوين وحدتها . وبالجملة كانت حرب القرم سبباً لضعف النمسا وتقويض أركان مملكتها

وقد اكتسبت انكلترا وفرنسا من هذه الحرب ازدياد نفوذهما فى الاستانة فاستعملتاه فى سبيل مصالحهما . فان الهنود كادوا يطردون الانكليز من بلادهم فى ثورة سيباى الشهيرة عام ١٨٥٦ لولا تداخل المرحوم السلطان (عبد المجيد خان) فانه أصدر منشورا — بناءعلى رجاء انكلترا — لمسلمي الهند أمرهم فيه بالركون الى السكينة والطاعة لحكومة جلالة الملكة (فيكتوريا) . ومعلوم أن المسلمين فى الهند أقوياء ولهم شأن عظيم وكلمة نافذةوكلهم يحترمون خليفة الاسلام ويجلونه أعظم اجلال . فلما وصل اليهم منشور جلالتهوضعوه على رؤوسهم وعملوا بما أمرهم به .فألقوا أسلحتهم وانتهت بذلك الثورةوتوطدت سلطة الانكليز فى الهند بعد اضمحلالها

وانه ليتبادر للذهن ان انكلترا شكرت الدولة العلية على عمل سلطانها الاعظم أو اعترفت لها بالجميل . نعم انها اعترفت لها بالجميل ولكن بمعاداتها والاعتداء على بلادها ! فانها سلطت فى عام ١٨٥٨ — أي بعد عامين من ثورة سيباى — احدى سفنها الحربية الضخمة على ثغر (جدة) فاستمرت تدمر فيه نحو عشرين ساعة أسيلت فيها دماء كثيرة وخربت

منازل وبيوت عامرة . وكان ذلك عقب فتنة صغيرة قام فيها بعض المسلمين على بعض المسيحيين وأصيب فيها قنصل فرنسا وقتلت زوجته . ولم يكن لعمل انكلترا معني ولا ضرورة لان الدولة العليـة كانت قـد أرسلت مندوبا عاليا من لدنها لتحقيق الامر ومعاقبة المعتدين

أما فرنسا فقد استعملت نفوذها فى تركيا الذى ازداد بعـد حرب القرم كما قدمنا لاعلاء كلمتها فى الشرق فأرسلت جيشاً فرنساويا الي الشام عام ١٨٦٠ بحجة مساعدة الدولة العلية على قمع الفتنة التى أحدثها الخلاف والشحناء بين المارونية والدروز مـع أن جيش الدولة كان كافيا لاعادة الامن والسكينة في هذه الديار . ولم تخرج العساكر الفرنساوية من الشام الا فى ٥ يونيو عام ١٨٦١

هذه هي النتائج الخطيرة التى أنتجتها حرب القرم ومنها يعـلم القارىء حظ كل دولة في هذه الحرب وخطة الدول نحو الدولة العلية وكنه مقاصد كل واحدة منها وحقيقة أغراضها

الازمة الرابعة

(الحرب بين تركيا والروسيا وما قبلها وما بعدها)

« من عام ١٨٧٥ الى عام ١٨٧٨ »

أبنا فى ختام الفصل السابق أن نتيجة حرب القرم على النمسا كانت وخيمة حيث فقدت هذه الدولة بعدها مقاطعاتها الايطالية وأخذت البروسيا منها فى حرب عام ١٨٦٦ مقاطعتين مهمتين ونالت المجر استقلالها النوعى أى ارتفعت سلطة النمسا عنها . فطمعت هذه الدولة فى أخذ شيء من أملاك الدولة العلية يعوض عليها بعض خسائرها فتقربت من المانيا عدوتها اللدودة التى قهرتها وكونت وحدتها بانتصارها عليها وعلى فرنسا عوضا عن أن تستعد للاخذ بالثار منها واسترجاع المقاطعتين اللتين أخذتهما منها .وصارت كذلك النمسا تستميل الروسيا اليها وتوعز لها بمحاربة تركيا

وأوضحنا كذلك أن العلائق بين الروسيا والبروسيا صارت جيدة متينة وان مساعدة البروسيا للروسيا فى حرب القرم حملت الروسيا على ترك البروسيا تحارب النمسا وتقهرها وتحارب فرنسا وتقهرها وتأخذ من كل دولة من الدولتين مقاطعتين عظيمتين وتكون بذلك وحدتها ويصير ملكها امبراطوراً لالمانيا بدون أن تعارضها فى أعمالها بل بقيت على الحيادة مظهرة ارتياحها لنجاح البروسيا ضد النمسا وفرنسا اللتين عاكستاها (أي الروسيا) فى حرب القرم

ومن ذلك يري القارىء ان الروسيا والنمسا والمانيا اتفقت بعد حرب عام ١٨٧٠ التي قامت بين فرنسا والبروسيا . واتفق امبراطرتها على العمل

بالاتحاد فاهتمت الروسيا لتغيير الشرط المتعلق بحريتها فى البحر الاسود الذي اتفقت عليه الدول في مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ ودعت الدول لعقد مؤتمر للنظر فيه. فأجابت الدول دعوتها واجتمع مندوبوها فى عاصمة بلاد الانكليز فى ١٣ مارس سنة ١٨٧١ واتفقوا (ولم تشترك فرنسا مع الدول لاشتغالها بعقد الصلح مع البروسيا) على تغيير هذا الشرط واعطاء الروسيا الحرية التامة في الملاحة بالبحر الاسود وتسيير سفنها فيه

ولما تحققت الروسيا من أن المانيا والنمسا مستعدتان لمساعدتها وان ايطاليا دولة ناشئة لايخشى منها وأن فرنسا ضعيفة بعد الهزيمة خافت صوتها وان ليس لها في دول أوروبا من يستطيع معارضتها غير انكلترا وانها وحدها لاتستطيع ان تضرها بشيء -- فضلا عن ان الروسيا كانت تعلم ان انكلترا لاتفيد تركيا شيئاً لأن مبدأها في كل أطوار سياستها ان تنتفع من غيرها وان لاتنفع غيرها — اجتهدت (أي الروسيا) فى تهييج أمم البلقان وأرسلت في كل انحاء بلاد البلقان زعماء ينادون بالثورة ضد الدولة العلية وينشرون مبدأ اتحاد السلافيين تحت راية القيصر ويدعون اقوام البلقان كافة للعصيان باسم الدين الارثوذكسي ضد الحكومة العثمانية الاسلامية. وكان من مصلحة النمسا أن تهيج بلاد البوسنة والهرسك ضد الدولة العلية لما كان عندها من الامل فى الاستيلاء عليها فساعدت مهيجي الروسيا وأخذت تهيج كذلك أهالي هذه البلاد حتي هاج المسيحيون كافة فى بلاد البوسنة والهرسك وصارت المساعدات تأتيهم جهارا من بلاد الصرب والجبل

الاسود وأرسلت لهم من النمسا الاسلحة والذخائر سراً .فلما علمت الدولة العلية بذلك أرسلت الي البوسنه والهرسك جيشاً قويا بقيادة القائد الشهير والبطل العظيم الغازي (مختار باشا) فقمع الثورة ورد كيد الثائرين ولكن دول الروسيا والنمسا وألمانيا التي كانت تريد كما قدمنا استمرار الثورات والاضطرابات في الدولة توسطت بين الثائرين وبين الباب العالي وطلبت من الدولة أن تقبل مطالب الثوار بتخفيف الضرائب عنهم وبتركهم يعينون الشرطة (البوليس) من نفس ابناء البوسنه والهرسك. فوعد المرحوم السلطان (عبدالعزيز خان) بالنظر في هذه المطالب وبمنح رعاياه على اختلاف دياناتهم مايطلبونه من الامتيازات ومايراه موافقا لهم وللدولة . وفي ١٢ ديسمبر عام ١٨٧٥ أصدر السلطان ارادة عالية بقبول مطالب أهالي البوسنه والهرسك وبرهن بذلك على عدم تعصب الدولة ضد رعاياها المسلمين .ولو كانت الدول راغبة حقيقة في خير المسيحيين وغير قاصدة ضرر الدولة واضعافها لكانت اكتفت بهذه الارادة السلطانية وساعدت الدولة على تنفيذها وأمرت الثوار الذين أهاجتهم ضد الدولة بالركون الى السكينة وبالامتثال لاوامر الحكومة العثمانية . ولكنها كانت تعمل لبث الفتن والثورات فأوعزت الي الثوار بعدم نزع السلاح وبالاستعداد للكفاح

وفي ٣٠ يناير عام ١٨٧٦ قدمت الدول جميعها بما فيها فرنسا وايطاليا مذكرة للباب العالي طلبت منه فيها منح أهالي البوسنه والهرسك تمام الحرية الدينية وتقرير مساواة الاديان وتخفيف الضرائب وجعل الشرطة أهلية وتشكيل لجنة من أهالي البوسنه والهرسك مكوّن نصفها من

مسيحيين والنصف الآخر من مسلمين لمراقبة تنفيذ ماجاء في الارادة العلية التى أصدرها السلطان فى ١٢ ديسمبر عام ١٨٧٥

وأول من وضع هذه المذكرة هو الكونت « اندارشي » . وقد سميت باسمه. وهو مجرى أغضبت خطته نحو الدولة العلية في هذه الحوادث الامة المجرية لشدة تعلقها بالدولة العلية واعترافها بالجميل للعثمانيين

ولم تتأخر الدولة العلية عن قبول مطالب الدول المذكورة فى مذكرتها واجابتها عليها فى ١١ فبراير من السنة نفسها

فلما رأت الروسيا ان الدولة العلية قمعت الثورة أولا ولم ترفض مطالب الثوار ثانيا ولم ترفض مطالب الدول ثالثا وتحققت من انه يستحيل عليها خلق سبب سياسى من المخابرات يقيم فى وجه تركيا أوروبا والرأي العام الاوروبى بذلت جهدها ووجهت كل عنايتها لجعل الثورة عامة فى بلاد البلقان حتي تضعف الدولة وترتبك أحوالها من جهة وحتى يسهل عليها ان تشيع في أوروبا الاشاعات الكاذبة عن معاملة الاتراك للمسيحيين وتهيج بذلك الرأي العام الاوروبى ضد الدولة العلية وضد المسلمين .

فاجتمع ثوار البوسنه والهرسك فى (كوسيروفو) فى ٢٨ فبراير أي بعد قبول الدولة لمطالب الدول وقرروا بايعاز الروسيا الاستمرار على الثورة والعصيان وعدم الخضوع للدولة

وقد توصلت الروسيا الي تهييج بلاد الصرب ضد الدولة العلية فهاج أهلها وجاهروا بمعاداة الدولة وطلبوا من حكومتهم محاربتها . فخابرت حكومتها حكومة الجبل الاسود واتفقت معها ضد الدولة فصارت بذلك

بلاد البلقان كلها قائمة على قدم وساق ضد الدولة . وبلغت الفوضي حدها في هذه البلاد فاعتدى المجرمون على الابرياء وصار كل واحد من الثوار يفاخر الآخرين بما نهب وسلب من المسلمين . وصار الذين لا سلاح بايديهم من المسلمين يدافعون به عن أنفسهم فريسة للمجرمين السافكين للدماء من ثوار المسيحيين

رأى المسلمون فى بلاد البلقان مارأوا من الاهانة والسلب والنهب وأسيلت دماء الابرياء من الكثيرين منهم وأنصار الباطل والضلال في أوروبا يشيعون فى كل مكان أن الدولة العلية دولة بربرية تسفك دماء المسيحيين وتهتك أعراض نسائهم وتخرب بيوتهم وكنائسهم وغيرذلك مما يكرره أعداء الدولة وأعداء الحقيقة في كل خلاف يقع بين المسيحيين والمسلمين فى بلاد الدولة

وقد عمل اعداء الدولة على تهييج الرأى العام الاوروبى ضدها بكل الوسائل وحصل ان فتاة مسيحية اعتنقت الدين الاسلامى فى ضواحى سالونيك وذهبت لهذه المدينة لاثبات اسلامها بصفة شرعية فعلم المسيحيون بالأمر وتجمعوا فى طريق الفتاة حتى اختطفوها عند مرورها وأخفوها في بيت أحد المسيحيين فهاج المسلمون لذلك وذهبوا الى الحاكم طالبين تخليص الفتاة ثم اجتمعوا فى مسجد للمداولة فى الأمر وبيناهم مجتمعون اذ دخل عليهم قنصلا ألمانيا وفرنسا فاعتدى عليهما بعض الحاضرين لاعتبارهم دخول القنصلين فى المسجد اهانة لهم وضربوهما ضربا قضي عليهما فى الحال . فانتشر خبر الحادثة في أوروبا وما انتشر

حتى نادى اعداء الدولةبالويل والثبور وحملوا على الاسلام ودولته العزيزة حملات شديدة وأهاجوا الرأى العام ضد الحكومة العثمانية حتى اضطرت الدول كلها لارسال سفن حربية الي ميناء سالونيك ولم يستطع الباب العالى ان يفهم أوروبا ان القنصلين اخطآ فى الذهاب الي المسجد بل طلبت منه الدول معاقبة المعتدين ولما لم يجد سبيلا لرفض طلب الدول عاقب من ثبت عليهم الاعتداء على القنصلين بالاعدام وانتهت بذلك هذه الحادثة وهى حادثة من حوادث عديدة خلقتها يد الدسائس والاغراض للايقاع بالدولة والاضرار بها . وانى است ممن يستبعدون ان اسلام هذه الفتاة المسيحية كان مصطنعا وان الحادثة مدبرة من أولها لآخرها . فكل من طالع شيئا من أعمال أرباب الدسائس فى الدولة يعلم انهم قادرون على ايجاد حادثة كهذه وأكبر منها

وقد عرض في هذه الاثناء ثوار البوسنه والهرسك على دول أوروبا انهم ينكفون عن الثورة ويعيدون السكينة الي بلادهم اذا أنفذت الشروط الآتية :

أولا أن تعطى الدولة العلية للمسيحيين ثلث الاراضي التى بيد المسلمين

ثانيا أن تصلح لهم المنازل التي هدمت بسبب الثورة وان تساعدهم بالمال وان تقدم لهم الثيران اللازمة لحرث الأرض

ثالثا أن تعفيهم من الضرائب مدة ثلاث سنين

رابعا ان تجلى العساكر التركية النظامية من بلاد البوسنه والهرسك وان تبقى فقط في (نيكشيش) و (ستولاز) و (فوكا) و (تريبين)

و (بيوجلى) و (مستار) وان ترسل النمسا والروسيا مندوبين من قبلهما في هذه البلاد لمراقبة تنفيذ هذه الشروط

خامسا نزع السلاح من المسلمين

سادسا ضمانة الدول الأوروبية لتنفيذ هذه الشروط

ولما رأت صربيا وبلغاريا والجبل الاسود ان الروسيا والنمسا والمانيا تشجع ثوار البوسنه والهرسك أصغت لارشادات المهيجين وقامت مستعدة لمحاربة تركيا والانتقام من الاسلام باسم الصليب. ولما أرادت الروسيا أن تعجل بالحرب وباسقاط المصائب على تركيا دعت النمسا والمانيا للاشتراك معها في تقديم انذار جديد للباب العالي فاجابت النمسا والمانيا طلبها واجتمع البرنس (غورتشاكوف) عن الروسيا والكونت (اندراشي) عن النمسا مع البرنس (بسمارك) في برلين وتم اتفاقهم في ١١ مايو سنة ١٨٧٦ على انذار ترسله دولهم الى الباب العالى

ولم تطلب الدول الثلاث من الباب العالى ماطلبته في مذكرة (اندراشى) التي أرسلت في ٣٠ يناير عام ١٨٧٦ بل طلبت جل ماأراد ثوار البوسنه والهرسك فاشتملت مذكرتها على الطلبات الآتية:

أولا ان يصلح الباب العالى المنازل التى دمرت بسبب الثورة وان يقدم كل مايلزم للفلاحين من الثيران والآلات وان يعفى أهالى البوسنه والهرسك من الضرائب مدة ثلاث سنوات

ثانيا ان يعين الباب العالى لجنة من أعيان أهالى البوسنه والهرسك المسيحيين لتوزيع المساعدات المادية التي يقدمها

ثالثا ان يسحب العساكر التركية من بلاد البوسنه والهرسك وان لا يتركها تحتل غير عشرة قلاع معينة

رابعا ان يترك المسيحيين مسلحين لغاية اتمام الاصلاحات واعادة الامن والسكينة الى بلاد البوسنه والهرسك

خامسا ان يكون لقناصل الدول أو لمندوبيها الحق فى مراقبة تنفيذ هذه الطلبات . وطلبت الدول الثلاث غير هذه الطلبات ان تمنح تركيا للثوار هدنة شهرين وهددتها بانها ان لم تنفذ هذه الطلبات مدة الشهرين اتخذت معها طرق القوة والقهر

ـــ وقد قبلت فرنسا وايطاليا التوقيع على هذه المذكرة أما انكلترا فرفضت التوقيع عليها بالمرة

ولا شك ان المطالع لهذه الشروط يقف مندهشا مستغربا من معاملة دول أوروبا للدولة العلية واعتدائها عليها بأشنع الصور وأقبحها ويدرك من نفسه ان هذه الشروط لوكان يطلب تنفيذها من أحقر دول الارض لكانت رفضت قبولها ولو أدى رفضها الى دمارها وخرابها . فموت فيه شرف خير من حياة تلطخ بالعار . ولذلك كان يستحيل على الدولة العلية ان تقبل هذه الشروط ولو لحظة واحدة . فان طلب الدول بقاء الجنود العثمانية في جهات مخصوصة وقلاع معينة مع بقاء المسيحيين متسلحين هو تشجيع للثوار عظيم وطلب الدول اعطاء الحكومة العثمانية للمسيحيين كل ما يحتاجون اليه من المساعدات المادية واصلاح المنازل التي دمرت بسبب الثورة هو طلب لا تستطيع ميزانية تركيا ان تقوم به وتهديد

الدول للدولة باتخاذ طرق القوة والقهر معها ان لم تنفذ طلباتها هو تشجيع لكل أمم البلقان على الثورة ضد الدولة العلية

ومن سوء حظ الدولة ان أسقط عن عرش السلطة العثمانية فى هذا الوقت الممتلأ بالاضطرابات والاخطار المرحوم السلطان { عبد العزيز خان } وأجلس مكانه السلطان { مراد الخامس } الذى لم يحكم الا خمسة أشهر

*
* *

وبديهي ان الروسيا كانت ترمى الى أضعاف تركيا بالثورات والاضطرابات والحرب مع أمم البلقان حتى اذا ثبطت عزيمتها وقلت همتها تحولت ضدها برجالها وقوتها . وهى سياسة لا يمكن لمؤرخ عادل ان يقول انها سياسة شريفة لأن الروسيا كان يجب عليها ان تحارب تركيا من بادىء الأمر لا أن تهيج ضدها البوسنه والهرسك وصربيا والجبل الأسود وبلغاريا

فقد قام البلغاريون فى وجه الدولة وجعلوا غايتهم قتل المسلمين فأتوا من الفظائع والجرائم مالا يستطيع وصفه قلم وصار أنصار الضلال في أوروبا يكذبون على العالم كله ويدعون ان الدولة تذبحهم هم ونساؤهم وأطفالهم مع انهم كانوا المعتدين على الابرياء من المسلمين

وقد استعدت كذلك صربيا والجبل الاسود لمحاربة الدولة فاتحد أميرا هاتين الامارتين ضد الدولة وحشدا الجنود بكثرة وأرسلت الروسيا ضابطاً من أمهر ضباطها (تشرنايف) لقيادة الجيش الصربى . فلما علمت الدولة العلية باستعدادات صربيا والجبل الاسود الحربيـة أرسلت الي

آميريهما في ٩ يونيـو عام ١٨٧٦ تسألهما عن سبب هذه الاستعدادات فأجابت الصرب بأنها تطلب من الباب العالي ان تجلى العساكر العثمانية من مقاطعتى البوسنه والهرسك وان تحتل العساكر الصربيـة مقاطعة البوسنه وان تحتل عساكر الجبل الاسود مقاطعةالهرسك . فرفض الباب العالى هذا الطلب الغريب بغاية الشدة والشهامة وأرسل بجيشهالى حدود الصرب والجبل الاسود . وفى ٣٠ يونيو أعلنت الصرب الحرب على تركيا وفى ٢ يوليو أعلنها الجبل الاسود

ولما كانت الروسيا تعلم ان تظاهر صربيا والجبل الاسـود برغبة احتلال البوسنه والهرسك من شأنه أن يكدر النمسا التى تريد تقـوية نفوذها في البلقان وتطمح الي الاستيلاء علىهاتين المقاطعتين سافرالقيصر { اسكندر الثانى } بنفسه الي (ريشتاد) فى بوهيميا وتقابل مع { فرنسوا جوزيف } امبراطور النمسا وتحادث معهطويلا فىأمور الشرق . ويحقق كثيرون من المؤرخين بأن القيصر وعد امبراطور النمسا باعطائه البوسنه والهرسك بعد انتهاء أزمة المسئلة الشرقية فبقيت النمسا بذلك على الحيادة وقت الحرب بين الدولة العلية وبين صربيا والجبل الاسود

وقد كان يظن سواس أوروبا وكتابها ورجال الحرب فيها ان الدولة العلية ستقهر فى هذه الحرب امام صربيا والجبل الاسود ولكنهم علموا بعدئذ ان جنود تركيا لا يزالون ليوثا فى الحرب وآسادا فى معامع القتال فقدانتصروا على عساكر الجبل الاسودوجنود صربيا نصرا مبينا بقيادة الغازى عثمان باشا والمرحوم عبد الكريم باشا وهزموهم فى { زيتشار }

هزيمة اهتزت لها أوروبا ومادت لها محافلها ونواديها . ولما شعرت صربيا بان بلغراد عاصمة بلادها صارت نفسها في خطر طلبت من الدول بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٦ ان تتوسط بينها وبين الدولة العلية فسألت الدول الاوروبية الدولة العلية ان تعرض عليها الشروط التى تقبل معها عقد الصلح فاجابتها بهذه الشروط :

أولا ان تعود الاحوال فى صربيا الى ما كانت عليه قبل عام ١٨٦٧

ثانيا ان تهدم القلاع التى بنتها صربيا بعد عام ١٨٦٧

ثالثا ان ترد القلاع التى كانت محتلة لها تركيا من قبل اليها

رابعا ان تدفع صربيا غرامة حربية أوأن تقبل ازديادالخراج السنوى الذى تدفعه لتركيا

خامسا ان لا يزيد عدد الجيش الصربي عن عشرة ألف مقاتل

سادسا ان يسافر أمير الصرب الي الاستانة ليقدم واجبات الخضوع والتابعية للحضرة السلطانية وليستلم فرمان تعيينه أميرا على الصرب

فرأت الدول ان هذه الشروط قاسية جدا وان قبولها يضر بالصرب ضرارا بليغا على ان القاريء اذا تذكر الطلبات التى اتفقت عليها الروسيا والنمسا والمانيا فى برلين بشأن البوسنه والهرسك وطلبتها من الباب العالى لوجد شروط الدولة العلية مع الصرب أخف كثيرا من طلبات الدول مع ان الدولة غلبت الصرب وانتصرت عليها انتصارا باهرا . فطلبت الدول من انكلترا التى كانت تدعى مساعدة تركيا — وما كانت تعمل فى الحقيقة الا على تشجيع رجال تركيا في معارضتهم ضد الدول مع علمها باتفاق

الدول كلها ضد تركيا — ان تعرض على الباب العالى شروطا أخرى

وفي هـذا الاثناء جلس جلالة مولانا السـلطان الاعظم والخليفة الاكبر الغازى ﴿ عبد الحميد خان ﴾ على أريكة المملكة العثمانية حيث المصاعب تحيط بها من كل جانب وأعداؤها يدسون لهـا الدسائس فى كافة انحائها والدول كلها متحدة ضدها فبذل أقصي جهده فى تنظيم الامور واصلاح الاحوال ودفع المصائب والاخطار

وقد عرض الكونت (دى بيكونسفيلد) الوزير الاول لانكلـترا على الدولة العلية عقد هدنة لمدة ستة أسابيع للمخابرة فيها فى شروط الصلح وبقاء الحالة على ماهي عليه فى صربيا ومنح البوسنه والهرسك استقلالا اداريا فرفضت الدولة هذه الطلبات خصوصا وان القيصر أوعز الي صربيا باستئناف الحرب مرة ثانية فجمعت جنودها وجندت من لم يجند منهم . وفي ١ اكتوبر سـنة ١٨٧٦ أرسل القيصر الى (فرنسواجوزيف) امبراطور النمسا كتابا سريا سأله فيه اتحاد النمسا مع الروسيا لاحتلال بلاد البلقان كلها فرفض امـبراطور النمسا طلب القيصر خوفا من نتائج عمـل خطير كهذا

وفى ٥ أكتوبر طلبت انكلترا من الدولة العلية عقـد هدنة لمدة ستة أسابيع وفتح مذاكرة بين الدول وقت الهدنة بشأن عقد الصلح فأجابت الدولة العلية بأن الهدنة يجب أن تكون لمدة سـتة أشهر حتى تسـتطيع جنودها أن تستريح من أنصاب الحرب وبأن يمنع وصول الاسلحة والذخائر لثوار البوسنه والهرسك ولصربيا والجبل الاسود وقت الهدنة . فلم تقبل

الدول طلب الدولة العلية العادل وأرسلت الروسيافى ١٥ اكتوبر الجنرال (إغناتييف) للاستانة حاملا انذارا للباب العالي يتضمن هذه الشروط : أولا عقد هدنة لمدة ستة أسابيع بلاشرط : ثانيا منح البوسنه والهرسك وبلغاريا استقلالا اداريا : ثالثا ضمانة الدول الاوروبية لحقوق هذه المقاطعات

وما وصل (اغناتييف) الي الاستانة حتى وصلته أخبار انهزام الجيش الصربي امام الجيش العثمانى الظافر .فقد انتصرت الجنود العثمانية انتصارا عظيما فى (دليجراد) و « الكسيناتس » وباتوا على مقربة من « بلغراد » عاصمة الصرب التي صار أمر سقوطها في أيدى العثمانيين محققاً . فقدم فى الحال (اغناتييف) انذاره للباب العالى وقبلت الدولة العلية عقد الهدنة فى ٢ نوفمبر عام ١٨٧٦

ولما رأت انكلترا ان الروسيا تهدد الدولة العلية على لسان الجنرال (اغناتييف) أرادت أن تظهر لتركيا مودتها لها لتنتفع من هذه المودة عند الحاجة كما سيري القارىء فأمرت أسطولها بالسفر الى مياه الشرق والوقوف فى (بزيكا) أى في مدخل الدردانيل . وعندئذ اتفقت الدول على عقد مذاكرة بينها وبين بعضها فى الاستانة

*
* *

وقد اجتمع مندوبو الدول بالاستانة في أوائل دسمبر عام ١٨٧٦ وقرروا عدم اشتراك تركيا فى مداولاتهم ومناقشاتهم بل ارسال قرارهم النهائي اليها بعد اتمام المداولات والاتفاق عليه . وهي أول مرة اجتمع

مؤتمر دولي في عاصمة بلاد لم تشترك في هذا المؤتمر ! . وفى ٢٣ دسمبر تم اتفاق مندوبى الدول على وضع قرار نهائي وفى ٢٤ منه أبلغ هذا القرار الى الباب العالى . وهو يتضمن أن الدولة العلية تتنازل لبلاد الصرب والجبل الاسود عن بعض الاراضي ليتسع نطاق امارتيهما . كأنهما الغالبتان لتركيا ! ويتضمن ان البوسنه والهرسك تصير مستقلة استقلالا اداريا وأن يعين لهما لمدة خمس سنوات حاكم يجب ان يكون تعيينه بموافقة الدول وأن يكون البوليس في البوسنه والهرسك مسيحيا وأن يترك لهاتين المقاطعتين نصف ايرادهما وان تكون لغة البوسنه والهرسك هى اللغة الرسمية فيهما ويتضمن القرار غير ذلك أن القسم الموجود فى شمال البلقان من بلاد بلغاريا يصير مستقلا استقلالا اداريا كالبوسنه والهرسك وان تحتل الجنود البلجيكية هذه المقاطعات السالفة الذكر لحين تنفيذ قرار الدول وان تعين لجنة دولية لمراقبة تنفيذ هذا القرار

ولا ريب أن قرار الدول هذا كان في الحقيقة اعلانا لتركيا بان دول أوروبا كلها متعصبة ضدها وانها متحدة فى العمل على الاضرار بها. فان الدول الاوروبية كانت تعلم علم اليقين ان هذه المطالب ترفضها تركيا رفضا باتا لما فيها من المساس بحقوقها . وكيف كانت تستطيع تركيا أن تقبلها بعد ان أخمدت الثورة في البوسنه والهرسك وهزمت جنود الصرب والجبل الاسود شرهزيمة ؟

وقد كانت انكلترا وحدها تتظاهر للدولة العلية بالمحبة والولاء ولكنها أضرت بها كغيرها بل اكثر من غيرها لان الدولة العلية انخدعت

بتظاهر سواس الانكليز بالميل لها وحسبت ان بريطانيا مساعدة لها ضد الروسيا وقت الحرب . فلما جاءت الحرب علمت تركيا ان انكلترا كانت ترمى فقط الى تشجيعها على معارضة أوروبا مع علمها باتحاد أوروبا ضدها وكذلك خدعت انكلترا تركيا عند عقد مؤتمر برلين حيث أخذت منها قبرص كما يرى القارئ

ولما رأي مندوبو فرنسا ان الدولة العلية عازمة على رفض مطالب المؤتمر عرضوا على بقية الاعضاء تعديل الطلبات فقبلوا ذلك وأبلغوا الباب العالى انهم يتركون مسئلة تنازل الدولة العلية للصرب والجبل الاسود عن بعض الاراضى لمخابرة أخري وانهم لايسألون الباب العالى ان يستشير الدول في تعيين حاكم البوسنه والهرسك الا في الخمس سنين الاولى وانهم عدلوا عن طلبهم بشأن تقسيم بلغاريا الى قسمين وجعل قسم منها مستقلا استقلالا اداريا وأنهم عدلوا عن طلبهم بشأن جعل البوليس كله في البوسنه والهرسك مسيحيا وقبلوا ان يكون من المسيحيين ومن المسلمين وانهم قبلوا اعتبار اللغة التركية فى البوسنه والهرسك رسمية كاللغة السلافية . وحددوا للباب العالي مدة ثلاثة أشهر لتنفيذ مابقى من مطالب الدول

وقد أمضي مندوبو انكلترا على هذا القرار مع بقية مندوبى الدول ولكنهم كانوا ينصحون لسواس تركيا سراً برفض مطالب الدول

ولكي تعلم الامة العثمانية ان جلالة السلطان الاعظم لايعرض بمصالحها للخطر وأنه يستشير في صغائر الامور وكبائرها كبراء الامة

وعقلاءها جمع جلالة السلطان الاعظم مجلسا عاليا مكونا من مائة وثمانين عضوا من كبراء الامة ورؤساء الطوائف والمذاهب وعرض عليهم مطالب الدول وسألهم رأيهم في الامر فرفضوها بالاجماع وأشاروا على جلالة السلطان برفضها فقرر جلالته رفضها عملا برأى كبراء الامة ورؤساء المذاهب والديانات وحفظاً لكرامة الدولة وصيانة لشرفها

وفى ٢٠ يناير عام ١٨٧٧ أعلن صفوت باشا مندوبي الدول رسميا بان الدولة العلية رفضت مطالبهم لمساسها بمصالحها الجوهرية . فانفض بذلك المجتمع الدولى وترك مندوبو الدول كافة الاستانة اظهارا لغضب دولهم وانقطاع العلائق السياسية

وفى ٣١ يناير من السنة نفسها كتب المسيو (غورتشا كوف) وزير الروسيا الاول الي الدول الاوروبية يسألها عن الوسائل التى ستتخذها مع تركيا لاجبارها على قبول مطالبها ويعلمها بان الروسيا مستعدة للعمل وحدها ضد تركيا . وفى الوقت نفسه اتفق القيصر مع (فرنسوا جوزيف) امبراطور النمسا على بقاء النمسا على الحيادة أثناء الحرب بين الدولة العلية والروسيا وقبل القيصر الشروط الآتية : أولا ان لا تدعي احدى الدول الاوروبية ان لها وحدها حق حماية المسيحيين في الدولة العلية وان يكون لدول أوروبا كلها القول الفصل بين تركيا والروسيا بعد نهاية الحرب . ثانيا ان لا تأخذ الروسيا شيأ ما من الاراضي الواقعة على الشاطيء الأيمن لنهر الطونة وان تحترم استقلال رومانيا وان لا تمس الاستانة بسوء . ثالثاً اذا أوجدت الروسيا امارة سلافية جديدة يجب أن لا يكون ذلك ضد

مصلحة البلاد الغير سلافية وان لا تدعى الروسيا حقوقاً جديدة على بلغاريا التى يجب أن لا يحكمها أمير روسي ولا أمير نمساوي . رابعا أن لا تمر الجنود الروسية من بلاد الصرب

ولم تكتف الروسيا باتفاقها مع النمسا ومساعدة ألمانيا لها من أول الازمة كل المساعدة بل أرادت أن تحقق من مساعدة بقية الدول الاوروبية لها مساعدة معنوية فأرسلت الجنرال (اغناتييف) الى عواصم أوروبا فزارها عاصمة بعد عاصمة حتي لوندرة نفسها . وفى كل عاصمة من عواصم أوروبا قوبل بالترحاب ووعد بعدم معارضة الروسيا فى شيء وفى لوندرة اتفق مع الوزارة الانكليزية على عقد مؤتمر دولى فى لوندرة لارسال انذار أخير للباب العالي .وبالفعل اجتمع المؤتمر وفى ٣١ مارس سنة ١٨٧٧ أرسل الانذار الدولي للباب العالى متضمنا انه يجب على الدولة العلية أن تتم عقد الصلح مع الجبل الاسود وان تترك له الاراضى التى يطالب بها وان تنفذ الاصلاحات التي طلبتها منها الدول وان تجعل عساكرها في حالة السلم بان تقال عددها العظيم الذى جمعته للحرب.وأنذرتها الدول بانها كلها مستعدة لان تتحد وتقرر الوسائل الفعالة ضدها انلم تقبل مطالبها في أقرب وقت .وبذلك اشتركت أوروبا كلها اشتراكا معنويا فى معاداة الروسيا لتركيا وتهييجها أمم البلقان عليها وتحملت مسؤلية كل ماعملته الروسيا ضد تركيا

وقد أرسلت الروسيا بانفرادها انذاراً آخر للباب العالي أشد لهجة من الانذار الدولي فعرض الباب العالى هذين الانذارين على مجلس

المبعوثان ليرى رأيه فيهما فرفضهما في ٩ ابريل سنة ١٨٧٧ وفي ١١ ابريل أعلن الباب العالى للدول الاوروبية رفضه لهما . ومن ذلك اليوم صارت الحرب على أبواب تركيا وأخذت الدولة العلية من جهة والروسيا من جهة أخرى تتم تجهيزاتها الحربية وترسل جيوشها على الحدود

ولما رأت الروسيا انها لا تستطيع التغلب على تركيا والفوز عليها الا اذا عبرت جيوشها بلاد رومانيا عقدت في ١٦ ابريل مع هذه الامارة ـ خلافا الاتفاقها مع النمسا ـ اتفاقية تسمح للجنود الروسية بعبور أراضى رومانيا. وفى ٢٤ ابريل سنة ١٨٧٧ أعلنت الروسيا رسميا الحرب على تركيا مبينة فى اعلانها ان غرضها بالحرب نصرة المسيحيين :

فلما علمت انكلترا بان الحرب لابد منها سألت الروسيا عدم المساس بمصالحها فى الشرق واحترام صوالحها . فأجابتها الروسيا على ذلك. وهذه هى المساعدة التى قدمتها انكلترا للدولة العلية !

وقد اتخذت الجنود الروسية في القرم وفى البحر الاسود خطة دفاعية وجعلت خطتها الهجومية فى جهة القوقاز والدانوب

وسار الجيش الروسي في آسيا تحت قيادة الجنرال { لوريس مليكوف } وبعد مجهودات عظيمة وقتال عنيف استولي في ١٩ مايو على مدينة أردهان وسار فى اوائل يونيه الي مدينة (أرضروم) . أما فى أوروبا فقد اتفقت الروسيا مع رومانيا { التى اعلنت عندئذ استقلالها التام عن الدولة العلية } فى ١٤ مايو عام ١٨٧٧ اتفاقا دفاعيا هجوميا وانضمت جنود رومانيا الي جنود الروسيا وعبرت بلغاريا الشمالية. وفي أواسط يوليو احتلت مدينة نيكوبلي واحتل

الجنرال (جوركو) مضايق البلقان الموصلة لمضيق شيبكا الشهير . وقد احدثت هذه الاخبار تأثيرا شديدا في الاستانة وفى أوروبا كلها وازداد اهتمام الباب العالى بأحوال الجيش . الا أنه من سوء حظ الدولة وشي بعض الدخلاء بالشهم المشهور (عبد الكريم باشا)فعزلته الدولة وعزلت رديف باشا ناظر الحربية وعينت بدل عبد الكريم باشا { محمد على باشا } وهو ضابط روسى الاصل اعتنق الاسلام ودخل فى عسكرية الدولة

ولما علم دولة الغازى (عثمان باشا) بانتصار الجيوش الروسية والرومانية أتى بجيشه الى مدينة (بلفنه) وحصنها أحسن تحصين

وقد هاجت الخواطر فى بلاد المجر حين ذاك هيجانا شديداً لانتصار الروسيا على تركيا في بعض مواقع وصار المجريون يتظاهرون في الشوارع وفى المجتمعات ضد الروسيا وينادون بمحبة تركيا التى ساعدت ثوارهم عام ١٨٤٩ وأخذوا يسألون حكومتهم مساعدة تركيا بالفعل . الا ان النمسا التى بيدها زمام القيادة العامة للجيش المجرى والنمساوي كانت على الحيادة وكان { بسمارك } يسمعها من وقت الي آخر ان نصيبها من أملاك تركيا سيكون (البوسنه والهرسك). فكانت راضية بالحرب غير حاسبة لتقوية نفوذ الروسيا في بلاد البلقان حسابا

وبالجملة لم يكن لتركيا فى أمم أوروبا محب يخلص الحب لها غير الامة المجرية ولكنها لم تستطع ان تعمل شيئا ما في صالحها

وقد ظن سواس أوروبا ورجال العسكرية فيها ان الروسيا ستستمر سائرة في طريق النصر ولكن الاخبار ملأت أوروبا بعدئذ ان الجنود العثمانية

انتصرت على الجنود الروسية انتصاراً باهرا (فى قارص) بفضل البطل الشهير الغازى { أحمد مختار باشا } واضطر الروسيون لرفع الحصار عن هذه المدينة . وفى يوليو وأغسطس وسبتمبر عام ١٨٧٧ هاجمت الجنود الروسية مدينة { بلفنه } المرة بعد الاخرى وارتدوا على أعقابهم خاسرين لما أقام حولها الغازى (عثمان باشا) من المعاقل والحصون المنيعة

ولكن سوء حظ الدولة العلية قضي عليها بان لا ترسل مايلزم من المدد للغازى (مختار باشا) بعد ان فقد جيشه الرجال الابطال . فسقطت منه لذلك (قارص) فى أيدى الروسيين فى شهر نوفمبر عام ١٨٧٧ . وسار بعد ذلك الجنرال الروسي (مليكوف) على (أرضروم) . أما (بلفنه) فقد أعيت معاقلها وحصونها الروسيين فحاصروها حصارا شديدا وشهدوا قوة الاتراك وشهامتهم وأعجب قيصر الروس نفسه بمهارة الغازى (عثمان باشا) وقوة ادراكه . وقد طالت محاصرة (بلفنه) حتى انقطع المدد عن الاتراك ونفد كل ماعندهم من الذخائر فعزم الغازي (عثمان باشا) على الخروج من (بلفنه) مع جنوده الاشداء وفي ١٠ دسمبر عام ١٨٧٧ خرج بالفعل ومرت الجنود العثمانية من وسط الاعداء غير خائفة نيرانهم ولا مقذوفاتهم بل جاعلة وجهتها الاستحكامات التي كان أقامها الروسيون حول (بلفنه) على ثلاثة خطوط متعاقبة واستولت على مدافع الخط الاول والثانى وكادت تستولي على الخط الثالث غير ان الغازى { عثمان باشا } وقع جريحا فظنه قومه ميتا وانتشر خبر موته بين الجنود العثمانية فثبطت هممهم وانحلت عزائمهم . ودخل الروسيون في هذا الاثناء

{بلفنه} واضطر قواد الجيش العثمانى للتسليم والاتفاق مع قواد الجيش الروسى على ايقاف الحرب بالقاء الجيش العثمانى للسلاح وقد فقد الجيش الروسي في محاصرة « بلفنه » ٢٨٠٨٠ رجلا وفقد الجيش العثمانى ١٥٣٠٠ رجلا

ولم يعتبر رجال العسكرية فى أوروبا سقوط (بلفنه) انتصاراً للروسيين على العثمانيين بل أعجب كل انسان بالعثمانيين اكثر من اعجابه بالروسيين فان الروسيين كان عددهم مائة وخمسين ألف مقاتل وكان عدد العثمانيين ثلثهم أي خمسين ألفا فقط . وقد أظهر القيصر اسكندر الثانى نفسه للغازى (عثمان باشا) عظيم إعجابه بدفاعه عن (بلفنه) وقال له ان هذا الدفاع يعد من الاعمال الحربية النادرة المثال فى تاريخ البشر

وبالجملة فلم تنتصر الروسيا على تركيا في هذه الحرب الا بالدسائس العديدة التي دستها ضدها فى البوسنه والهرسك وفي بلاد البلقان. فقد رأى القاريء ان الدولة العلية اضطرت الي قمع ثورة عظيمة فى البوسنه والهرسك ومحاربة الصرب والجبل الاسود وقمع ثورة بلغاريا مما أراق دماء كثيرة من دماء العثمانيين وأمات أبطالا من جنود الدولة وحملها الاموال والمصاريف الطائلة

ومع ان الثورة فى البوسنه والهرسك وبلغاريا والحرب مع صربيا والجبل الاسود أضعفت جيوش الدولة فان هذه الجيوش الفخيمة حاربت الروسيا بكل قوة وشهامة وانتصرت عليها فى مواضع مختلفة. ولم تحارب الروسيا تركيا بجيوشها وحدها بل استعانت برومانيا التى قدمت لها نحو المائة ألف مقاتل . ولو كانت الروسيا حاربت تركيا من باديء الامر قبل أن تهيج البوسنه والهرسك وبلغاريا والصرب والجبل الاسود ضدها

لـكانت انتصرت تركياولامحالة وخابت الروسياوهزمت شرهزيمة

واذا أضاف القارىء الي ما تقدم أن تركيا كانت تضع ثقتهافي رجال من الدخلاء يعملون بأوامر الاجنبي ويعرضون بمصالح الدولة للدمار وانه كان بين قوادجيشها قائد روسي الاصل علم فضل تركيافي انتصارها على الروسيا فى بعض مواقع مهمة

ولا بد لنا من ان نذكر للقاريء أيضاً ان جنود الجبل الاسود كانت تعاكس جنود الدولة أثناء الحرب وان الصرب انضم جيشها لجيش الروسيا بعد سقوط (بلفنه) . فكانت الدولة العلية بذلك مشتغلة من كل جانب برد الاعداء عن ديارها ولم يكن لها نصير ينصرها على أعدائها بل كانت وحدها امام أعداء عديدين وكان اعتمادهـا على محض قوتها

*
* *

طالمـا ادعى أعداء الدولة العلية انها اذافتحت بلادا نشرت فيها الجنودها راية السلب والنهب والفتك بأهلها واذا مرت بأرض خربتها وغيرت معالمها . فليقرأ المنصفون ماعمله الروسيون وصنائعهم البلغاريون فى هذه الحرب مع المسلمين الابرياء الذين لم يكن لديهم أسلحة يدافعون بها عن أنفسهم بل كانوا آمنين مطمئنين يحسبون الحرب بشرية انسانية لابهيمية بربرية

وقد أتى السير اشميدبرتلت فى كتابه الحديث (مواقع تساليا) على تاريخ كثير من هذه الفظائع . وانا نذكر للقراء الكرام شيئا منها :

لمـا عبر الجنرال سكوبيف نهر شيبكا في ينا ير سنة ١٨٧٧ وجدمعسكرا

يحتوي على مائة ألف من نساء الاتراك نازلا بقرب هرمنلي فلم يكن من جنوده سوى انهم فتكوا بهن وطردوهن امامهم على ثلوج نهر ميرتزا الى جبال رودب حتى مات أكثرهن من البرد والجوع

وانا نستشهد على هذه المعاملات البربرية واعتداء الروسيين والبلغاريين على الابرياء من المسلمين بما جاء في جريدة الدالي نيوز وقد كانت اذذاك منتصرة للروسيا. ففي عدد ٨ فبراير سنة ١٨٧٨ جاء فيها بالحرف الواحد :

ادريا نوبل في ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ لمكاتبنا في الحرب

«ان المسافة التي بين (فيلوپوپوليس) و(هرمنلي) تبلغ سبعين ميلا قد كانت بالامس مرتعا لآلاف من العائلات واليوم أصبحت قاعا صفصفا خاوية على عروشها ليس بها سوى جيف الموتى وعظام القتلى وبقايا المذبوحين . فتحولت نضارتها السابقة الى منظر مخيف وأطلال دوارس وذلك نتيجة ماحصل من الفظائع المنكرة التي تقشعر من هولها الابدان. ولا يمكن لاى انسان أن يتصور مهما اجتهد ان يحاول تلك الاهوال التي وقعت في تلك البقعة والحالة التي وصلت اليها »

وكتب هذا الكاتب نفسه :

« بينما نحن نسير من (فيلوپوپوليس) كنا نرى جثث الفلاحين مغطاة بالثلوج ولا شك ان بعضها قد لبث على هذه الحالة الشنيعة المحزنة أسبوعين أو ثلاثة ولم تزل آثار الدماء على ملابس بعضهم . وهكذا كنا نسير بين رمم القتلى وآثار الخيام والارض حولنا مغطاة بالجثث وبقايا المعسكرات كما تغطي بالبسط والفرش وكنا نخترق صفوفا من جثث القتلى

ورمم الحيوانات مسافة لا تقل عن خمسة وثلاثين ميلا . فرأينا نساء ملقاة في الثلوج وأولادا وأطفالا مرماة فى البرك ورجالا ممزقة أجسادهم مما أصابهم من الجراحات القتالة . ورأينا الثلج محمرا من أثر الدماء المنهطلة وأظن ان أغلب النساء متن من البرد القارس لان نضارة الحياة كانت بادية على وجوههن فكأنهن نيام للراحة من عناء هذا العالم ومعاملة أهله البربرية باسم المدنية

اما الرجال فكنت تراهم واحدا بجانب الآخر تظهر عليهم علائم العظمة حتى مع الموت وذقونهم ملوثة بدمائهم وأيديهم موضوعة على صدورهم كانما هم يحافظون على قلوبهم الشريفة من ان تدوسها اعداؤهم باقدام الخيل

اما الاطفال والاولاد فهم كالنساء مات أغلبهم من شدة البرد القارس والثلوج المتراكمة .فكنت ترى أوجههم لطيفة بعضها باد وبعضها مغطى بالثلج وكانت تلوح عليهم نضارة الطفولية وتظهر عليهم الطهارة والبراءة التامة كانما هم نائمون نوما طيميا أو كانما جعلت من الثلوج الناصعة البياض سرائرهم وأيديهم الناعمة البيضاء بارزة من المياه الذائبة

ولا أشك ان أمهاتهم لما رأينهم أمواتا على صدورهن من شدة البرد وان لا أمل في عودتهم للحياة رمينهم في الثلوج ليخففن حملهن وفارقن حشاشات أكبادهن بالرغم عنهن والدموع تسيل من عيونهن حتى اذا أدركت الخدود تحولت بردا من شدة الزمهرير

« وانى لم أشعر بيأس زائد وبلاء عظيم فى حياتى الا عند ما رأيت بعيني

الفظائع والمصائب التي حلت على بنى الانسان . فلقد رأيت امرأة تسير بجانب طفلة تناهز العاشرة من عمرها وهما تجدان فى المسير فراراً من معاملة الروسيين وقساوتهم البربرية ولـكن الابنة لم تقوعلى المشي لان أقدامها العاريه تعبت غاية التعب من المسير على الثلج فسقطت ميتة بين أيدى أمها الحنونة ولقد داهم الام الليل بظلامه الحالك وبرده القاتك فسقطت طريحة بجانب ابنتها

وان الطريق الي (هاسكيوي) مملوأة بجثث عديدة وكلما مررنا على قرية رأيناها خاوية على عروشها ليس بها الا بقايا المذبوحين والمقتولين ولقد سألنا بعض البلغاريين : من قتل هؤلاء ؟فأجابونا بصوت الشامت المسرور « اننا ونصراءنا قتلناهم شر قتلة »

أما في هاسكيوى فكنت تري كثيرا من الجنود التركية مقتولين وفضلا عما أصابهم من الجراح القاتلة فان فلاحى البلغار لم يشفقوا عليهم بل رجموهم بالحجارة ليفنوا عظام هؤلاء الشهداء الابطال

ولقد سألت احدي العائلات التركية من أين جاءت والي أين تسير؟ فقالت لى انها تركت { بلفنه } من خمسة شهور مضت وهي على مثل حالها من الفقر المدقع تسير ليلا ونهاراً لا غذاء لديها سوى ما تجده من لحوم الحيوانات التى تموت فى الطرق وكانت هذه العائلة مكونة من أب وأم على صدرها طفل صغير وولد يبلغ العاشرة من العمر وكلهم حفاة عراة الارض فراشهم والسماء غطاؤهم وليس لديهم سوى بعض خرق يسترون بها سوآتهم وقدرة يطبخون فيها اللحم

وكلما سرنا خطوة بعد (هاسكيوي) رأينا مناظر أبشع وأفظع فكم رأينا امرأة وزوجها مقتولين نائمين بجانب بعضهما وطفلين بقربهما على الثلوج وشيوخا متكسرة جماجمهم وكل هذا فضلا عن خراب القرى وسلب ونهب ما لاصحابها من الخيرات والاشياء النافعة . ومن المناظر التى تولد الحسرة وتحزن الفؤاد أنني رأيت شيخا هرماً من الترك ملقي على الارض وبجانبه مصحف قرآن شريف مفتوحا وملوثا بدمائه وذلك بينما كان البلغاريون يسلبون الناس أموالهم ويحملونها على عرباتهم ثم يجرونها فوق جثث القتلى لتدهس العجلات لحومهم وتفتت عظامهم وتهشم جماجمهم بلا رحمة ولا شفقة بل وبلا تأثر لمثل تلك المناظر البشعة الفظيعة فأين المدنية وأين حب الانسانية ؟؟؟

واني أقول ان عدد الذين فتك بهم البلغاريون من الابرياء الآمنين كثير جداً وقد ترك بيوتهم نحو الخمسة وسبعين ألفا هروبا من المعاملة القاسية "البربرية" ولكنهم لا يكادون يفرون من القتل حتى ينقض عليهم البلغاريون ويفتكون بأغلبهم. ولم يهرب الا القليل الى بلاد الترك وانه ليحق للعالم ان يسمي الطريق بين فيلوبوبوليس وهرمنلي (طريق الموتى) لكثرة مافقد فيه من الارواح البريئة

ولقد رأينا فى طريقنا الي قسطنطينية من أمثال هذه المناظر الفظيعة كثيراً وكم رأينا أناسا من الضعفاء يسيرون سريعا لا يلتفتون وراءهم خوفا من أعدائهم واذا سألتهم الى أين يسيرون لم يجيبوك من شدة ضعفهم وانتهاك قواهم كأنما هم لا يعرفون الي أى طريق هم سائرون. وانما

غايةمايتصورون انه يجب عليهم الفرار حتى يأمنوا على أرواحهم ومن شدة فزعهم وهلعهم كانوا يتركون أمتعتهم حين تكسر لهم عربة ويفرون وحدهم

واني بينما اكتب هذه الاسطر أري امام عيني كثيرا من العربات تعدو باصحابها بين هضاب متراكمة من الثلج وأغلب النساء يسرن حفاة عراة خائرات القوى من الضعف والتعب

ولذلك ضوضاء يصحبها صراخ الاطفال وعويل الاولاد وبكاء النساء وزفزفة العواصف وقرقعة عجلات العربات مما يزيد المنظر فظاعة وبشاعة ومع الاسف الزائد ان هؤلاء المساكين التعساء يروحون فريسة الظلم وليس من يرحمهم أو يشفق عليهم

وقد كتب مكاتب الستندرد الذي سار مع الدوق نقولا وجاب الجزء الشمالي من بحيث جزيرة البلقان مانصه

« لم أترك لنفسي مجالا للتكلم عن كبائر الفظائع كما يجب ان نسميها وأقول الآن ان المتوحشين لايفعلون مع الفارين الهاربين كما فعل البلغاريون مع جيرانهم الاتراك من القساوة البربرية والمعاملة الوحشية وماحمل هؤلاء المسيحيين على فعل هذه المنكرات سوى حب نفوسهم الخبيثة للفتك بعباد الله وظمئها الى شرب دماء جيرانهم الابرياء الذين لاسلاح بايديهم. ولقد سمع تابع لى رجلا بلغاريا فى احدى حوانيت الخمر فى (سيستوف) يقول وهو حامل سكينة هائلة « كنت أحمل معى بندقية ولكن هذه السكينة اللطيفة أفادتنى اكثر من البندقية لاني ذبحت بها

عشرة منهم كما تذبح الاغنام ، ولعمري ان مثل هذا التميير لا يضارعه مثيل في القسوة والفظاعة البهيمية واني لا أشك أنهم قتلوا الضعفاء الابرياء وذبحوهم كما تذبح الاغنام. ولقد مضى شهران على الروسيين وهم مقيمون ومع ذلك لم يسمع ان تركيا أساء الي أحد المسيحيين . ومما يحكى ان ضابطا روسيا اشترى من أحد الفلاحين المسيحيين ديكين روميين بمبلغ نصف شلن ثم سأل الفلاح قائلا « أليس الناس في سرور لمقابلة اخوانهم المسيحيين » فأجابه « فلننظر حتى نرى ان كنتم تعاملوننا كما كان يعاملنا الاتراك بالحسنى »

وقد سأل المستر ادموند قنصل انكلترا في (فيلوبوليس) خليل أوغلي حسين ومصطفى أوغلي عبدالله وسليمان أوغلي رشيد وهم من سكان (بالقان) التي تبعد بمسافة سير ثلاث ساعات من ترنافو عما جرى لهم من الاهانات فأجابوا بما يأتي

« في صباح السبت الماضى (٧ يوليو) وصل ألايان من الكوساكز الي قرية (بالقان) فخرج كبارها حين سمعوا بوصول الروسيين لمقابلة قوادها ولكن الكوساكز حاصروا القرية وطلبوا من السكان تسليم أسلحتهم وفي اليوم الثاني حضر ألايان آخران من الكوساكز وأحاطوا كاخوانهم بالقرية وكان يصحبهم في هذه المرة عدد لا يقل عن الفين أو ثلاثة آلاف من البلغاريين الذين يسكنون القرى المجاورة وجميعهم متقلدون بالنبابيت والسكاكين والبنادق والسيوف المختلفة الاجناس فابتدأ هؤلاء الاوغاد في طرد أهل القرية وحيواناتهم ونهب الناس

وسلبهم من كل شيء يستحق الاخـذ ثم أشعلوا النار فى القرية في أماكن عديدة وكلما حاول أحد الخروج من لظى النار ولاسيما الاطفال والنساء حملوا عليه وزجوه فيها

أما الكوساكز فانهم وقفوا بعيداً على شكل كوردون حول القرية غير متألمين مما يجرى امام أعينهم بل كانت علائم السرور بادية على وجوههم ولولا اننا (خليل أوغلى ومن معه) هجمنا على الكوردون بقلوب شجعها اليأس وقطعناه فى طرف القرية ما تمكنا من الفرار من لهيب النار »

وكان المتكلم هو خليل أوغلى المذكور ولقد استمر في حديثه وعلامات الحزن والاسف بادية على وجهه ولكنه حينما أراد أن يتكلم عما حصل لعائلته بكى بكاء مراً وصار يتنهد كما تتنهد الثكلى ثم خنقته العبرة فلم يقدر على الكلام وبعد مدة طويلة أمكنه أن يعبر لنا عما حصل لاختيه اللتين كان يعتني بأمرهما الان زوجيهما كانا فى الجيش وقال لنا انه رأى بعينيه عائلته وقد كانت تزيد عن احدى عشرة نسمة ترمى فى النار واحدا بعد واحد . »

ولما عبر الروسيون نهر الدانوب سنة ١٨٧٧ قبضوا على نساء الاتراك وأطفالهم الذين كانوا يحاولون الهروب من وجه أعدائهم وأحضروهم الى مدينة شملا بحالة تذيب الافئدة وتقطع الاكبدة وهناك رآهم بعض مكاتبي الجرائد الاوربية فكتبوا قراراً بهذا الشأن وأمضوا عليه

ولقد أرسل وزير خارجية الدولة العلية هذا القرار الى السفارة العثمانية في باريس بتاريخ ٢١ يوليو سنة ١٨٧٧ قائلا

(اني أرسل اليكم القرار الآتى باجماع وامضاآت مكاتبي الجرائد

الاجنبية الآتية وهي

(كولونيا غازت) (جرنال الديبا) (نيوفراى برسيه) (ستندارد) (دايلى تلغراف) (اللستراندلندن نيوز) (مانشسترجارديان) (التيمس) (فرانكفور ترزايتنج)(مورنن بوست) (ريبليك فرانسز) (بسترلويد) {فاينر تاجبلاط } {مورنن ادفرتيسر } (سكوتمان) (نيويورك هرالد) و { منشستر اكزامنر } . والقرارهو الآتى :

الممضون أدناه الذين يمثلون الصحافة الاوربية والمجتمعون في مدينة شملا يرون ان من واجباتهم ان يمضوا الرسائل التى أرسلها كل واحد منهم الي جريدته عن القسوة البربرية التي ارتكبها ويرتكبها البلغاريون ضد السكان المسلمين الابرياء وأن يشهد كل منا اننا رأينا بأعيننا جراح النساء والشيوخ والاطفال وسألنا فى مدينتى راسجرار وشملا النساء والاطفال والشيوخ عما حل بهم من الجراحات العنيفة بالسيوف والحراب فضلا عن البنادق التي ربما ظن أنها اصابتهم أثناء اشتعال نار الحرب .

ويستدل من أجوبتهم ان ماحل بهم هو من معاملة الروسيين والبلغاريين ويستنتج من كلامهم أيضا ان معظم سكان القرى من المسلمين ذبحوا كما تذبح الاغنام . ونحن الممضون أدناه نقر ان أغلب الجرحى من النساء والاطفال » الامضاآت

وكتب مكاتب التيمس — وقد صحب هذا المكاتب الجنرال جوركو ورأى بعينه ماحل بالاتراك الابرياء — من معسكر جنوب البلقان في ١٢ يوليو سنة ١٨٧٧ مايأتي

« ان هذه الحرب ليست من الحروب الانسانية بل هي هول على هول وفظائع على فظائع لان الجندي الروسي يرى التركى كحيوان يجتهد فى صيده ليقتله وأما البلغارى فكيفما تمكن من القتل قتل . وهذا هو البرنس ويتشتنستين يقول ان البلغاريين يقتلون جرحي الاتراك ويسلبون القتلى أموالهم . فماذا يعمل الانسان ذو العواطف الحية حينما يرى اخوانه يتحمسون لشرب الدماء عند مايسمعون انه قبض على أسرى من الاتراك ؟ أم كيف يتسنى للابطال ان ينظروا بعين الرضي رجالا يلوثون انتصارهم بما يرتكبونه من منكرات الفظائع والمذابح ؟؟ »

*
* *

لما رأت الدولة العلية ان أوربا كلها ضدها وأن لا نصير لها بين الدول وان اطالة الحرب مضرة بها طلبت من الروسيا ايقاف الحرب وعقد هدنة للمخابرة في شروط الصلح فقبلت الروسيا ذلك بغاية الامتنان وعقدت الهدنة بين المتحاربين فى (أدرنه) بتاريخ ٣٠ يناير عام ١٨٧٨ واشترطت الروسيا عند عقد الهدنة ان القواعد الاولية للصلح يجب أن تكون استقلال الصرب ورومانيا وتنازل الدولة العلية لهما وللجبل الاسود عن بعض الاراضي وجعل بلغاريا مستقلة استقلالا اداريا وجعل الادارة فى البوسنه والهرسك مستقلة وتقدير غرامة حربية تدفعها تركيا للروسيا

وما انتشر خبر هذه الاتفاقية التى عقدت في أدرنه بين المتحاربين حتى هاجت الخواطر فى النمسا ضد الروسيا ورأت حكومة الامبراطور

(فرنسوا جوزيف) ان هذه الشروط التي جبرت الروسيا الدولة العلية على قبولها ماسة بحقوقها وبمصالحها فى البلقان وعلى شواطئ نهر الدانوب فأعلنت الدول الاوربية بانها تعتبر كل اتفاق يقع بين المتحاربين لاغ لاعمل له وان أوروبا كلها يجب عليها أن تجتمع فى مؤتمر للفصل بين تركيا والروسيا

أما انكلترا فقد أظهرت عندئذ ميلها للدولة العلية وتظاهرت بالمحبة والصداقة لملك آل عثمان وأرسلت بأسطولها الى مياه البوسفور وهددت الروسيا بانزال العساكر الانكليزية الي الاستانة . وسيري القارىء الى أى غاية كانت ترمى انكلترا عندئذ وهل كانت صادقة فى تظاهرها بالمودة للدولة العلية أو غير صادقة

وقد أجابت الحكومة الروسية على اعلان النمسا بأن ليس لاوروبا حق في ان تتداخل فى أمور لاتمس مصالحها مطلقا وان الروسيا تعرض على الدول عقد مؤتمر أوروبى للنظر فى شروط الصلح . فوافق البرنس « بسمارك » على جواب الروسيا وعرض على الدول عقد مؤتمر ببرلين

وفى هذا الاثناء كان الجنرال « إغناتييف » يتخابر مع مندوبى تركيا في شروط الصلح وفى ٣ مارس أمضي معهم عهدة بسان اسطفانوس هي أكبر المعاهدات ضررا بالدولة العلية. فهى تتضمن جعل بلاد الجبل الاسود مستقلة تمام الاستقلال من الدولة العلية مع توسيع نطاقها واعطائها ثغرين على البحر الادرياتيكي وتتضمن جعل بلاد رومانيا مستقلة تمام الاستقلال وجعل بلاد الصرب مستقلة مع اضافة أراضى (نيش) الي بلادها

وتتضمن جعل بلاد البلغار مستقلة استقلالا نوعيا وتعيين حاكم روسي لها ينظمها ويحكمها لمدة سنتين يكون لها بعدهما الحق في انتخاب أمير عليها وتتضمن العهدة كذلك احتلال العساكر الروسية لبلاد البلغار مدة سنتين وهدم كل القلاع والحصون الموجودة على نهر الدانوب (الطونة) وجعل الملاحة في نهر الدانوب حرة . وتتضمن العهدة أيضا ان الادارة في البوسنه والهرسك تكون موافقة لما طلبته الدول فى مجتمع الاستانة وتوضع تحت مراقبة الروسيا والنمسا وأن أرمينيا تمنح بعض امتيازات وبعض حقوق جديدة وان جلالة السلطان يصدر عفوا عاماً عن الثوار والمجرمين السياسيين. وتتضمن العهدة غير ذلك ان الدولة العليـة تدفع للروسيا غرامة حربية قدرها ١٤٠٠ مليونا من الروبل . وقد رضيت الروسيا بأن تتنازل للدولة عن مبلغ ١١٠٠ مليونا من الروبل مقابل تنازل الدولة لهـا عن باطوم وأردهان وقارص وبايزيد فى آسيا وعن اقليم (الدبروجه) في أوروبا . وهذا الاقليم أضيف الى مملكة رومانيا مقابل استيلاء الروسيا على اقليم { بسارابيا } الذي سلخ منها فى عام ١٨٥٦

وتشتمل العهدة على تعهد الدوله العلية برعاية الرعايا الروسيين في بلادها ووضع حقوق القسوس الارثوذكس تحت حماية القيصر واعادة تنفيذ المعاهـدات التجارية التى كانت بين الروسيا وتركيا قبـل الحرب وفتح بوغازى الدردانيل والبوسفور فى كل وقت للسفن التجارية

وما علمت الدول الاوروبية بهذه العهدة حتى اعترف سواسها بان الروسيا اعتدت على حقوق الدولة العلية شر اعتداء وان دول أوروبا تفقد

موازنتها ويضيع بالمرة التوازن العام اذا أنفذت شروط عهدة سان اسطفانوس . وكانت أشد الدول تهيجا ضد الروسيا هى النمسا التى خدعت فى اتفاقيتها التي عقدتها مع الروسيا في يناير عام ١٨٧٧ تخابرت انكلترا واتفقت معها على معارضة الروسيا كل المعارضة وطلبتا منها عرض عهدة سان اسطفانوس للمناقشة بين مندوبى الدول فى المؤتمر المزمع عقده فاجاب القيصر فى ٢٦ مارس سنة ١٨٧٨ بانه لا يرضي بأن دول أوروبا تتناقش فى الشروط التي لا تخص الا الروسيا وتركيا . وقد أمل القيصر عندئذ الاتفاق مع النمسا فأرسل الى فينا الجنرال (اغناتييف) ولكن الاتفاق كان مستحيلا لتباين أميال الروسيا والنمسا

وقد استفادت انكلترا من خيبة الجنرال (اغناتييف) فى مأموريته بفينا واعتمدت على مساعدة النمسا لها ضد الروسيا وأعلن اللورد سالسبورى وزير الخارجية الانكليزية وقتئذ أن عهدة سان اسطفانوس تجعل البحر الاسود تحت سلطة الروسيا ورحمتها وتهدد استقلال الدولة العلية وسلامتها وتضر بمصالح انكلترا . أى أن انكلترا أرادت ان تسمع الروسيا انها اذا صممت على تنفيذ عهدة سان اسطفانوس قامت الحرب بينهما . وكان القابض فى الحقيقة على مفاتيح السلم والحرب حينئذ هو لبرنس (بسمارك) لان المانيا كانت بين الدول في موقف الحكم فانها اذا كانت انضمت الى الروسيا كانت اضطرت النمسا الى العدول عن محاربة الروسيا وبذلك كانت فشلت انكلترا وبلغت الروسيا مرامها واذا كانت وقفت على الحيادة بدون ان تساعد الروسيا وتركتها امام انكلترا والنمسا كانت خسرت الروسيا

أهم مكاسبها في عهدة اسطفانوس . وقد سألت الروسيا المانيا مساعدتها مذكرة أياها برعايتها لها ضد النمسا فى عام ١٨٦٦ ومساعدتها لها ضد فرنسا فى عام ١٨٧٠ حيث منعت النمسا من مساعدة فرنسا. ولكن البرنس {بسمارك} أبى مساعدة الروسيا بجنود المانيا معتذرا بان المانيا فى حاجة مستمرة لمراقبة فرنسا والاستعداد لمحاربتها فاغتاظ قيصر الروسيا واغتاظ سواس الروسيا أشد الغيظ من ألمانيا ووزيرها وابتدأت العداوة الكامنة بين الدولتين من ذلك الحين فى الظهور

ولما رأت الروسيا انه لا استطاعة لها على محاربة النمسا وانكلترا بعد محاربتها لتركيا طلبت من الوزارة الانكليزية أن تعرفها عن التغييرات التى تريد اجراءها فى عهدة سان اسطفانوس وجرت المخابرات فى ذلك بين اللورد سالسبورى وبين الكونت « شوفالوف » سفير الروسيا بلوندرة . وفى ٣٠ مايو عام ١٨٧٨ امضيا على اتفاقية سرية تتضمن التغييرات التى طرأت على عهدة سان اسطفانوس .ولم يكن لهذه التغييرات الجديدة التي أحدثتها الوزارة الانكليزية في عهدة اسطفانوس أهمية لان المؤتمر الدولي كان من شأنه أن ينظر فى كل شروط الصلح وان يقرر ما يتفق عليه فيه بالاغلبية

أما فرنسا فقد كانت خطتها في المسئلة من بادىء الامر خطة الدولة الراغبة في السلام العديمة الاطماع فى أخذ شيء من أملاك الدولة العلية . ولما عرضت عليها الدول الاوروبية الاشتراك معها في مؤتمر يعقد للفصل النهائى بين تركيا والروسيا اشترطت على الدول. أولا اشتراك كل الدول التى أمضت

على معاهدة باريس عام ١٨٥٦ فى هذا المؤتمر . ثانيا أن لا ينظر في هذا المؤتمر الا فى المسائل المختصة بالحرب بين تركيا والروسيا . ثالثا أن لا يبحث أعضاء المؤتمر فى شؤون مصر والشام وأن لا يتناقش أحد في المؤتمر فى حقوق فرنسا على الاماكن المقدسة . فقبلت الدول كلها هذه الشروط ورضيت بذلك فرنسا أن تشترك معها في المؤتمر

وقد ظهر للقارىء مما سبق ان انكلترا كانت متظاهرة بالمودة للدولة العلية وكانت تهدد الروسيا بأعلى صوت ولسان ولم يكن قصدها من ذلك خدمة تركيا أو مساعدتها بل التغرير بها وخدعها . فانها وعدتها بالمساعدة فى مؤتمر برلين ضد الروسيا وعرضت عليها عقد اتحاد معها تتعهد فيه انكلترا بالدفاع عن تركيا اذا مستها الروسيا بسوء — ولو كانت انكلترا صادقة فى مودتها لكانت تحالفت مع الدولة العلية قبل الحرب — وتأخذمنها مقابل ذلك جزيرة { قبرص } فانخدع رجال الدولة العلية لسواس بريطانيا وأحسنوا الظن بهم وعقدوا معهم هذه المعاهدة فى ٤ يونيو عام ١٨٧٨ أى قبل عقد مؤتمر برلين بأيام قلائل وبذلك فقدت الدولة العلية جزيرة قبرص بدون أن نكسبها المودة الانكليزية الكاذبة أقل فائدة

*
* *

وقد دعى البرنس بسمارك رسميا فى ٣ يونيو عام ١٨٧٨ مندوبى الدول الاوروبية للاجتماع ببرلين فحضر المندوبون وعقدت الجلسة الاولي للمؤتمر في ١٣ يونيو . وكان أهم مندوبي المانيا البرنس (بسمارك)

وأهم مندوبي النمسا الكونت (اندراشي) وأهم مندوبى فرنسا مسيو (وادنجتون) وأهم مندوبى انكلترا الكونت { دي بيكونسفيلد } والمركيز { دى سالسبوري } وأهم مندوبى ايطاليا الكونت (كورتى) . وكان مندوبو الروسيا البرنس { غورتشاكوف } والكونت { شوفالوف } والبارون { دوبريل } . أما مندوبو الدولة العلية فكانوا { قره تيودورى باشا } و (محمد على باشا) الروسىّ الاصل و (سعد الله بك)

وقد أرسلت حكومة اليونان مندوبين من قبلها لعرض مطالب اليونان على المؤتمر وكان مندوبو انكلترا مساعدين لهم كل المساعدة فطلبوا من المؤتمر قبولهم لسماع أقوالهم . وكان قصد مندوبى انكلترا من هذه المساعدة معاكسة الروسيا التى يسوءها تقوية العنصر اليونانى لما في ذلك من الضرر بالعنصر السلافى . وكأن مندوبي انكلترا كانوا يجهلون ان مساعدتهم لليونان تضر بالدولة العلية أكثر من ضررها بالروسيا . ولكن مصالح الدولة العلية كانت لاتهمهم مطلقا بعدان تحققت أمنيتهم بالاستيلاء على (قبرص) :

وكانت تنحصر مطالب اليونان فى اظهار ضرورة استيلائها على تساليا وأبيرا وألبانيا وكريت. وقد قرر المؤتمر قبول مندوبى اليونان فى آخر جلسات المؤتمر وسماع مطالبهم

وأول مناقشة دارت بين أعضاء المؤتمر كانت على مسئلة بلغاريا واستغرقت أربع جلسات. وقد انتهت المناقشة باتفاق أعضاء المؤتمر — بالرغم عن معارضة مندوبى الروسيا — على جعل مساحة بلغاريا أقل

بكثير مما اتفقت عليه الروسيا مع الدولة العلية فى سان اسطفانوس بجعل حدودها عند جبال البلقان واعطائها (صوفيا) كعاصمة لها مع بعض الاراضى في جنوب البلقان. وقرر المؤتمر بذلك جعل مساحتها ٦٤٠٠٠ كيلو مترا مربعا بعد أن كانت في اتفاقية سان اسطفانوس ١٦٣٠٠٠ كيلومترا مربعا . وصار عدد سكانها مليونا ونصف مليون بعد أن كان في عهدة اسطفانوس أربعة ملايين . وبذلك بقيت سواحل الأرخبيل فى أيدي الدولة العلية خلافا لشروط عهدة اسطفانوس . وقرر المؤتمر جعل احتلال الجنود الروسية لبلاد بلغاريا لمدة تسعة أشهر فقط لا لسنتين كما قررته عهدة اسطفانوس وجعل تنظيم بلغاريا تحت مراقبة لجنة دولية لا تحت مراقبة مندوب روسى

وقرر المؤتمر كذلك انشاء ولاية جديدة فى جنوب البلقان بين مقدونيا وأدرنه تكون عاصمتها مدينة { فيليبوبوليس} وتسمي بالروملي الشرقي وتكون ادارتها الداخلية مستقلة وأن لا يجوز للجنود العثمانية ان تقيم فى داخلها بل يكون لها الحق فقط فى الدفاع عن حدودها . ولم يرض أعضاء مؤتمر برلين تسمية الروملى الشرقى ببلغاريا الجنوبية ولكنهم كانوا يرمون ولا محالة الى ضم هـذه الولاية الجديدة الى بلغاريا بعد زمن قليل من عام ١٨٧٨

ولما دارت المناقشة بشأن (البوسنه والهرسك) قام الكونت {اندراشي) مندوب النمسا وقرأ تقريراً طويلا أبان فيه أن بقاء هاتين المقاطعتين تحت يد الدولة العلية أي تحت حكم المسلمين يكون سبباً لاستمرار الاضطرابات

والثورات فيهما وأظهر ما في ذلك من الضرر بمصالح الدولة النمساوية وما انتهى من كلامه حتي وقف الماركيز (سالسبورى) وأيد أقواله وسأل المؤتمر تقرير احتلال الجنود النمساوية لمقاطعتي البوسنه والهرسك احتلالا لا أجل له . وهكذا ساعدت انكلترا الدولة العلية وبرهنت لها على صدق اخلاصها ...... وقد احتج مندوبو تركيا على هذا السؤال الغريب فأجابهم البرنس بسمارك — الذى كان الموعز للكونت (اندراشي) وللماركيز (سالسبورى) بما طلباه — بأن الغرض من مؤتمر برلين ليس رعاية المصالح العثمانية بل رعاية مصالح أوروبا والمدنية....... وقد اتفق مندوبو المؤتمر بالأغلبية على جعل البوسنه والهرسك تحت حكم النمسا واعطائها حق احتلال اقليم « نوفي بازار » . وهو اقليم على طريق سالونيك .

وبعد ذلك نظر المؤتمر في مسئلة الصرب والجبل الاسود فأعلن استقلالهما تمام الاستقلال وقرر اعطاءهما بعض الاراضي لتوسيع نطاقهما ولكن أقل مما قررته عهدة اسطفانوس . وفى ذلك الوقت قرر المؤتمر سماع مطالب اليونان فدخل المسيو « دلياينس » والمسيو « رانجابيه » وقرأ الاول مطالب حكومته وهي تشتمل على اعطاء اليونان ألبانيا وأبيرا وتساليا وكريت . فاتفق أعضاء المؤتمر على تقرير جعل المناقشة فى مطالب اليونان بين اليونان والدولة العلية نفسها وعلى انه اذا لم يحصل الاتفاق بين الحكومتين على تحديد حدود جديدة بينهما يعرض الامر عندئذ علي الدول الاوروبية وأقروا علي تنظيم المقاطعات اليونانية الباقية تحت حكم الدولة العلية على نسق الروملي الشرقى وجعل تنظيمها تحت مراقبة اللجنة الدولية

ولما جاءت مسئلة رومانيا أعلن المؤتمر استقلال هذه البلاد كصربيا والجبل الاسود وقرر المساواة التامة بين كل أهاليها على اختلاف دياناتهم . وهذا القرار جاء مفيدا جدا لليهود الذين أساءت اليهم حكومة رومانيا في معاملاتها معهم وأساء اليهم أهلوها كل الاساءة . وقد سمع المؤتمر مندوبي رومانيا « المسيو براتينو والمسيو كو جولنيسانو » كما سمع مندوبي اليونان. فطلبا منه عدم تقرير سلخ أي جزء من أراضي رومانيا وعدم مرور الجنود الروسية فى بلادهم وان يقرر أن الروسية تدفع غرامة لرومانيا مقابل ماتكبدته من الخسائر أثناء الحرب . ولكن المؤتمر لم يستطع قبول هذه الطلبات لما فيها من المساس بمصالح الروسيا واكتفي بتقرير اعطاء رومانيا ألفى كيلومتر مربع في اقليم الدبروجه

وقد نظر المؤتمر بعد ماتقدم فى مسئلة الملاحة فى نهر الطونة فقرر بقاءها على ما كانت عليه قبل الحرب ومنح النمسا بعض امتيازات . وقرر المؤتمر في مسئلة الغرامة الحربية عدم جواز استبدالها بأراض أو ببلاد عثمانية واعتبار الروسيا آخر دائن لتركيا أي انه لايجوز لها أن تتقدم فى المطالبة بالغرامة الحربية قبل الدائنين السابقين لتركيا

أما مايتعلق بالمسيحيين فى الدولة ألعلية فقد صرح مندوبو تركيا بأن دولتهم تحترم كل الديانات فى بلادها وتعامل رعاياها على السواء فقرر المؤتمر جعل المساواة فى الحقوق بين المسلمين والمسيحيين تامة وجعل المسيحيين فى بلاد الدولة العلية تحت حماية أوروبا المعنوية

ولم يبق أمام المؤتمر بعد المسائل السالفة الذكر الا مسئلة استيلاء

الروسيا على بعض بلاد ومواقع فى آسيا فتعهدت الروسيا بالتنازل عن مدينة (بايزيد) للدولة العلية مقابل تنازل الدولة عن مدينة « خوتور » للعجم وتعهدت كذلك بعدم تحصين ثغر (باطوم) وجعله ثغرا حراً للتجارة . وقد قرر المؤتمر أيضا ان الاصلاحات المزمع اجراؤها فى أرمينيا تعرض على الدول الاوروبية كافة وان حرية بوغازى البسفور والدردانيل تبقى كما قررته معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ومعاهدة لوندره عام ١٨٧١

ولما رأى مندوبو انكلترا ان أعمال المؤتمر قد انتهت وان الساعة آذنت باعلان استيلاء دولتهم على جزيرة (قبرص) أعلن الكونت (دى بيكونسفيلد) ذلك في ٨ يوليو عام ١٨٧٨ لاعضاء المؤتمر فاندهش مندوبو الروسيا غاية الاندهاش وتحقق العالم كله ان انكلترا قد خدعت الدولة العلية اكبر خدعة وانه خير لها أن تعتمد على ألد أعدائها من أن تعتمد على دولة الانكليز . ولم يندهش البرنس (بسمارك) ولا الكونت (اندراشي) من اعلان الكونت (دي بيكونسفيلد) استيلاء انكلترا على قبرص لانهما كانا عالمين بالامر ولم يعارضا فيه لتعهد (بيكونسفيلد) بمساعدتهما في تقرير استيلاء النمسا على (البوسنه والهرسك)

وقد طلب البرنس (غورتشاكوف) مندوب الروسيا قبل انفضاض المؤتمر تقرير الوسائل الفعالة التى تستطيع بها دول اوروبا اجبار تركيا على تنفيذ قرارات مؤتمر برلين واستمرت المناقشة فى هذا الطلب ثلاثة أيام ولكنها انتهت برفضه وخرج البرنس (غورتشاكوف) من مؤتمر برلين منهزما شر هزيمة سياسية

وفي يوم ١٣ يوليو عام ١٨٧٨ أمضي مندوبو المؤتمر على معاهدة برلين وانتهت بذلك جلسات المؤتمر

*
* *

لقد فقدت الدولة العلية في هذا الحرب مالم تفقد مثله فى حرب أخرى .ولم ير العالم من يوم تقسيم بولونيا واتحاد الدول ضد فرنسا عام ١٨١٥ اعتداء على حقوق مملكة مثل ما رأى عام ١٨٧٨ .فان دول اوروبا كلها كانت ضد الدولة العلية وكانت كل واحدة منها تعمل للاستيلاء على شيء من أملاكها . وما ضر الدولة العلية الا حسن ظنها بدولة انكلترا فانها عملت بنصائحها واتبعت آراءها ورفضت مطالب اوروبا فى مؤتمر لاستانة مؤملة مساعدة انكلترا لها وقت قيام الحرب . مع ان مطالب الدول فى مؤتمر الاستانة كانت لا تعد شيأ مذكورا اذا قورنت بقرارات الدول فى مؤتمر برلين . ولو كانت الدولة العلية سمعت أصوات الذين كانوا ينادونها بان دولة انكلترا خداعة في ودها لا تعمل الا لمنفعتها وتضحى كل مودة وكل صداقة في سبيل الوصول الى غاياتها لكانت نجت من المصائب الجسام التي أسقطت عليها بسبب الحرب وبعدها

وان الانسان ليندهش غاية الاندهاش من ان الدولة العلية آمنت بالانكليز بعد انتهاء الحرب وبعد خداعهم لها وأعطتهم (قبرص) مؤملة مساعدتهم لها فى مؤتمر برلين . بل ويزداد اندهاشه واستغرابه ويقف حيران عند ما يعلم أنه بقي للانكليز نفوذ عند الدولة وكلمة مسموعة بعد مؤتمر برلين نفسه . نعم ان نفوذ الانكليز في الاستانة لم يبق طويلا بعد مؤتمر

برلين ولكنهم استطاعوا ان يخدعوا الدولة بأقبح صفة وأسفل وسيلة في مسئلة مصر

ومن غرائب الامور ان الكونت (دي بيكو نسفيلد) لم يخجل من ان يقول امام البرلمان الانكليزى بعد عودته من مؤتمر برلين ان هذا المؤتمر قوى سلطة الدولة العلية وأيد استقلالها وسلامتها

وعندى ان سبب وثوق الدولة العلية وتشبثها بانكلترا وانخداعها لها هو ما كان للدخلاء فيها من السلطة والنفوذ ، وبعبارة أصرح وأجلي ان سبب مصائب الدولة العلية هو انتشار الدخلاء في جسمها . فقد رأى القارئ في خلال هذا الفصل ان رجلا روسي الاصل اسمه الحقيقي (شارل دترو ا) استطاع ان يصل الي رتبة قائد عثماني وان يستلم زمام الجنود العثمانية بدل البطل العثماني المشهور المرحوم (عبد الكريم باشا) . نعم الاصل في اضمحلال الدولة العلية الدخلاء . وكيف تستطيع هذه الدولة الارتقاء في المدنية والحضارة والتقدم الي الامام والانتصار على خصومها ومصالحها بأيدي الدخلاء تدبر كيف يشاؤون وكما تقتضي الغايات والاهواء فقد كانت مصالحها مسلمة في مؤتمر برلين الي (قره تيودوري باشا) اليوناني { ومحمد على باشا } أو { شارل دترو ا) الروسي ؟؟؟

ولاريب ان اكبر عمل يقوم به جلالة السلطان الاعظم { عبد الحميد خان } نحو الدولة والملة انما هو تطهير الدولة من الدخلاء والاعتماد في كل أمور الدولة وفي الجيش قبل كل شيء على العثمانيين الحقيقيين . فكم من عثماني وكم من مسلم كان يقضي الليل والنهار أيام الحرب العثمانية اليونانية قلقا

خائفاوجود دخيل في الجيش يخونه ويعرض بهللانهزام. ولكن (أدهم باشا) ورجاله برهنوا على ان الخليفة الاعظم معتمد في أمور الدولة على أبنائها الحقيقيين الصادقين وأن ليس الدخلاء اليوم من نفوذ في الدولة

رأى القارئ ان الحرب مع الروسيا قامت في عام ١٨٧٧ بسبب بلاد البلقان . فكان من الواجب على أوروبا أن تجعل مرمى أنظارها تأييد الامن والسلام في هذه البلاد وتوطيد أركان السكينة فيها ولكن قرارات مؤتمر برلين ولدت البغضاء والشحناء بين أمم البلقان وبين بعضها وأوجدت أسباب العداوة والكراهة المستمرة . فان رومانيا عادت الروسيا وقابلت لها ظاهر الجن بعد مؤتمر برلين لاعتداء هذه الدولة عليها وعدم اعترافها لها بالجميل على مساعدتها لها بالمال والرجال . واشتدت كذلك كراهة الصرب والجبل الاسود لمملكة النمسا بسبب استيلاء هذه المملكة على البوسنه والهرسك مع طموح أنظار كل من هاتين الامارتين الي الاستيلاء عليهما . وأخذت بلغاريا بعد مؤتمر برلين تستعد لضم الروملي الشرقي اليها وتكوين وحدتها بالرغم عن قرارات الدول ولو أدى ذلك الي الاضطراب والحرب . وأخذت اليونان كذلك تستعد للاستيلاء على تساليا وأبيرا ولو اضطرت الى استعمال القوة واشعال نيران الحرب . فصارت بذلك بلاد البلقان بعد مؤتمر برلين مضطربة الاحوال لا تعرف السلم ولا السلم يعرفها

وقد كانت الروسيا تعمل لسلخ بلاد البلقان من الدولة العلية أملا

منها فى نشر سيطرتها عليها وتسييرها حسب أهوائها ولكنها تحققت بعد مؤتمر برلين أنها أوجدت بنفسها أعداء لها فى البلقان وانه يستحيل عليها استخدام هذه البلاد الناشئة فى سبيل أغراضها. وبلاد بلغاريا نفسها التى بذلت الروسيا أقصى مجهوداتها فى جعلها مستقلة وضم الروملى الشرقى اليها اتبعت طويلا سياسة مخالفة لمقاصد الروسيا حينما كان (ستامبولوف) قابضا على أزمة الوزارة البلغارية

ولقد كان الشأن الاول في حوادث هذه الازمة التى نحن بصددها للبرنس (بسمارك) فانه هو الذى شجع الروسيا فى بادىء الامر وهو الذى كان يرشد النمسا فى سياستها وهو الذي كان له الصوت الأعلى والرأي الاول فى مؤتمر برلين. وبالجملة هو الذي خلق أغلب البلايا التى نزلت بالدولة العلية فى هذه الازمة الشديدة. وما كان عاملا الا لمصلحة بلاده وخير وطنه شأن سائر عظماء الرجال. فانه رأى فى مبدأ الازمة أن الروسيا طامعة فى ضم أملاك تركيا اليها وحل المسئلة الشرقية بابتلاع الدولة العلية ورآها مؤملة مساعدة ألمانيا لها مكافأة على رعايتها لها فى عامي ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ضد النمسا وفرنسا. وسبق أننا بينا ان الروسيا والمانيا والنمسا كانت متفقة اتفاقا ثلاثيا فأدرك البرنس (بسمارك) انه اذا وقف فى وجه الروسيا من بادئ الامر وعارضها في أغراضها أمكن لهذه الدولة أن تتحد مع النمسا وان تضم اليهما فرنسا وتؤلف اتحادا ثلاثيا ضد المانيا. وكان من الامور البديهية عند البرنس (بسمارك) ان مصلحة المانيا تقضي عليها بالمحافظة على استقلال الدولة

العلية لتبقى الى الابد شغلا شاغلا للروسيا ومانعا حصينا أمامها وسببا قويا للمشاكل بينها وبين انكلترا مما يمنع الروسيا من الاعتداء على المانيا . فكانت مصلحة المانيا تحتم على البرنس (بسمارك) أن لا يقف أمام الروسيا فى باديء الامر وان لا يساعدها كل المساعدة ضد الدولة العلية . فلذلك شجع الروسيا عندما قامت ثورة البوسنه والهرسك واضطربت الاحوال فى البلقان . ولكنه رأي أن الروسيا ستسخط عليه ولا محالة بعد انتهاء الحرب لعدم مساعدته لها حسب مرامها ووجد من صالح دولته ايجاد العداوة بين الروسيا والنمسا والاتحاد مع هذه الدولة الاخيرة اتحادا يضمن لالمانيا السلام وعدم اعتداء الروسيا عليها . فأخذ يحرض النمسا بكل الوسائل على الاهتمام بمسائل البلقان ومنافسة الروسيا .ومن حسن حظه ان امبراطور النمسا كان ميالا للاستيلاء على بعض املاك تركيا لتوسيع نطاق مملكته التى استولت المانيا على مقاطعتين منها وانفصلت عنها ايطاليا تماما فوجدت نصائح { بسمارك } لدي سواس النمسا آذانا صاغية واستعدادا تاما لقبولها . وبذلك استطاع بسمارك ايجاد العداوة والبغضاء بين النمسا والروسيا

ولما انتهت الحرب وتحققت أفكار { بسمارك } وصار سواس الروسيا وسواس النمسا على طرفي نقيض فى الاميال والآراء ساعد رجل السياسة الالمانية دولة النمسا على الاستيلاء على البوسنه والهرسك حتي تقرر ذلك في مؤتمر برلين وازداد حنق الروسيا على النمسا . ولم يمض زمن قليل بعد المؤتمر حتي اتحدت النمسا والمانيا وتم فوز (بسمارك) في سياسته الماهرة

وقد رأى (بسمارك) ان مابين ايطاليا وفرنسا من الروابط المتينة والعلائق التاريخية ربما أدي الى عقد تحالف بين هاتين الدولتين يكون بانضمام الروسيا اليه تحزبا دوليا ضد المانيا والنمسا وأن لا سلامة للتحالف الالمانى النمساوي الا بانضمام ايطاليا اليه فأوعز الي سواس فرنسا بالاستيلاء على (تونس) لتقوية السلطة الفرنساوية فى شمال أفريقا . وكان (بسمارك) يعلم ان لسواس فرنسا وقتئذ ميلا شديدا للاستيلاء على البلاد التونسية كما انه كان يعلم علم اليقين ان تقوية نفوذ فرنسا فى تونس يضر بالمصالح الايطالية ضررا عظيما ويوجد عداوة لدودة بين فرنسا وايطاليا .

وما علم سواس فرنسا بان المانيا ترى بعين الرضى تقوية السلطة الفرنساوية في (تونس) حتى قرروا ارسال حملة على البلاد التونسية لفتحها ورفع الحماية عليها . وانتهي الامر برفع حماية فرنسا على هذه البلاد العثمانية التعيسة الحظ وسقوطها فى أيدى دولة أوروبية . وقد بلغ (بسمارك) بهذه الحماية غايته التى كان يسعى اليها حيث استحكمت العداوة بين فرنسا وايطاليا وانضمت ايطاليا الى التحالف الالمانى النمساوي تشفيا من فرنسا وانتقاما منها

ولما تم تشكيل التحالف الثلاثى اجتهد البرنس {بسمارك} فى تحسين علائق دولته مع الدولة الملية وتقوية نفوذها في الاستانة . وهكذا اقتضت مصلحة بلاده أن يعمل ضد الدولة العثمانية ويساعد الدول الاخري على سلبها أملاكها ثم يعود الي التقرب منها بعد ذلك لتمتنع الروسيا عن الاعتداء على المانيا ولكي يزداد نفوذ المانيا فى الشرق وتتقدم فيه تجارتها

ولقد تنبهت الروسيا الي سياسة (بسمارك) وحولت أنظارها نحو فرنسا وعملت على تمكين المودة بينها وبين الجمهورية الفرنسوية حتى لا تكون الكلمة في أوروبا لالمانيا وحدها . ويمكننا أن نقول ان الحجر الاول لأساس التحالف الفرنساوى الروسي قد وضع عقب مؤتمر برلين

أما علاقات الروسيا مع انكلترا فقد تكدر صفاؤها بعد مؤتمر برلين وأيقن سواس الروسيا ان كل حروب دولتهم مع الدولة العلية لا تفيد غير انكلترا أحدا . فان لهذه الدولة مصلحة تبقي مابقي الوجود فى ان الروسيا تحارب تركيا لتضعف كلتاهما فتبقى لها السيادة فى الشرقين الادنى والاقصي كما ان لها مصلحة أبدية في وجود العداوة بين فرنسا والمانيا لتبقي صاحبة الكلمة النافذة في أوروبا

وقد أوجدت عداوة الروسيا لانكلترا وعداوة تركيا لانكلترا بعد مؤتمر برلين تقربا بين الروسيا والدولة العلية وتحسينا عظيما في روابطهما . فان الروسيا تبقي مصافية للدولة العلية مادامت وجهة سياستها التقدم فى الشرق الاقصي والعمل على اسقاط نفوذ انكلترا فى البلاد الآسيوية . وتزداد هذه المصافاة كلما ازدادت العداوة بين الدولة العلية وانكلترا . فان الدولتين الواقفتين امام بعضهما فى كل أزمات المسئلة الشرقية انما هما انكلترا والروسيا حتى صح ان تسمى المسئلة الشرقية بمسئلة الخلاف بين انكلترا والروسيا فى الشرق . فاذا ظهرت انكلترا فى مظهر نصيرة تركيا اشتدت العداوة بين تركيا والروسيا واذا ظهرت انكلترا بمظهر عدوة تركيا تمكنت المحبة بين تركيا والروسيا .

وانى لاأجهل ان الروسيا بعد مؤتمر برلين اجتهدت كثيرا فى ضم الروملي الشرقي الي بلغاريا وتقوية نفـوذها الديني والسياسي فى بلاد البلقان ولكن العالم كله رأى تغير السياسة الروسية نحو الدولة العلية فى هذه السنين الاخيرة وخصوصا فى المسئلة الارمنية وفى مسئلة الحرب بين الدولة العلية واليونان

وانه لايمكننا ان نجزم بان السياسة الروسية تبقى أبد الدهر مصافية للدولة العثمانية . فان الدول كلها تسير سياستها على حسب ماتقتضيه مصالحها ومنافعها . فهذه المانيا حاربت النمسا واخذت منها مقاطعتين عظميتين ثم اتحدت معها. وهذه ايطاليا ثارت ضد النمسا وانفصلت عنها ثم اتحدت معها ونسيت مساعدة فرنسا لها وعادتها بعد ان كانت أول دولة وفية لها. وهذه فرنسا حاربت الروسيا في حرب القرم ثم صارت الآن متحدة معها . وهكذا شأن الدول كلها لاتخدم الا مصالحها ولا تعمل الا لمنافعها فان اتحدت المصلحة اتحدت الدول وان اختلفت افترقت

ومما لامراء فيه ان للروسيا وتركيا مصلحة مشتركة ضد انكلترا ويمكن لـكل انسان ان يجزم بان العلائق بين الدولة العلية والرسيا تبقي ودية حبية مادامت السياسة العثمانية لاتخدم المصالح الانكليزية والاغراض البريطانية . وقد أدرك سواس بريطانيا هذه الحقيقة حتى ذهب بعضهم الى القول بان ثورة الهند الحاضرة مدبرة بالاتفاق بين تركيا والروسيا

ولاريب ان المستقبل سيعرفنا ثمر سياسة مصافاة الروسيا للدولة العلية والخطة التى ستتبعها كل دولة نحو دولة آل عثمان

﴿ مابعد مؤتمر برلين ﴾

ظهر للقارئ من الفصل السابق ان مؤتمر برلين أوجد فى بلاد البلقان أسباب الاضطراب ودواعي الهيجان ونزيد الآن انه لم يمض زمن يسير بعد المؤتمر حتى نزعت كل أمة من أمم البلقان الى تكدير السلم بالمطالبة باشياء جديدة . وقد عرفت هذه الامم ان أوروبا مساعدة لها في كل أمر فازدادت لذلك أطماعها وكبرت آمالها

وقد رأي القارئ ان مؤتمر برلين قرر تأسيس ولاية جديدة فى جنوب بلغاريا تسمي بالروملي الشرقى وتكون تابعة للدولة العلية مباشرة. وقرر احتلال الجنود الروسية لهذه الولاية مع امارة بلغاريا مدة تسعة أشهر . ولما كانت الوحدة الدينية هى سبب تداخل الروسيا فى بلاد البلقان وهى الرابطة القوية المتينة التي تربط الروسيين بالبلغاريين عمل الروسيون مدة احتلالهم لاقليم الروملي الشرقى على إهاجة خواطر أهله ضد الدولة العلية وحثهم على الاتحاد مع بلغاريا لتكوين امارة واحدة. وبالجملة زرعوا بأيديهم بذور الهيجان والثورة مؤملين أنهم اذا غادروا الاقليم وجاءت الجنود التركية لاحتلال هذه البلاد العثمانية فوجدتها ثائرة مضطربة مشتعلة نيران الفتنة في كل أنحائها اضطرت أوروبا للتداخل في الامر وتكليف الروسيا باحتلال اقليم الروملي الشرقي مرة ثانية أو اعلان انضمامه لامارة بلغاريا

ولما اقترب ميعاد انجلاء العساكر الروسية من بلاد الروملي الشرقى أرسلت الروسيا الى الدول الاوربية مذكرة استلفتت فيها أنظارها الي

أن رجوع العساكر العثمانية الى هذا الاقليم قبل تنظيمه واصلاحه يكون سببا لايجاد القلاقل والاضطرابات وعرضت عليها فى هذه المذكرة مد أجل اللجنة الدولية المكلفة بتنظيم بلغاريا والروملي الشرقى سنة كاملة بعد انقضاء الاجل الاول وارسال جيش مختلط أوروبى لاحتلال الروملى الشرقى هذه السنة ، وكانت الروسيا تعلم ان دول أوروبا لا تقبل ارسال جنودها الي بلاد الروملى الشرقى وصرف المصاريف الطائلة بغير نفع لها فكانت تقصد فى الحقيقة بمذكرتها استمرار احتلال جنودها لهذا الاقليم سنة كاملة بعد التسعة أشهر الاولى. ولكن الباب العالى أجاب على هذه المذكرة بأن استمرار احتلال الجنود الروسية أو الاوربية لاقليم الروملي الشرقى من شأنه اضعاف سلطة الدولة العلية فى نظر أهالى هذه البلاد والاخلال بقرارات مؤتمر برلين وتشجيع أمم البلقان على مخالفة هذه القرارات الدولية مما تكون نتيجته اشتعال نار الاضطرابات فى بلاد البلقان والاضرار بالسلام العام فى أوروبا . وهى ملاحظات حقة عادلة أحلتها بعض الدول محلها من القبول . ولكي يظهر الباب العالي اعتداله أعلن الدول الاوربية بأنه عازم على تعيين « أليكو باشا » واليا على اقليم الروملى الشرقى وهو رجل بلغارى الاصل ارثوذكسي الدين

ولكن بذور السوء والبؤس قد ألقيت فى أرض خصبة في العداوة للدولة العلية فلم تمهل العالم الا قليلا حتى أنتجت الشرور وقام أهلها في وجه صاحب السيادة الشرعية عليهم

وما تعين « أليكو باشا » واليا على الروملي الشرقى حتي أقبلت عليه

المصاعب والمشاكل — وكان ولاشك يسر في الباطن بها ويقبل هو كذلك عليها — فطلب منه الاهالي المسيحيون عدم رفع الراية العثمانية على قلاع الاقليم وأن لا يضع على رأسه الطربوش أبداً حتي في الاحتفالات الرسمية

فلما رأت الدول ذلك سألت الروسيا أن تأمر أهالى الروملي الشرقي بالركون الى السكينة والا نصياع لقرارات مؤتمر برلين فأجابت الروسيا سؤال الدول ولكنها اشترطت عدم رجوع الجنود العثمانية الي هذه البلاد . فطلبت أوروبا ذلك من الدولة العلية وهددتها بعدم مخالفة طلبها . وهكذا شأن أوروبا مع الدولة العلية تسمح لرعاياها المسيحيين باتيان كل أمر فظيع وكل مخالفة ضد السلطة الشرعية وعند ماتريد الدولة استعمال سلطتها الشرعية وحقوقها المعترفة بها أوروبا نفسها تمنعها كل المنع وتهددها بسائر أنواع التهديد !!!

ويدرك القاريء من نفسه ان اشارة الروسيا علي أهالى الروملي الشرقي بالخلود الى السكينة لم تكن الا اشارة قضت بها الحوادث والظروف والا فسياسة الروسيا في بلاد البلقان بعد مؤتمر برلين بقيت واحدة ثابتة ترمى الي ضم الروملي الشرقي لامارة البلغار

*
* *

وقد سلمت الدولة العلية اتباعا لقرارات مؤتمر برلين قلعتي (بوز) و(بودجورتزا) من بلاد البانيا لامارة الجبل الاسود ولكن حكومة الجبل الاسود لم ترض بنصيبها الذى قرره لها مؤتمر برلين بل صرحت على لسان جريدتها الشبيهة بالرسمية « جلاس تسرناجورسا » انها تنتظر

الفرص المناسبة للاستيلاء على ماتراه ضروريا ولازما لامارتها

أما الالبانيون فقد أحدث ترك الدولة العلية لموقعي « بوز » و(بود جورتزا)تأثيرا هائلا عندهم وأهاجهم ضدحكومةالجبل الاسود فقاموا ضدها وأعلنوا العداء لها ورفعوا راية العصيان في وجهها ولم يمض الا زمن يسير حتي اشتعلت نيران المعارك الدموية بين جنود الجبل الاسود وبين أبطال ألبانيا . وكانت الدولة العلية قدسحبت جنودها من البلاد الالبانية المتنازل عنها للجبل الاسود فلما هاج أهلها ادعت حكومة الجبل الاسود ان الدولة العلية هى المحرضة لهم وانها أخلت البلاد المتنازل عنها قبل الميعاد .ولكن الحقيقة التى لامراء فيها هي أن الالبانيين قوم شديدو التمسك بعري الولاء للدولة العلية ولا يرضيهم أن يكونوا تحت سلطة حكومة أخري

ولما خابت حكومة الجبل الاسودفى قمع ثورةالالبانيين استنجدت باوروبا فأرسلت الدول الاوربية للدولة العلية بلاغا سألتها فيه احتلال البلاد المتنازل عنها للجبل الاسود وقمع الثورة فيها ثم تسليمها بعد ذلك الي امارة الجبل الاسود ... فأهملت الدولة العلية طلب الدول وتركت الالبانيين يدافعون عن بلادهم أشرف دفاع ويطردون جنود الجبل الاسود منها . وقدكانت انكلترا في هذه المسئلة اشد الدول تظاهرا بالعداوة لتركيا فعرضت على الدول الاوروبية اعطاء ثغر (دولسينيو) لامارة الجبل الاسود . ولكن الدولة العلية صممت على المعارضة واحتلت أعالى مدينة (دولسينيو) . فلما رأت ذلك انكلترا عرضت

على الدول الاوروبية عمل مظاهرة بحرية فى المياه العثمانية تهديدا للدولةالعلية

وفى ٣ أغسطس عام ١٨٨٠ أرسلت الدول الاوروبية بلاغا للدولة العلية طلبت منها فيه العمل على اعطاء ثغر { دولسينيو } للجبل الاسود في مدة ثلاثة أسابيع أو الاشتراك مع الدول في عمل مظاهرة بحرية أمام ثغر (دولسينيو) لارهاب اهله واجبارهم على التسليم . فاجاب الباب العالى فى ١٩ أغسطس بان الدولة العليـة لاتستطيع اعطاء ثغر (دولسينيو) للجبل الاسود الا اذا بقيت مالكة لمدينتي (دينوش) و { جرودا } وبانها تطلب بعدذلك أجلا أطول من ثلاثة أسابيع لتسليم (دولسينيو) للجبل الاسود

وقد أشيع وقتئذ أن الصرب تحالفت مع بلغاريا تحالفا هجوميا دفاعيا فاصدر جلالة السلطان أمره بجمع الجنود والاستعداد للطوارئ

وكانت الدولة أرسلت (رضا باشا) على رأس فرق عسكرية الى (دولسينيو) لاحتلالها فظن أهلها انه جاء لتسليمها الى الجبل الاسود فقاوموه مقاومة عنيفة حتي اضطر الي الاقامة هو وجنوده بالقرب من (دولسينيو) وبقي منتظراً أوامر الدولة العلية

وفي هذا الاثناء أعلن اللورد غرانفيل في مجلس العموم الانكليزى بتاريخ ٣٠ أغسطس عام ١٨٨٠ أن الدول الاوروبية وافقت انكلترا على عمل مظاهرة بحرية أمام ثغر (دولسينيو) ووضع أساطيلها تحت قيادة الاميرال الانكليزى (سيمور) . فلما علمت الحكومة العثمانيـة بذلك

أرسلت فى ١٥ سبتمبر من السنة نفسها منشورا لسفرائها لدى الدول الاوروبية أمرتهم فيه بابلاغ الحكومات الاوروبية ان اعطاء (دولسينيو) بالقوة الي الجبل الاسود يكون سببا لهيجان عظيم واضطراب عام فى بلاد البلقان وان الدولة العلية لاتقبل التنازل عن (دولسينيو) الا بالشروط الآتية : أولا عدم اجراء مظاهرة بحرية . ثانيا المحافظة على أرواح وأموال المسلمين والمسيحيين القاطنين فى (دولسينيو) . ثالثا بقاء (دينوش) و (جرودا) في يد الدولة العلية . رابعا عدم اعطاء امارة الجبل الاسود شيأ من أملاك الدولة فى المستقبل

وفي الوقت نفسه أرسل أهالى (دولسينيو) الي قناصل الدول بها خطابا مؤثرا للغاية احتجوا فيه على اعطاء مدينتهم للجبل الاسود وقالوا فيه « واننا عازمون على المقاومة أشد المقاومة ولو دمرت مدينتنا ومتنا جميعاً عن آخرنا . ومع ذلك فاننا لا نزال نؤمل ان الخلاف لا يقع لما نعلمه من ان دول أوروبا تعمل لمصلحة الامم وخيرها لا لدمارها وخرابها »

وقد أحدث هذا الخطاب عند سائر المسلمين فى تركيا تأثيرا شديدا وهاجت النفوس والضمائر هياجا كبيرا واندهش الكل من ان أوروبا لاتكتفى باخراج المسيحيين من تحت سلطة المسلمين بل تعمل أيضاً لاخراج المسلمين من تحت سلطة دولتهم الشرعية ووضعهم بالقوة والقهر وبالرغم عنهم تحت السلطة المسيحية وتحت سلطة أمم البلقان أى تحت سلطة ألد أعدائهم

وقد انتهزت انكلترا فرصة وقوع الخلاف بين أوروبا وبين الدولة

العلية وطلبت من الدول ان تسمح لها باحتـلال ثغور تركيا ومحاصرة الدردانيل . وكانت الجرائد الانكليزية تطعن وقتئذ على جلالة مولانا السلطان الاعظم (عبد الحميد خان) طعنا قبيحاو تطلب من أوروبا ازاله عن عرشه ملكه الجليل . وقد اجتهدت ألمـانيا فى حل المشكلة حلا سلميا واعادة السكينة والسلام الي ربوع البلقان فنصحت الدولة العلية بقبول اعطاء (دولسينيو) للجبل الاسود وتسليمها لحكومته فى أقرب وقت حتي لاتجد انكلترا حجة لخلق المشاكل وايجاد القلاقل .فاضطرت الدولة العلية للعمل بنصيحة ألمـانيا لانفرادها وحدها ضد أوروبا كلها وعدم وجود مساعد لها بين الدول الاوروبية وأعلنت أوروبا فى ١٢ اكتوبر عام ١٨٨٠ بانها مستعدة للاتفاق مع امارة الجبل الاسود على اعطائها (دولسينيو) . وانتهى الامر باستيلاء امارة الجبل الاسود على هذا الثغر في ٢٦ نوفمبر عام ١٨٨٠

* *
*

ماانتهى مؤتمر برلين حتى خابرت اليونان الحكومة العثمانية في أمر تحديد تخوم جديدة بين الدولتين بمقتضى قرارات مؤتمر برلين فرضيت الدولة العلية بالتنازل لليونان عن ثلث خليج (فولو) ورفضت اعطاءها يانينا ولاريسا وفولو . ونظراً لطمع اليونان في الاستيلاء على تسـاليا وابيرا لم تتم المخابرات بين الدولتين على شيء واستنجدت اليونان بأوروبا لمساعدتها ونصرتها . فأرسـل اللورد سالسبرى وزير خارجية انـكلترا مذكرة رسمية للدول الاوروبيـة عرض عليها فيها عقـد لجنة دولية

للفصل بين تركيا واليونان

وفي ذلك الحين تعين المسيو (جوشن) سفيراً لانكلترا لدي الباب العالي وكلف من قبل حكومته بمساعدة اليونان على أخذ تساليا وابيرا من الدولة العلية

وقد أجابت الدول الاوروبية طلب انكلترا وأرسلت بلاغا للدولة العلية أخبرتها فيه بانها قررت عقد لجنة دولية ببرلين فى شهر يونيو عام ١٨٨٠ لفصل الخلاف بينها وبين اليوناز

وفي شهر يونيو اجتمعت اللجنة الدولية ببرلين كما اتفقت الدول وكان اجتماعها تحت رئاسة البرنس (دى هوهنلوه) ولم يقبل فيها مندوبو تركيا ولا مندوبو اليونان . وقدقررت اعطاءجزء عظيم من تساليا وابيرا مع (يانينا) و (متزوفو) و (لاريسا) لليونان وقدم سفراء الدول فى الاستانة وفي أثينا فى ١٥ يوليو سنة ١٨٨٠ مذكرة للحكومة العثمانية والحكومة اليونانية متضمنة قراراللجنة الدولية ببرلين . فقبلته حكومة اليونان بمزيد الامتنان ورفعت شكرها للدول الاوروبية . ولكن الباب العالي رفض هذا القرار كل الرفض وأبان للدول الاوروبية ان تنازل الدولة العلية لليونان عن هذه المدائن والمواقع يجعل لليونان طريقا على الدولة العلية ويسهل لها الاعتداء على البلاد التركية فى كل وقت فضلا عن ان سكان هذه البلاد التى قررت اللجنة الدولية ببرلين اعطاءها لليونان أغلبهم من المسلمين

وقد ألحت الدول الاوروبية مرة ثانية على الدوله العلية بقبول قرار

اللجنة الدولية ببرلين ولكن الدولة بقيت على خطتها الاولي ورفضت التنازل عن يانينا ومتزوفو ولاريسا

اما حكومة اليونان فقد اهتمت بتجنيد جنودها وأظهرت استعدادها لمحاربة الدولة العلية وصرحت على لسان جرائدها وخطبائها بأنها تنفذ قرار اللجنة الدولية ببرلين بالقوة ان لم تستطع أوروبا اجبار الدولة العلية على قبوله . ولكن الدولة العلية كانت تستعد للحرب أحسن استعداد ولم تهمل شيئاً من معدات القتال . وكانت اليونان تؤمل مساعدة أوروبا لها ضد الدولة العلية اذا قامت الحرب بينهما وكان لها الحق أن تؤمل هذا الامل لانها وجدت من أوروبا المساعدة التامة فى كل وقت وفى كل أمر . غير ان الدول الاوروبية كانت تأبى قيام الحرب بين الدولة العلية واليونان خوفا منها على دمار اليونان وخرابها ومنعاً لاشتعال نيران الحرب في بلاد البلقان . فلذلك اجتهدت فى فصل الخلاف بين اليونان وتركيا واقناع الباب العالي بضرورة قبول ماقررته وما تقرره

وقد عرضت فرنسا على الدول الاوروبية وعلى تركيا واليونان تحكيم دولة من الدول لفصل الخلاف بين الحكومة العثمانية والحكومة اليونانية بصفة نهائية ولكن الدولة العلية رفضت هذا الطلب . وكان اليونانيون يعملون وقتئذ كل مافى وسعهم لاعلان الحرب على تركيا فقد عرضت حكومتهم على مجلس نوابهم مشروع عقد سلفة لشراء الاسلحة اللازمة للجيش ولاتمام الاستعدادات الحربية . وأقر مجلس النواب اليونانى على هذا المشروع بالاجماع

وفى ١٤ يناير عام ١٨٨١ عرضت الحكومة العثمانيـة على الدول الاوربية ان يلغي قرار اللجنة الدولية ببرلين وان تعقد لجنة دولية جديدة بالاستانة يحضرها مندوبو الدولة العلية ولا يحضرها مـندوبو اليونان ويكون قرارها نهائيا . فبادرت الدول الاوروبية بالموافقة على طلب الدولة العلية وصارت الدولة بذلك ملزمة بتنفيذ قرار اللجنة التى طلبت عقدها بالاستانة

ولما عقـدت اللجنة الدولية بالاستانة طلب بعض الاعضاء التنازل لليونان عن كريد وجزء من تساليا وطلب البعض الآخر التنازل عن تساليا كلها وجزء من ابيرا . وفي أثناء مناقشة اللجنة الدوليـة كان اليونانيون يسلحون جنودهم وينظمون جيشهم ويتممون معداتهم الحربية استعدادا لمحاربة تركيا حـتى ان المسيو (تريكوبيس) رئيس حزب المعارضـين فى مجلس النواب اليونانى قال امام المجلس « بأن الحـكومة اليونانية متفقة مع حزب المعارضين على أن الحرب مـع تركيا لامناص منهـا » . وقد أجابه المسيو (كوموندروس)رئيس الوزارة اليونانية وقتئذ« انى لاأقول بان الحرب لامناص منها ولـكنى أقـول بانها ربمـا كانت قريبة الوقوع جدا »

وقد استمرت اللجنة الدولية فى مناقشاتها . ولكن مندوبى الدول لم يستطيعوا الاتفاق مع مندوبى تركيا فاتفقوا على وضع قرار فيما بينهم يقدم لتركيا بصفة انذار نهائى من دول أوروبا . وأخذ مندوبو أوروبا يتناقشون وحـدهم حـتى اتفقوا في آخر الامر على اعطاء تساليا كلها وأبيرا لغاية نهر « أريا » لليونان وهدم قلاع « بريفيزا » التى تقرر تركها للدولة

العلية . وأبلغ سفراء الدول هذا القرار للحكومة العثمانية وللحكومة اليونانية فقبلته الحكومة اليونانية وأبلغت الدول ذلك فى ١٢ ابريل عام ١٨٨١ وسألتها التعجيل بتسليمها البلاد المتنازل لها عنها . أما الحكومة العثمانية فانها لما رأت اجماع الدول واتفاقها كلها ضدها أبلغتها قبولها لقرار اللجنة الدولية بالاستانة وسألتها قبول الشروط الآتية : أولا عدم تجنيد المسلمين القاطنين بالبلاد المتنازل عنها لليونان في العسكرية اليونانية مادامت الدولة العلية لا تجند اليونانيين المقيمين ببلادها فى عسكريتها . ثانياً هدم قلاع مدينة « فولو » . ثالثاً جعل محاكمة اليونانيين القاطنين بتركيا امام محاكمها العادية

ولكن دول أوروبا بالغت فى تعضيدها لليونان واعتدائها على الدولة العلية ورفضت قبول هذه الشروط العادلة وأمضت كلها فى ٢٢ مايو على اتفاقية بخصوص اجبار الدولة العلية علي تنفيذ قرار اللجنة الدولية فاضطرت الدولة العلية الي مخابرة حكومة اليونان والاتفاق معها علي تنفيذ قرار اللجنة الدولية وعلى خروج الجنود التركية من البلاد المتنازل عنها لليونان فى مدة لا تزيد عن خمسة أشهر

*
* *

وقد اشتغلت النمسا بعد موتمر برلين بالاستعداد لاحتلال مقاطعتى البوسنه والهرسك فأرسلت جيشاً جراراً اليهما تحت قيادة الجنرال (فيليبوفيتش) وأصدرت لأهالي البوسنه والهرسك منشورا أبانت لهم فيه أن الدول الاوروبية كلفتها باحتلال بلادهم لتوطيد السكينة فيها واسعادها

وان جلالة السلطان أنابهما عنه في تنظيم أمورهم — وهو مايخالف الحقيقة بالمرة وقد ذكرت النمساذلك كذبا لتخدع المسلمين من أهالى البوسنه والهرسك — وانها (أى النمسا) لا تميز بين الديانات بل جل مقاصدها نشر لواء المساواة والعدل والحرية بين الاهالى

وبالرغم عما جاء فى هذا المنشور فان أهالي البوسنه والهرسك من المسلمين قاموا أجمعين عند ماعلموا باقتراب النمساويين من بلادهم لاحتلالها واستعدوا للدفاع عن وطنهم الدفاع الواجب وانضم اليهم الارثوذكسيون — أي الذين يدينون بدين الروسيا ويخلصون الحب لها — واتخذت مدينة (بوسنه سراى) أو (سراى فو) ومدينة (موستار) مركزا للدفاع عن بلاد البوسنه والهرسك

وقد دافع أهالى البوسنه والهرسك عن بلادهم دفاع الابطال وقاوموا جنود النمسا مقاومة عنيفة وأذاقوهم مر القتال حتى اضطر قواد الجيش النمساوى للرجوع بالجيش الى الوراء فى مواقع كثيرة واضطرت الحكومة النمساوية الى ارسال جنود عديدة لتزداد القوة بهم ويستطيع الجيش النمساوي الانتصار على أهالي البوسنه والهرسك . وكان على رأس المسلمين من أهالى البوسنه في هذه الحركة الوطنية رجل شديد العزم والحزم اسمه (حاجي لودچا) قاد الجموع ضد النمساويين أحسن قيادة واستحق بما أتاه شكر أمته ووطنه وثناء التاريخ

وفي ١٠ أغسطس عام ١٨٧٨ سقطت مدينة (بوسنه سراي) في أيدي النمساويين وهذا اليوم كان يوما مشهودا فقدفيه النمساويون عددا

عديدا من جنودهم ورأوا أمامهم البنات والنساء تدافع عن البوسنه في مقدمة الرجال فهكذا تكون الوطنيـة الحقة وهكذا يكون الذود عن الاوطان . وقد مات فى هذا اليوم العبوس كثيرون من أهالى البوسـنه وذهبوا شهداء الوطنية الحقة والاخلاص الملي

ولم تثبط هممم أهالي البوسنه والهرسـك بسقوط عاصمة البوسـنه فى أيدي النمساويين بل استمروا يقاتلون قتال الابطال واستمرت الثورة ضد النمساويين فى شمال البوسنه وفى بلاد الهرسك كلها . وقد انهزم النمساويون أمام حماة البوسنه والهرسك مرة بعد أخري ولاقوا في هـذه المعارك الدموية من الاتعاب والمصاعب وما لايجده جيش فى حرب كبيرة مع دولة عظيمة . وفى آخر شهر أغسطس عام ١٨٧٨ اضطر الجنرال (سابارى) الي ترك ما كان استولى عليه بين نهر (درينا)و (ساڤب) بعد أن خسر جيشه الخسائر الجمة وفقد العدد الوافر من رجاله . وفى ١٠ سبتمبر انسحب الجنرال (زاش) هو وجنوده من موقع « بيهاتش » فرارا من هجمات أهالى البوسنه والهرسك الابطال

ولم ينتصر الجيش النمساوى بعـد سقوط (بوسنه سراى) الا عند ماازداد وعـدده بوفود فرق جديدة من النمسا . وعندئذ استولى على مدينة « تريبينيه » ومدينة « زفور نيك » وأخذ يتقدم شيئاً فشيئاً حتى قمع الثورة واستولى على البلاد كلها ولكن بعد ان أذاقـه أهالي البوسنه والهرسـك أشـد العـذاب وبرهنوا على أنهـم رجال لايستسلمون للعدو ولا يسلمون وطنهم وشرفهم للاجنبي عن طيب خاطر

وقدكان المجريون من أول الازمة لآخرها مع الدولة العلية وكانت مصلحتهم تقضى عليهم بذلك. فان استيلاء النمسا على البوسنه والهرسك يزيد من عدد السلافيين فى المملكة النمساوية ويضر بنفوذ المجر وكذلك ازدياد نفوذ الروسيا فى بلاد البلقان من شأنه أن يجعل المجر في قلق مستمر على حياتها ووجودها السياسي فان الروسيا هي أول وأكبر عدو للمجر وهي التي قمت الثورة المجرية عام ١٨٤٩ بعد ان خابت النمسا في قمعها

واذا أضفنا الى اشتراك المجر فى المصلحة مع الدولة العلية اخلاص أهالي هذه البلاد للاتراك واعترافهم بالجميل للدولة التي استقبلت ثوارهم عام ١٨٤٩ أحسن استقبال واكرمت مثواهم ورفضت تسليمهم للنمسا كل الرفض فهمنا كنه تظاهر المجريين بمحبة الدولة العلية واظهار أميالهم نحوها بكل قوة. ومما يخلد ذكره أبد الدهر ان النمسا أرسلت مع الجنود النمساوية التى بعثتها للاستيلاء على البوسنه والهرسك أورطة مجرية وأصدرت اليها الاوامر بطرد جنود الاتراك من هذه البلاد فلما وصلت الاورطة ووجدت الجنود العثمانية — وهم الذين بقوا بعد اخلاء الدولة للبوسنه والهرسك — تذكرت ان هؤلاء الجنود ينتسبون لهذه الامة التركية الشريفة وانهم جنود الدولة التى أحسنت الى أبناء وطنها فألقت الاورطة كلها السلاح وأبت اطلاق الرصاص على الاتراك قائلة بصوت واحد « اننا لا نطلق الرصاص على أصدقائنا ». فاغتاظ الامبراطور « فرنسوا جوزيف » من هذا العمل ومن هذه المخالفة العسكرية وأمر بضرب عشر الاورطة بالرصاص اذا استمرت على مخالفتها فابلغ الامر

للجنود المجرية ولـكنها فضلت اظهار اعترافها بالجميل للعثمانيين عن الطاعة لاوامر الامبراطور

وقد استحكم الخلاف بين النمسا والمجر وظهر ظهور الشمس في رابعة النهار عند ماطلبت النمسا من الوزارة المجرية الاشتراك معها فى تقرير مبلغ ٥٥ مليونا من الفلورينو «أى نحو الخمسة ملايين من الجنيهات» لمصاريف الحملة النمساوية ضد البوسنه والهرسك بعد ان صرف على هذه الحملة مبلغ ٨٢ مليونا من الفلورينو . فهاج المجريون وأخذت جرائدهم تطعن على النمسا وتوجه اليها الملام والتعنيف حتى اضطرت الوزارة المجرية — التى كان يرأسها وقتئذ المسيو «تيسا» الشهير — الى تقديم استعفائها ولما رأى الامبراطور «فرنسوا جوزيف» ان الموقف حرج سأل المسيو «تيسا» أن يبقى فى منصبه هو وزملاؤه حتي يجد من يخلفهم وأخذ يستميل الحزب الاهلي فى المجر نحوه ويرجوه عدم احداث قلاقل فى البلاد . ولكى يسهل الامبراطور على المجريين قبول طلب الحكومة النمساوية بشأن مصاريف الحملة على البوسنه والهرسك قرر جعلها عشرين مليونا من الفلورينو بدلا عن خمسة وخمسين . وبذلك انتهى الخلاف بين النمسا والمجر ظاهريا . ولكن احتلال النمسا للبوسنه والهرسك أبقى في نفوس المجريين كراهة شديدة للنمساويين فوق الكراهة الاصلية الكامنة فى نفوسهم

وقد احتلت النمسا فى ٨ ستمبر عام ١٨٧٩ اقليم «نوفى بازار» بالاشتراك مع الجنود العثمانية — ولم يستمر احتلال النمسا له زمنا طويلا

— وكان لهذا الاحتلال شأن مهم لان « نوفى بازار » على طريق سالونيك وبواسطتها كان يسهل للنمساويين ان يبلغوا الاستانة قبل الروسيين اذا قامت الحرب بين الروسيا والدولة العلية

والذي أوعز للنمسا باحتلال (نوفى بازار) هو البرنس (بسمارك) فانه لما رأي ان الروسيا أظهرت العداء لالمانيا واتهمتها بنكران الجميل عمل على الاتحاد مع النمسا ضدها كما قدمنا ووجه عنايته لاضعاف نفوذ الروسيا في بلاد البلقان وجعل نفوذ النمسا فيها قويا عظيما لتزداد المداوة بين هذه الدولة وبين الروسيا وتبقى بذلك النمسا مضطرة دائما الى المحافظة على تحالفها مع ألمانيا . وكان يقصد البرنس { بسمارك } بتقوية نفوذ النمسا فى بلاد البلقان غير ما ذكرنا ايجاد الشقاق بين النمسا والمجر وتحويل أنظار النمسا بهذا الشقاق وبمصالحها في البلقان عن البلاد الالمانية لتبقى دائما تحت سلطة المانيا وفى دائرة نفوذها

وقد توصل البرنس { بسمارك } بسياسته هذه الي توطيد العلائق والروابط بين رومانيا والنمسا وسهل عليه ذلك لحقد رومانيا على الروسيا بعد الحرب الروسية التركية . ونجح كذلك فى تحسين علائق الصرب مع النمسا وادخال بلغاريا نفسها فى دائرة نفوذ النمسا

وبذلك أفلح البرنس « بسمارك » في سياسته الماهرة وبلغ متمناه فازدادت العداوة بين النمسا والروسيا وتقربت من النمسا امارات البلقان — التى أوجدتها الروسيا بمالها ورجالها — واشتغلت النمسا ببلاد البلقان وبمشاكلها مع المجر عن البلاد الالمانية . ولما رأى البرنس « بسمارك »

ثمار سياسته سافر الى فينا حيث استقبل فيها استقبالا عظيما واحتفل بهسواسهاوأهلها احتفالا شائقاً — ولا ينسي القاريء الكريم ان «بسمارك» هو سبب مصائب النمسا وأصل انحلالها . ولكن الامم النازلة فى مهواة التقهقر والانحطاط من شأنها النسيان — وأعلن وقتئذ في كل انحاء العالم ان النمسا تحالفت مع المانيا تحالفاً دفاعياً هجومياً وان سياسة « بسمارك » توجت بالنجاح والفلاح

*
* *

أسلفنا ان البرنس « بسمارك » بذل جهده فى ابعاد ايطاليا عن فرنسا وايجاد الشحناء والبغضاء بينهما وأظهر لفرنسا انه مستعدلمساعدتها على رفع حمايتها على البلاد التونسية . ولما كان سواس فرنسا ميالين لتقوية نفوذ بلادهم في تونس فقد تلقوا أقوال البرنس « بسمارك » بغاية الارتياح وانتظروا الفرصة المناسبة لارسال حملة على البلاد التونسية وقد كانت ثلاثة أخماس ديون الامارة التونسية لفرنسا والخمسان الآخران لايطاليا وانكلترا مما جعل لفرنسا مركزا خاصا بها فى تونس . ولم يكن لها منافس بين الدول غير ايطاليا التى كانت تنصح (باى تونس) على الدوام بمعاكسة فرنسا وعرقلة مساعيها وكان الايطاليون فى البلاد التونسية يجارون الفرنساويين فى كل عمل ويجتهدون في سبقهم الى الربح والمكسب

وقد حدث ان بعض قبائل رحالة اعتدت علي حدود الجزائر فانتهزت فرنسا هذه الفرصة لتحقيق غاياتها وتنفيذ مشروعها وقررت ارسال حملة فرنساوية على الحدود التونسية

فلما علمت الدولة العلية بذلك أرسلت مذكرة لفرنسا وللدول الاوربية بتاريخ ٢٧ ابريل عام ١٨٨١ احتجت فيها علي عمل فرنسا وأبانت ان البلاد التونسية هى جزأ من المملكة العثمانية وان الاعتداء عليها يعتبر اعتـداء علي الدولة نفسها

فأجاب المسيو « بارتلمي سانت هيلير » وزير خارجية فرنسا على مذكرة الدولة العلية بمنشور أرسله في ٩ مايو عام ١٨٨١ الى سفراء فرنسا لدي الدول الاوربية أوضح فيه الاسباب التي حملت فرنسا على ارسال تجريدة الى البلاد التونسية وأبان الاعتبارات التي تجعل البلاد التونسية فى نظر فرنسا مستقلة تمام الاستقلال عن الدولة العلية . وهذه الاعتبارات هى ان علاقة تونس مع الدولة العلية ليست الا علاقة دينية محضة وان امارة تونس عقدت مع دول أوروبا جملة معاهدات بدون توسط الدولة العلية أو تصديقها عليها . فقد عقدت مع فرنسا معاهدة فى ٨ أغسطس عام ١٨٣٠ تعهدت فيها بالغاء الرقيق وعقـدت مع انكلترا نحو عشرين معاهـدة وعقدت مع ايطاليا معاهدة في عام ١٨٦٨ بدون أن تحتاج في كل هـذه المعاهدات الى أمر أو الى توسط من الدولة العلية . وأضاف على ذلك وزير خارجية فرنسا ان جملة حروب قامت بين الامارة التونسية وبين بلاد أخري بدون تداخل تركيا . ففى عام ١٨٣٣ حاربت مملكة « ساردينيا » ولاية تونس وكانت علائقها مع الدولة العلية جيدة حسـنة ولم يتكدر صفاؤها بحربها مع تونس . وقبل ذلك في عام ١٨١٩ قرر مؤتمر (راكس لاشابيل) اجبار تونس على منع لصوصـية البحار بدون توسط الدولة العلية

واستند كذلك وزير خارجية فرنسا على استقلال تونس بأن فرنسا استقبلت في عام ١٨٤٧ (أحمد) باي تونس كما تستقبل الملوك والامراء وبغير توسط سفراء الدولة العلية وبأن دستور الولاية التونسية المشتمل على ١١٤ مادة لم يذكر فيه حرف واحد عن تابعية هذه الولاية للدولة العلية

وختم وزير خارجية فرنسا منشوره بقوله « وان أغلب دول أوروبا موافقة على ارسال حملة فرنسوية الى البلاد التونسية » . ولاشك انه كان يشير الى المانيا والنمسا

ولكن هذه الاعتبارات التي أتى عليها وزير فرنسا كلها تسقط أمام أمر واحد وهو أن باى تونس أرسل فى آخر عام ١٨٦٤ (خير الدين باشا) الى الاستانة ليستصدر فرمانا شاهانيا بتعيينه أميرا على البلاد التونسية وصدر الفرمان بالفعل بمقتضي طلب باى تونس نفسه . وفى ٢٥ اكتوبر عام ١٨٧١ صدر الفرمان السلطاني بتعيين (محمد الصادق) باي تونس وقرأه (خير الدين باشا) فى (الباردو) يوم ١٨ نوفمبر عام ١٨٧١ في حفلة حافلة فاذا سلمنا بأن البلاد التونسية كانت مستقلة تمام الاستقلال قبل عام ١٨٦٤ وعام ١٨٧١ فلا يمكن لاحد ما أن يعتبرها مستقلة من الدولة العلية بعد ارتباطها بها هذا الارتباط القاضي بصدور فرمان شاهانى لتولية الباى عند موت سلفه . وكيف يستطيع سواس أوروبا أن ينكروا تابعية تونس للدولة العلية وقد رأينا الدول الاوروبية تضع حمايتها على بعض بلاد افريقية بمجرد عقد معاهدة حبية بين أمراء هذه البلاد وبينها ؟

وقد طلبت الدولة العلية من الدول الاوروبية أن تتداخل فى الامر وتفصل الخلاف الواقع بينها و بين فرنسا ولكن سياسة الدول كانت قيادتها بأيدى البرنس (بسمارك) وكانت الروسيا ميالة لفرنسا وعاملة على التقرب منها . فلم تجد الدولة العلية نصيراً ينصرها وينصر الحق ولما أرادت أن ترسل سفنها الى تونس هددتها فرنسا باعلان الحرب عليها اذا أرسلتها . ومن البديهي أنه كان يصعب على الدولة العلية بعد حربها مع الروسيا أن تحارب فرنسا وتفتح بابا جديداً لتداخل الدول فى شؤونها والاضرار بمصالحها . فلم تستطع لهذا السبب أن تحتج على عمل فرنسا فى تونس احتجاجا فعليا بل كان كل مافى استطاعتها أن تحتج احتجاجا قوليا

ولما رأت فرنسا أن عملها في تونس لا يلقي معارضة من دول أوروبا أرسلت حملتها على البلاد التونسية وكانت مؤلفة من ٢٦٠٠٠ جندي . وقد قهرت قبائل الحدود بعد مجهودات عظيمة وتوصلت الي عقد معاهدة مع باي تونس هي فى الحقيقة اعلان حماية فرنسا على البلاد التونسية

وقد عرضت على مجلس النواب الفرنساوي فى ١٩ مايو عام ١٨٨١ صورة هذه المعاهدة التي أمضاها الجنرال (بريار) باسم فرنسا مع باى تونس فى (الباردو) بتاريخ ١٢ مايو عام ١٨٨١ وهي تشتمل : أولا على احتلال فرنسا للمواقع التى تراها ضرورية لها فى البلاد التونسية . ثانيا على تعهد فرنسا لباى تونس بحمايته وحماية عائلته ودفع كل خطر عنه وعنها . ثالثا على تعهد فرنسا بضمانة تنفيذ المعاهدات المعقودة بين تونس وبين الدول الاوروبية . رابعا على تعيين وزير فرنساوي فى تونس

يقوم بتنفيذ هذه المعاهدة ويكون الواسطة بين فرنسا وبين الولاية التونسية . خامسا على جعل الرعايا التونسيين في الخارج تحت سلطة وحماية سفراء فرنسا وقناصلها وعلى تعهد تونس بعدم عقد معاهدة ما مع دولة من الدول قبل عرضها على فرنسا والاتفاق معها عليها . وتتضمن المعاهدة غير ذلك بعض شروط بشأن تنظيم مالية تونس وبشأن الديون التونسية وبخصوص عدم وصول الاسلحة والذخائر الى القبائل المعادية لفرنسا .

وقد وافق مجلس النواب الفرنساوى بالاجماع على هذه المعاهدة عند عرضها عليه . ولما علمت بها الدول رسميا هنأت المانيا والنمسا واسبانيا الحكومة الفرنساوية على نجاحها . أما الباب العالي فقد احتج على عمل فرنسا باسم حقوقه الشرعية وترك للتاريخ الحكم على معاملة أوروبا للدولة العلية واعتدائها عليها

وقد أحدثت معاهدة فرنسا مع تونس في ايطاليا كدرا شديدا وسخطا على فرنسا وحولت انظار ايطاليا نحو النمسا والمانيا . واشتدت العداوة بين فرنسا وايطاليا الي حد أن الفرنساويين والايطاليين صاروا يتشاحنون فى كل بلد من بلاد فرنسا . ففى ١٤ يوليو سنة ١٨٨١ { يوم عيد الجمهورية الفرنساوية } حصلت معركة كبيرة فى مرسيليا بين الفرنساويين والايطاليين مات فيها ثلاثة من الفرنساويين وايطالى واحد

وقد أظهرت الجرائد الالمانية عندئذ ارتياحها للعداوة الناشئة بين

ايطاليا وفرنسا وصارت الجرائد الايطالية تطعن على فرنسا أقبح الطعن وتسبها أفحش السباب وتمدح ألمانيا وتطريء فى المديح تشفيا من فرنسا وانتقاما منها،وفى شهر يونيو من عام ١٨٨١ نفسه تقابل المسيو { كيرولي } رئيس الوزارة الايطالية وقتئذ مع البرنس (بسمارك) فى مدينة { كيسينجن) وطالت المحادثة بينهما واعتبرت هذه المقابلة فى كل دوائر أوروبا السياسية مبدأ لانضمام ايطاليا للتحالف الألمانى النمساوي أى نجاحا لسياسة (بسمارك)

أما فرنسا فقد استمرت على خطتها فى البلاد التونسية واحتلت في ١٠ اكتوبر عام ١٨٨١ مدينة {تونس} نفسها وأرسلت جيشا جرارا لاحتلال مدينة (القيروان) . ومن الأمور المشهورة عن احتلال فرنسا للقيروان أن رجلا فرنساويا دخل فى دين الاسلام وسمى نفسه(سيد احمد الهادى) واجتهد في تحصيل الشريعة الغراء حتي وصل الي درجة عالية فيها وعين اماما لمسجد كبير فى القيروان . فلما اقتربت الجنود الفرنساوية من المدينة استعد أهلها للدفاع عنها وجاؤه يسألونه ان يستشير لهم ضريح شيخ في المسجد يتقدمون فيه فدخل الضريح وخرج مهولا لهم بما سينالهم من المصائب وقال لهم بان الشيخ ينصحكم بالتسليم لان وقوع البلاء صار محتما . فاتبع القوم البسطاء قوله ولم يدافعوا عن مدينة (القيروان) أقل دفاع بل دخلها الفرنساويون آمنين في ٢٦ اكتوبر عام ١٨٨١ . وهكذا سقطت المدينة في أيدي فرنسا بحيلة دخيل من الدخلاء .وما سقطت بلاد اسلامية فى أيدى دولة أوروبية الا وكان للدخلاء

يد في سقوطها

وبذلك لحقت البلاد التونسية بالجزائر ووقعت فى قبضة فرنسا وتمت لفرنسا الكلمة فيهما وانتهت النتيجة الاخيرة للحرب المشؤومة بين الروسيا وبين الدولة العلية

﴿ الازمة الخامسة ﴾

(المسئلة المصرية)

ان سبب مصائب مصر هي ديونها التى اقترضها { اسماعيـل باشا } الخديو الاسبق فانها العلة الوحيدة لتداخل الاجانب فى شؤون مصر ولتداخل انكلترا على الخصوص فى أمورها . وقد اشتهر بين الناس كافة ان قاعدة سياسة التداخل الاجنبي فى شؤون أمة من الامم والعمل على استعبادها هى { فرّق تحكم } فان الشقاق والتفريق بين أفراد أمة واحدة يجران حتما الى اضمحلال هذه الامة وسقوطها فى قبضة أعدائها . وقد أوجد سواس هذا العصر قاعدة جديدة لاستعباد الامم وهي { أدن تستعبد } فان اعتماد السياسة الاوروبية في استيلائها على البـلاد الافريقية والاسيوية انما هو على إقراض أمرائها . فمتى أرادت دولة أن تستعبد أمة وتستولي على بلادها سلطت على أميرها من يحسن له المدنيـة وزخرفها وتغيير حاله بأحسن منها فاذا كان الامير ضعيف الرأى قصـير النظر فى العواقب أو كان ذا أهواء شريرة أصغى الي هـذه الاقوال المزخرفة واستدان وأثقل عاتق أمته وبلاده بالديون التي تجر وراءها التداخل الاجنبي والاستعباد

وقد انخدع { اسماعيل باشا } بزخارف أقوال بعض الاوروبيـين وتغلبت عليه أمياله الطبيعية وأهواؤه فاستدان من أوروبا الديون الطائلة وفتح أبواب مصر للأوروبيين وجرّ بذلك على ملك مصر وعلى بلاد مصر العزيزة المصائب الكبار والبلايا الجسام وانتهى به الامر أن خلعه

من كرسي ملكه أصحاب الديون أنفسهم أى أولئك الذين كان يظنهم أصدقاء له وكان يفضلهم على بني وطنه ويعمل بآرائهم ونصائحهم . وهى عبرة تاريخية يجب على أمراء الشرق كافة ان يعتبروا بها . فان قوة الممالك في قوة الأمم وسعادتها الحقيقية لا في الزخرف الكاذب والطلاء الباطل . وكلما كانت الامة قليلة الديون كان استقلالها قويا متينا وكانت كلمتها عالية عزيزة وبالعكس كلما ازدادت ديون أمة ازدادت مصائبها وتسلط الاجنبي عليها وهددت فى استقلالها وفى حياتها نفسها

وقد تغيرت أمور مصر وتغيرت سياسة الدول نحوها من عام ١٨٧٥ بشراء انكلترا من (اسماعيل باشا) لأسهم مصر فى قنال السويس حيث ازداد نفوذ هذه الدولة في بلادنا العزيزة وصارت منافسة لفرنسا أشد المنافسة . وقد توصلت انكلترا بما صار لها من النفوذ في السنين الاخيرة من حكم (اسماعيل باشا) الى تعيين جملة موظفين من الانكليز فى ادارات مصر وفى السودان المصرى وجعلتهم ذريعتها فى بذر بذور السوء والقلاقل فى أرض مصر . وتوصلت كذلك الي عقد معاهدة منع الرقيق مع الحكومة المصريه عام ١٨٧٧ وهى المعاهدة التى منحت انكلترا فى المادة السادسة منها «حق جولان الطرادات الانكليزية في مياه البحر الاحمر وحق البحث في السفن المصرية الحاملة للرق أو المشتبه في أنها حاملة له والاستيلاء عليها لتسليمها فيما بعد للحكومة المصريه وحق الاستيلاء على الرقيق الذى تعثر عليه احدى الطرادات الانكليزيه في سفينة مصريه واتخاذ الوسائل اللازمة لتحريره» . أي منح الانكليز سيطرة عالية على ماهو

من شؤن مصر وحقوقها ومنحهم حق التداخل فى أحوال مصر

وبازدياد نفوذ انكلترا فى مصر ازدادت المشاكل فى بلادنا وتمهدت لها سبل احتلالها. فقد قررت انشاء المراقبة على المالية المصرية بالاشتراك مع فرنسا وكانت أول عاملة على خلع (اسماعيل باشا). وبعد تولية المغفور له (توفيق باشا) نشرت سماسرتها فى كل أنحاء مصر وشجعت الحزب الوطنى من جهة وفرقت بينه وبين مولاه وفريق آخر من المصريين من جهة أخرى حتى نزل القضاء باحتلالها لمصر وتمت خديعتها للمصريين وللدولة العلية ولأوروبا كلها

ومن سوء حظ مصر ان سماسرة الانكليز نجحوا فى التفريق بين المصريين وبعضهم فاستحكم الشقاق بين الجراكسة والمصريين في الجيش وبعبارة أخري بين المصريين وبعضهم لانه لا يمكن اعتبار الجراكسة الذين قضوا فى مصر طول حياتهم واستوطنوا البلاد وتناسلوا فيها أجانب عنها بل هم فيها مصريون لا فرق بينهم وبين سلالة الفراعنة القدماء. ولو كان زال من بين الجراكسة والمصريين سوء التفاهم وعرفوا انهم كلهم مصريون تجمعهم جامعة الوطن العزيز وأن لبلادهم عدوا طامحا الى الاستيلاء عليها من عهد بعيد لكانت نجت مصر من الخطر الجسيم الذى هي واقعة فيه الآن ولكانت تمت لمصر السعادة والرفاهية والحرية. ولكن العداوة استحكمت بين بنيها ففشل أمرهم وذهبت ريحهم وتداخل الاجنبي بينهم وتساقطت على مصر المصائب العديدة. وهذا شأن كل أمة يقع الشقاق والتفريق بين أفرادها

وقد ابتدأت الحركة العرابية باتفاق جملة ضباط مصريين على رفع عريضة شكوى للمغفور له (توفيق باشا) ضد (عثمان باشا رفقي) ناظر الحربية بسبب تعصبه ضد المصريين وتحزبه للچراكسة وتكليف أحمد عرابي بك وعلى فهمي بك وعبد العال حلمي بك بتقديمها للخديوى . وما تقدمت هذه العريضة حتى اهتم بالامر أصحاب الدسائس الاجنبية العاملون على ضياع مصر وبذلوا جهدهم فى توسيع الخرق وجعل الشقاق عظيما فنصحوا برفت عرابي وعلى فهمى وعبد العال حلمى . وبالفعل استدعى (عثمان باشا رفقي) هؤلاء الضباط الى نظارة الحربية وأعلنهم أمام مجلس مكون من الذوات بانهم مرفوتون من وظائفهم وان ثلاثة من الضباط الجراكسة عينوا فى مناصبهم وأمر بسجنهم فقبضت عليهم الجنود وسجنتهم وأمر كذلك بارسال كل الضباط المصريين المعروفين بالميل لعرابي وزميليه الى سجن القلعة . فهاجت الضباط والعساكر المصرية ضد ماعلمت بما جرى لرؤسائهم وهجموا على سجن نظارة الحربية وأخرجوهم منه وابتدأ بهذه الحركة الاضطراب في البلاد وقلقت الافكار كما كان يبتغيه أصحاب الغايات وأرباب الدسائس الاجنبية .

وبعد ان خرج عرابى وزميلاه من السجن أرسل (عرابى) الي قناصل الدول الاوروبية فى مصر كتابا بتفصيل ماجري واستلفت أنظارهم الى هذه الامور وذهب الى عابدين وقابل سمو الخديو فصرح له المرحوم (توفيق باشا) بانه عفا عنه وعن كل الضباط وأخبره بأنه عين (محمود باشا سامى البارودى) ناظرا للجهادية بدلا من (عثمان باشا رفقى) . وكان

ذلك فى يوم ٢ فبراير عام ١٨٨١ . وقد أفهم السير { ماليت } قنصل انكلترا الجنرال{عرابى} وأنصاره بانه هو الذى نصح الخديو بالعفو عنهم وباستبدال عثمان باشا رفقي . وقصد بذلك استمالتهم اليه وتغريرهم بانه نصير لهم

وفى يوم ٤ فبراير من السنة نفسها أمر الخديوى عرابي وعلى فهمي بأن يذهبا الى قنصلى فرنسا وانكلترا ويؤكدا لهما بأنهما يتكفلان بالراحة العمومية ويضمنان المحافظة على أرواح وأموال الأوروبيين فتوجها وعملا بأمر العزيز

ولو كان الأمر وقف عند هذا الحد لكانت انتهت المسئلة وبقى السلام سائدا في ربوع مصر ولكن أصحاب الدسائس كانوا يبذلون الجهد الجهيد فى بلوغ غاياتهم السيئة فأوعزوا الى بعض خدمة الخديو الخصوصيين بتهييج الجنود ضد ضباطهم وباغرائهم على الفتك بهم . وقد وجدت هذه الايعازات السيئة آذانا صاغية عند بعض ضعفاء العقول وذهب { فرج بك الزينى} ليلا الى أحد الألايات وحرض العساكر على قتل ضباطهم فلم توافقه العساكر وقبضت عليه وفى اليوم الثانى أرسل لنظارة الحربية وجرى التحقيق بشأنه . وقد ظهر من التحقيق أنه أمر بتحريض الجنود على قتل ضباطهم من أحد خدمة الخديو ويقول (عرابى باشا) في تقريره ان خادم الخديو أمر بذلك من مولاه . وجرأت جملة مور من هذا القبيل حكم على الذين أتوابها بالابعاد الي السودان . ولما كان لبعض الاشخاص الذين أبعدوا الي السودان علاقات ببعض خدمة الخديو فقد

أحدث ابعادهم غضبا شديدا عند حاشية العزيز واستعمل ذوو النفوذ فى المعية نفوذهم فى اقناع الخديو بضرورة عزل محمود باشا سامي من نظارة الحربية فعمل العزيز برأيهم وطلب من محمود باشا سامى الاستقالة فاستقال وعين مكانه { داود باشا) صهر العائلة الخديوية . وماتمين حتى أصدر الاوامر بعدم اجتماع الضباط مع بعضهم والتشديد عليهم كل التشديد . ويقول (عرابي باشا) في تقريره انه وضع على بيته وعلى بيت عبد العال بك حلمي أرواما للفتك بهما

وقد أحدثت هذه الامور كلها تأثيراً سيئا على نفوس الضباط فاتفقوا على عمل حركة أهلية عامة لتغيير دستور البلاد ونظامها واسقاط وزارة (رياض باشا) التي كانوا يتهمونها بمعارضتهم وبتقوية السلطة الاستبدادية في البلاد . وانضم اليهم الكثيرون من أعيان البلاد وفضلائها

وفى ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ ذهبت الجنود المصرية فى الساعة الثالثة بعد الظهر تحت قيادة (عرابي) الى ميدان عابدين وطلبت من الحضرة الخديوية اسقاط وزارة رياض باشا وانشاء مجلس نواب مصرى وجعل عدد الجيش ١٨٠٠٠ جندى كما تسمح به الفرمانات الشاهانية . واقتضت الصدفة وقتئذ ان قنصل فرنسا الجنرال والمراقب الفرنساوى كانا غائبين عن مصر وكان المراقب الانكليزى المستر (كوكفيل) موجودا في مصر مع المستر (كوكسون) الذي كان قائما مقام السير { ماليت } قنصل انكلترا الجنرال . فنصح المستر كوكفيل والمستر كوكسون الخديو بقبول مطالب (عرابى) وجنوده . ولم يمض الا ساعتان

حتى قبـل الخـديو طلبات { عرابى } وأسقط وزارة (رياض باشا) وأمر (شريف باشا) بتشكيل وزارة تحت رئاسته

وقد استفادت انـكلترا فى هذه الحادثة ازدياد نفوذها عنـد رجال الحزب الوطنى وعند المغفور له { توفيق باشا } وعند خـدامه وأنصاره فصار بذلك وكلاؤها في مصر محل ثقة الفريقين

وان السياسة التى اتبعتها انكلترا من أول الحوادث العرابية لآخرها لسياسة كلها غش وخداع وكذب . أو كما يقول عنها السياسيون سياسة كلها دهاء ومهارة . فانهـا أفلحت فى تكبير الشقاق بـين الجراكسة والمصريين أى بين افراد أمـة واحدة وأفلحت في القاء بذور النفور والعداوة بين الخـديو و (عرابى) إذ ظن عرابى وحـزبه ان الخـديو يريد الفتك بهم وانه هو المحرض على قتلهم . وأفلحت فى تفهيم المغفور له (توفيق باشا) ان جلالة السلطان يريد خلعه ومحو حقوق العائلة الخديوية في مصر وأفلحت كذلك في تفهيم رجال الدولة العلية ان (توفيق باشا) طامح الي انتهاج خطة المغفور له (محمد على باشا) فى مسئلة الشام ضد الدولة . وبذلك صارت انكلترا مسموعة الكلمة عند عزيز مصر وعند رجال الحزب الوطنى وعند رجال الدولة العلية. وصارت الحوادث تجرى حسب مشيئتها وكما تقضيه آمالهـا وأمانيها

وما تظاهر (عرابى) مظاهرته الحربية في ٩ ستمبر عام ١٨٨١ حتى شجع سواس بريطانيا الباب العالى على الانتقام من (توفيق باشا) وانتهاز هذه الفرصة لنوال سلطة فعلية على مصر بمساعدة الحزب الوطني وتعضيده

. ولم تكتف وقتئذ الوزارة البريطانية بتحريض الباب المالى على تشجيع
{عرابى} بواسطة سفيرها فى الاستانة بل أوحت الي الجرائد الانكليزية
أن تساعدها في سياستها فنادت التيمس وزميلاتها وقتئذ بأن الطريقة
الوحيدة لايقاف تيار القلاقل والاضطرابات فى مصر هى تداخل الدولة
العلية واحتلال الجنود التركية للديار المصرية

وقد انخدعت الدولة العلية لسواس بريطانيا وحسبتهم صادقين فى أقوالهم
مصافين لها فى مسئلة مصر وظنت انه يمكنها الاعتماد عليهم وقررت
حسب إشارتهم ارسال وفد لمصر لدراسة الاحوال فيها ورفع تقرير لجلالة
السلطان. فحضر لمصر وفد مكون من على باشا نظامي وأحمد أسعد أفندي
وقدرى أفنديـ . وقبل وصول هذا الوفد الي مصر بيومين صدرت
الاوامر بسفر ألاى (عرابى) الى التل الكبير وألاى {عبد العال بك}
الي دمياط لكى لا يجتمع عرابى وعبد العال باعضاء الوفد ولكنهما لم
يسافرا وتقابلا مع الوفد عند حضوره . وقد حقق المغفور له (توفيق
باشا) لاعضاء الوفد بانه متفق مع (عرابي) وانه راض عن جيشه . ولما
علمت فرنسا وانكلترا بأن الدولة العلية أرسلت وفداً لمصر أرسلتا أسطوليهما
الي ميناء الاسكندرية . وقد غادر الوفد العثمانى مصر وعاد للاستانة فى ١٩
اكتوبر عام ١٨٨١ وبعد سفره بارحت سفن فرنسا وانكلترا ثغر
الاسكندرية . وقد أشيع وقتئذ فى سائر انحاء العالم ان الوفد العثماني
كان مكلفا بتشجيع (عرابى) وحزبه واعتقدت الامة المصرية كلها بهذه
الاشاعة وصارت تعتبر (عرابى} النائب الحقيقي عن جلالة السلطان فى

مصر والمدافع عن حقوقه فيها

وقد جرت انتخابات أعضاء مجلس النواب المصرى في ١٠ نوفمبر عام ١٨٨١ وأظهر (شريف باشا) ارتياحه من النتيجة التى تمت عليها الانتخابات . واجتمع المجلس لاول مرة فى ٢٦ دسمبر من السنة نفسها

وفى ٣١ يناير عام ١٨٨٢ نشرت جريدة (التيمس) الانكليزية مباديء الحزب الوطني في مصر وهى تنحصر في ستة أمور : أولا الاعتراف لسيادة الدولة العلية مع المحافظة على الامتيازات الممنوحة لمصر . ثانيا الطاعة والاخلاص لسمو الخديو مادام محترما لوعوده التي فاه بها فى سبتمبر عام ١٨٨١ . ثالثا الاعتراف بالخدم الجليلة التى أدتها فرنسا وانكلترا لمصر وبان المراقبة الثنائية موافقة لحالة البلاد المالية ولازمة لضمانة حقوق الدائنين. رابعا المحافظة على الامن فى سائر أنحاء مصر وضمانة أرواح وأموال الاهالى والنزلاء . خامسا اعلان مباديء الحرية الدينية والسياسية فى بلاد مصر واعتبار سائر المصريين سواء أمام القانون وتشكيل مجلس نواب مصري وتحديد حقوق كل سلطة . سادسا ترقية شأن البلاد بنشر التعليم فى كل أرجائها

وقد أعجبت التيمس بمباديء الحزب الوطني وأمياله وأظهرت تخوفها من تداخل فرنسا في مصر تداخلا عسكريا وأبانت ان تداخل فرنسا أو أية دولة أوروبية في مصر تداخلا عسكريا يجر على مصر وعلى مصالح أوروبا فيها أكبر الاخطار . ولكن التيمس نسيت رأيها هذا بالمرة ولم تتذكره عند احتلال الجنود الانكليزية لمصر بل صفقت لهذا

الاحتلال طربا واستحسانا

أما الامة المصرية فقد أظهرت من مبدأ الحوادث العرابية ميلها لعرابي وموافقتها له على عمله وشجعته بكل أنواع التشجيع . ولم يكن ذلك عن كراهة للمغفور له (توفيق باشا) الذى لم يسيء الي الاهالي قط بل عن رغبة الامة في نوال حريتها وتحقيق سعادتها واستقامة أحوالها . وقد أوجد حكم (اسماعيل باشا) فى نفوس المصريين كافة بغضا شديدا للحكم المطلق وكراهة لدودة للسلطة الاستبدادية وتشوق الكل الى جعل حكومة مصر حكومة دستورية شوروية حتى قام (عرابي) وجماعته فانضمت اليهم أصوات الامة واجتمعت حولهم المئات والالوف من أبنائها . ونظراً لكون الجنود كانوا فى قبضة يمين « عرابى » فان الفلاحين البسطاء أنفسهم كانوا يهللون ويكبرون عندما يذكر اسم « عرابي » وكانوا ينتظرون من ذلك المصري البحت السعادة المرغوبة والرفاهية المأمولة

وهذه الحركة الوطنية التى لم يعهد لها مثيل من قبل فى الامة المصرية كانت تعود ولا محالة على مصر بالفوائد الجمة والتقدم السريع لو كانت وقفت الامور في الحوادث العرابية عند حد محدود . ولكن الشقاق والطمع والجهل والدسائس الاجنبية أوقعت البلاد فى حضيض الذل والهوان بعد ان كانت مشرفة علي الخير والسعادة والحرية

وقد تعين { عرابي } وكيلا لوزارة الحربية فى ٤ يناير عام ١٨٨٢ وازدادت بذلك سلطته في الجيش وقوى نفوذه واجتمع حوله من الاهالي

خلق كثيرون . وقد كثرت عندئذ الاشاعات بان الدولة العلية مساعدة لعرابى سراً وانها تجتهد فى استمالة بعض الدول الاوروبية لتعضيدها على محو حقوق العائلة الخديوية وجعل مصر ولاية عثمانية كالشام وطرابلس واستدل الناشرون لهذه الاشاعات على صحتها — وما كانوا الا سماسرة للانكليز — بان الدولة العلية أرسلت على نظامي باشا ورشيد بك الى برلين وفيينا فى مأمورية سرية . وادعوا أن هذه المأمورية انما هى السعى في بلوغ تلك الغاية

ولا شك ان هـذه الاشاعات كان من شأنها ان تزيد فى النفور والشقاق بين المغفور له (توفيق باشا) وبين جـلالة السلطان الاعظم وكان الانكليز يستخدمونها عنـد الخـديو ويجسمونها له ليبتعد عن الدولة العلية ويبقي دائمـا تحت سلطتهم وآلة فى أيديهم

ولما رأت فرنسا ان نفـوذ الحزب الوطنى يزداد كل يوم وان كل شىء فى مصر صار فى قبضة العسكرية خافت على مركز الخـديو وأرسلت بالاتفاق مع انكلترا مذكرة لوكيلها فى مصر أمرته فيها كما أمرت انكلترا وكيلها أن يبلغ المغفور له (توفيق باشا) ان فرنسا وانكلترا متفقتان على مساعدته كل المساعدة ضد المصاعب القائمة فى وجهه وانهما تعتبران سـلامة مصر وسلامـة مصالح أوروبا بها فى بقائه على كرسى الخديوية

فكانت هـذه المذكرة بمثابة اعلان للعالم كله بان فرنسا وانـكلترا متفقتان كل الاتفاق في المسئلة المصرية وانهما تعملان بالاشتراك . ولو

كانت فرنسا اتبعت هذه السياسة الى النهاية لكانت سلمت مصر من مخالب انكلترا ولكانت بقيت المصالح الفرنساوية فى مأمن من الخطر . وقدأظهرت الجرائدالانكليزية سخطها على حكومة بلادها لاتفاقهامع فرنساواشتراكهامعهافي إرسالهذهالمذكرة.وبالجملةكانت الصحف الانكليزية تلح كل يوم على وزارة انكلترا بالانفصال عن فرنساوالعمل بالانفراد أما الباب العالى فقد احتج على ارسال هذه المذكرة بكتاب بعث بهلسفرائه في الخارج بتاريخ ١٣ يناير عام ١٨٨٢ مظهرا فيه ان للدولة العلية وحدها حق التداخل في مصر بصفتها صاحبةالسيادة عليها . فضلاعن انه لم يحصل بمصر أقل أمر يحمل فرنسا وانكلترا على ارسالهذه المذكرة

ومن سوء حظ مصر أن وزارة « غمبتا » سقطت فى فرنسا وقتئذ واستبدلت بوزارة « فريسينيه ».وكانت سياسة « غمبتا » فيالمسئلةالمصرية واضحةصريحة ترمى الى السيرمع انكلترا فى كل خطواتهاومشاركتها في كل عمل وعدم تركها تعمل شيأ ما بانفرادها . ولو كان « غمبتا » بقي رئيسا لوزارة فرنسا لكانت اشتركت مع انكلترا فى احتلالها مصر وكانتا خرجتا معاً أو لكانت اجتنبت فرنساوانكلترا ضرب الاسكندريةواحتلال مصر. وعلى أى حال كانت نجت بلادنا العزيزة من الوقوع فى أيدى الانكليز . ولكن بلية الجمهورية الفرنساوية ان وزارتها قصيرة الاجل

وقد سن مجلس النواب المصري بعض القوانين ولكنه لم يتفق مع وزارة « شريف باشا » على مسئلة المناقشة في الميزانية المصرية .فشريف باشا كان يرى أنه يسوءفرنسا وانكلترا ان مجلس نواب مصر يتناقش فى كل فروع

الميزانيـة حتي فيما يختص بالديون ويغير ويبدل فيها كيف يشاء مع ان هاتين الدولتين عينتا لجنة مراقبة لتقرير الميزانية مع الحكومة المصرية ومراقبة سيرها . ومجلس النواب المصرى كان يرى انه من أول حقوقه وواجباته دراسة الميزانيـة والمناقشة فى موضوعاتها موضوعا موضوعا . وبذلك حصل الخلاف بين المجلس وبين الوزارة الشريفية واضطر (شريف باشا) للاستقالة هو وبقية النظار فى يوم ٢ فبراير عام ١٨٨٢ . وقد تعين « محمود باشا سامي البارودي » رئيسا للنظار بدلا منه وتعين « عرابي » وزيرا للحربية وأعطي لقب باشا هو وبعض زملائه من رجال العسكرية . واتفق محمود باشا سامي مع أعضاء مجلس النواب بشأن الميزانية فقرر معهم انتخاب لجنة منهم يكون عددها مساويا لعدد النظار تدرس مع النظار الميزانية وأن يكون تقرير الميزانية باجماع أصوات أعضاء اللجنة والنظار معاً أو بالاغلبية . وانه اذا وقع خلاف بين النظار وبين أعضاء اللجنة أو تساوت الاصوات يعرض الامر على المجلس للفصل فيه

وقد أغضب سقوط وزارة (شريف باشا) سائر الدائنين واعتبرت فرنسا وانكلترا تمسك مجلس النواب المصرى بدراسة الميزانيـة كلها وتقريرها حسب مرامه اعتداء على حقوق المراقبة الثانية أى اعتداء على حقوق الدولتـين في مصر . وقـد استعفى وقتئذ المراقبان الفرنساوي والانكليزى . وكان ولا محالة من الحكمة والصواب ان الحزب الوطني فى مصر يقف عند حـد محـدود في هـذه الاوقات المضطربة ويرضي بالنتائج السامية التى نالها . وكان من نهاية السداد فى الرأي

والتبصر فى العواقب ان النواب المصريين يرضون بدراسة الميزانية الا مايختص بالديون فيها . ولكن قضي على رجال الحزب الوطنى فى مصر يومئذ أن يتمسكوا بأمر أضاع عليهم التمسك به أتعابهم وجرّ على الوطن المصري أشد البلاء . على أن نوال الحرية والعدالة والمساواة فى أمة لايكون دفعة واحدة ولا يأتى فى يوم واحد . وانه كان يكفي الحزب الوطنى أن ينال تشكيل مجلس نواب مصرى ومنح المصريين الحقوق السياسية والملية التي اسأر الافراد فى الامم المتمدنة . فانها خير نتيجة يحق لكل مصرى محب لبلاده أن يفتخر بها

ومما زاد فى تخوف الاوروبيين وهلعهم هو تعيين {عرابى} وزيراً للحربية فانهم كانوا يعتبرونه المحرض لمجلس النواب المصرى علي طلب المناقشة فى كل فروع الميزانية والمسبب لسقوط وزارة {شريف باشا} والعامل على الاضرار بمصالح أوروبا وبمصالح رعاياها باستلام زمام القوة والسلطة فى مصر

وقد قام المسيو {دلافوس} فى مجلس النواب الفرنساوي في يوم ٢٣ فبراير عام ١٨٨٢ وسأل المسيو (فريسينيه) رئيس الوزارة ووزير الخارجية عن الخطة السياسية التى تنوى فرنسا اتباعها بعد تغيير الوزارة المصرية وحدوث هذا الانقلاب العظيم . فأجابه المسيو (فريسينيه) بان فرنسا وانكلترا تتخابران مع أوروبا في الامر وتعملان لاشراك الدول معهما فى مسئلة مصر

ولما كانت الدسائس الاجنبية عاملة على تفريق كلمة المصريين

وتقويض أركان الاستقلال المصرى أوعز المفسدون وسماسرة السوء الي جماعة من الجراكسة بالفتك بعرابى وأنصاره والتخلص منهم . ولكن أحدهؤلاء الجراكسة لم يقبل الاشتراك في هذه الدسيسة وأخبر (طلبه باشا) بأمرها فكتب هذا الاخير الى نظارة الجهادية والى رئاسة النظار والى سمو الخديو بتفصيل المسئلة ،وعندئذ تقررمحاكمة الجراكسة المتهمين بتدبير المكيدة . وقد حوكموا وصدر الحكم عليهم بالابعاد إلي السودان فلما علم المرحوم « توفيق باشا» بالحكم أرسل تلغرافيا الي الحضرة السلطانية يعرض عليها الامر ويسألها عما يجب عليه عمله . وقبل وصول الرد السلطانى تداخل قنصل فرنسا الجنرال وقنصل انكلترا الجنرال وطلبا من الجناب الخديوى تعديل الحكم بالابعاد الى الشام . فعمل العزيز برأيهما وسافر الجراكسة الي الشام . وقد نشأ من ذلك نفور بين العزيز وبين وزارته وكتب قنصلا فرنسا وانكلترا الي دولتيهما بان « محمود باشا سامى » هدد حياة الخديو وحياة الاوربيين فى حضرة الخديو نفسه فاتفقت الدولتان على ارسال أسطوليهما الى مياه الاسكندرية . وبعثتا فى ١٦ مايو عام ١٨٨٢ مذكرة الي الباب العالى أعلنتاه فيها باتفاقهما على ارسال أسطوليهما الى ثغر الاسكندرية وسألتاه عدم إرسال الاسطول التركى وعدم الاشتراك معهما . وقد أجاب الباب العالي على هذه المذكرة بتاريخ ١٧ مايو بان الدولة العلية هي وحدها دون غيرها صاحبة السيادة على مصر وانه ليس لاحد غيرها حق التداخل فى شؤون هذه البلاد وأرسل في الوقت نفسه تلغرافا الي وزراء مصر أمرهم فيه بعدم مخالفة

أوامر الجناب الخديوى

وبعد ان جاء الاسطولان الفرنساوى والانكليزي الي مياه الاسكندرية رفع وكيلا دولتى فرنسا وانكلترا في ٢٥ مايو عام ١٨٨٢ كتاباً الى سمو الخديو ذكرا له فيه أن { سلطان باشا } رئيس مجلس النواب المصرى رأي ان وطنيته تقضي عليه بأن يعرض على (محمود باشا سامى) رئيس الوزارة المصرية الاقتراحات الآتية التى تضمن راحة مصر وسلامتها وهي : أولا إبعاد { عرابى باشا } عن مصر ابعاداً مؤقتا مع بقائه في رتبته العسكرية ونقده مرتبه الشهرى . ثانيا إبعاد (على فهمى باشا) و(عبدالعال حلمي باشا) الى داخل البلاد المصرية . ثالثا استعفاء وزارة محمود باشا سامى . وأبان وكيلا دولتي فرنسا وانكلترا السمو العزيز أنهما يعضدان رأي (سلطان باشا) كل التعضيد ويطلبان من الجناب الخديوى تنفيذ اقتراحاته الثلاثة

وقد دل هذا الكتاب على وجود اختلاف في الرأى بين الحزب العسكرى وبين بعض أعضاء مجلس النواب الذين كانوا يعملون برأي رئيسهم. أما المرحوم (توفيق باشا) فقد قبل كتاب وكيلي فرنسا وانكلترا ورأي رأيهما خلافا لوزرائه . وقد اجتمع النظار عندئذ ورأوا تقديم استعفائهم الى الخديو بعلة ان قبول مطالب وكيلي فرنسا وانكلترا يعتبر اجحافا بحقوق جلالة السلطان في مصر وتداخلا أجنبيا فى شؤون مصر الداخلية . كأن أعضاء الوزارة المصرية كانوا يجهلون يومئذ ان فرنسا وانكلترا تداخلتا من قبل في شؤون مصر الداخلية وان هذه ليست

بأول مرة تداخلت فيها الدولتان

ولا ريب أن كل مصري يخلص الحب لبلاده ويتألم من نتائج الحوادث العرابية الوخيمة يرى انه كان يجب على (عرابى باشا) أن يبتعد عن مصر ويعمل برأي (سلطان باشا) لتطمئن الخواطر وتزول أسباب التداخل الاجنبي . نعم ان (عرابى باشا) كان يحزنه كثيرا أن يترك مصر بهذه الحالة ويترك خصومه يعتبرون خروجه من مصر هزيمة معنوية له ولحزبه ولكن رجلا مثله قام بدعوة أمته للحرية والاستقلال الداخلي وتولى رئاسة الحزب الوطني فيها كان يجب عليه ان يقلب نظره فى التاريخ ويتذكر أن انكلترا شرعت في أوائل القرن الحاضر فى الاستيلاء على مصر وانها تمني نفسها دائما بهذه الامنية العزيزة وأن اضطرابات مصر وقلاقلها لا تفيد الا هذه الدولة الماهرة فى السياسة ذات الدسائس القوية والمكائد العظيمة وكان يتحتم عليه (أي على عرابى) أن يخرج من بلاده ويدفع عنها الخطر

وقد أجاب (عرابي باشا) على اعتراض القائلين بضرورة خروجه من مصر وقتئذ بأن خروجه يعتبر من جهة تنفيذاً لاوامر فرنسا وانكلترا فى مصر وتبريراً لتداخل هاتين الدولتين فى أحوال البلاد الداخلية ويجعل من جهة أخرى أنصاره تحت رحمة أعدائهم وعلى خطر عظيم . ولكن هذا الجواب ضعيف جدا فان فرنسا وانكلترا تداخلتا فى أحوال مصر الداخلية في عهد « اسماعيل باشا» وهما اللتان عزلتاه باستمالة الحضرة السلطانية اليهما . ومن مبدإ الحوادث العرابية تداخلت الدولتان . و (عرابى باشا) نفسه كان يعتقد ان السير « ماليت » قنصل جنرال انكلترا هو أول من نصح

الخديو فى يوم ٩ ستمبرعام١٨٨١ — أي يوم مظاهرة الجنود المصرية تحت رئاسة «عرابي» في ميدان عابدين — بعزل الوزارة الرياضية وقبول طلبات الجيش . أما من حيث الخطر الذى كان يخافه { عرابى باشا} على انصاره بعد خروجه من مصر فهو خطر وهمي . لأن {عرابى باشا } كان يعلم جيدا أن في أنصاره رجالا كثيرين يغارون مثله على حقوق بلادهم ويطالبون بحريتها وتسليم زمام أمورها لابنائها . فلو كان (عرابى باشا) خرج من وطنه واتبع رأي « سلطان باشا » لكانت هدأت الاحوال وبطلت دسائس أعداء مصر وفشلت مكائدهم ولكان بقي شريفاً جليلا فى أعين العالمين غير متحمل للمسؤلية الكبري التى يتحملها اليوم أمام الوطن وأمام التاريخ بالرغم عن حسن نيته وصدق اخلاصه لوطنه

وقد اجتهدت الوزارة قبل استعفائها فى عقد مجلس النواب ولكن الخديو لم يقبل اصدار الامر بعقده . بل قبل استعفاء الوزارة واشتغل بتشكيل وزارة جديدة . ولما كانت السلطة العسكرية في قبضة يمين «عرابى رأى (سلطان باشا) وأصدقاؤه من أعضاء مجلس النواب أنه اذا لم يتعين « عرابى باشا » وزيرا للحربية كما كان اشتد النفور بينه وبين العزيز واتسع الخرق على الراتق فعرضوا على الجناب الخديوى إرجاعه فى وظيفة ناظر الحربية . فقبل المغفور له (توفيق باشا) ذلك وعين (عرابي باشا) وزيرا للجهادية للمرة الثانية

وعندئذ عرضت فرنسا على كافة الدول الاوروبية ان تسأل معها الباب العالى استدعاء عرابى ورفقائه الي الاستانة للتشرف بمقابلة جلالة

السلطان وتلقى أوامره فاشتركت معها الدول فى هذا الطلب ولكن انكلترا نصحت الباب العالى بعدم قبول طلب الدول وبارسال مندوب عثمانى لدراسة الاحوال فى مصر . فاتبع الباب العالى نصيحة انكلترا وعمل بها

ولما كانت السياسة الانكليزية في الحوادث العرابية سياسة ذات وجهين فقد سحب السير (ماليت) قنصل انكلترا الجنرال بمصر كتابه الذي أرسله لسمو الخديو فى ٢٥ مايو بالاشتراك مع قنصل فرنسا وأرضي بذلك الحزب الوطني . وقد اعتبر هذا العمل مبدأ لانفصال انكلترا من فرنسا فى المسئلة المصرية . وعند مارأت فرنسا ذلك عرضت على الدول الاوروبية عقد لجنة دولية بالاستانة للمداولة فى مسئلة مصر فقبلت الدول واتفقت على احترام التعهدات الدولية المختصة بمصر واحترام فرمانى عام ١٨٧٣ و١٨٧٩

وقد دارت المناقشة فى مجلس النواب الفرنساوي فى أول يونيه عام ١٨٨٢ على مسئلة مصر . وكان الرأى العام الفرنساوي وقتئذ ميالا لعرابي وحزبه منتصراً للدعوة التى هم قائمون بها وكان يأبى تداخل فرنسا في مصر تداخلا عسكريا وقد وقف المسيو (دلافوس) على منبر الخطابة وسأل وزير خارجية فرنسا عن السياسة المتبعة لها فرنسا فى الازمة المصرية فأجابه المسيو (فريسينيه) بان سياسته مقتضاها عدم تداخل فرنسا فى مصر تداخلا عسكريا وعدم ترك الدولة العلية ترسل جنودها لمصر . وكانت حجته فى معارضة مجيء الجنود التركية لمصر هي ان تداخل تركيا في مصر يرفع من شأن الدولة العلية فى أعين المسلمين كافة ويكون سببا لقيام

التونسيين والجزائريين في وجه فرنسا . وقد ندد المسيو (دولافوس) بسياسة المسيو { فريسينيه } وقال ان مصلحة فرنسا تقضي عليها بالاتفاق مع تركيا والعمل على رفع شأنها ليسهل لها حكم المسلمين واستمالتهم نحوها وأثبت أن حل المشكلة المصرية لايكون الا بتداخل الدولة العلية . وقد ألقي المسيو (غمبتا) في هذه الجلسة نفسها خطبة طويلة على المسئلة المصرية نصح فيها الوزارة الفرنساوية بعدم ترك انكلترا تعمل بانفرادها وبأن تشترك معها في كل عمل وأنذرها بسوء العاقبة اذا بقيت على الحيادة وتركت مصر لانكلترا

وان السياسة التى اتبعها المسيو (فريسينيه) لسياسة خرقاء فانه أبى التداخل فى مسئلة مصر تداخلا عسكريا وعارض الدولة العلية في ارسال جنودها لمصر . وكانت نتيجة هذه السياسة تداخل انكلترا وحدها وسقوط مصر فى قبضتها !

وقد جرت مناقشة فى مجلس النواب الانكليزى في يوم ١ يونيه نفسه على مسئلة مصر قال فيها المستر (غلادستون) بصفته رئيساً للوزارة الانكليزية ان (عرابى) يعمل على عزل « توفيق باشا » وتعيين البرنس « حليم » مكانه ولكن الدول متفقة على تعضيد الخديو الحالى { أي توفيق باشا } وانها اذا كانت لاتريد احتلال جنودها لمصر فذلك لانها تخاف اشتعال نيران التعصب الدينى فى مصر وجعل حياة الخديو في خطر »

وهو تصريح من الغرابة بمكان . وما كان يقصد به المستر { غلادستون } الا زيادة استمالة { توفيق باشا } الي الانكليز وثقته بهم واعتماده عليهم

وما علم سواس بريطانيا بتصريحات المسيو «فريسينيه» حتى طاروا بها فرحا وتحققوا أن الجو خلا لهم واهتموا بتدبير الدسائس لاحتلال مصر

وقد رأت انكلترا وقتئذ انها في حاجة لتعزيز تركيا وتفهيمها أن نواياها حسنة من جهتها فى مسئلة مصر فأوحت الي المغفور له { توفيق باشا } بان يطلب من الحضرة السلطانية ارسال مندوب عثماني عال لمصر وعززت هذا الطلب فى الاستانة . فأجابت الدولة طلب الخديو وحضر { درويش باشا } الي مصر حيث وصلها فى ٧ يونيو عام ١٨٨٢ . وكان للانكليز مصلحتان فى حضور { درويش باشا } لمصر : أولا تفهيم رجال الدولة العلية بانهم يريدون تداخلها فى مصر . ثانيا تشجيع الدولة بواسطة (درويش باشا) لرجال الحزب الوطني فى مصر

وكان وكلاء انكلترا فى مصر وصنائعها يعملون وقتئذ على احداث اضطراب عظيم . فكنت تري السير (ماليت) قنصل انكلترا الجنرال ينصح الانكليز المقيمين فى مصر بالسفر لاوروبا « نجاة من خطر قريب الحدوث » . وكنت تري المستر (كوكسون) قنصل انكلترا بالاسكندرية يفرق بنفسه الاسلحة والذخائر على الانكليز القاطنين بالاسكندرية — وقد أرسلت اليه هذه الاسلحة والذخائر من الاسطول الانكليزى الواقف فى ثغر الاسكندرية —

وقد وضع المستر « كوكسون » بالاشتراك مع الضابط الانكليزى «ماريوت» خطة للدفاع عن الاوربيين ضد المصريين وهى تقتضي تسليح ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ أوروبي بالاسكندرية. وقد أخبر المستر « كوكسون» بهذه

الخطة زميله الفرنساوى فى ٧ يونيوعام ١٨٨٢ وأبلغها لوكلاء الدول فى القاهرة غير انهم لما علموا بها صرحوا جميعاً بأن هذا التسليح يحدث اضطرابا عظيما فى البلاد وهياجاعاما وأمروا قناصل دولهم في الاسكندرية بالامتناع عن كل عمل عدائى

ولكن المستر «كوكسون» لم يرضخ لقرار وكلاء الدول بالقاهرة وسلح كل المالطيين وجميع اليونانيين وسائر سفلة الافرنج الموجودين بالاسكندرية مما يدل دلالة صريحة على ان المدبر لمذبحة الاسكندرية والمسبب لها انماهي انكلترا دون سواها

وقد ابتدأت المذبحة بمشاجرة وقعت بين مالطي وحمار مصري وأطلقت فيها البنادق من الشبابيك على المصريين واستمرت طول يوم ١١ يونيو المشؤوم . ويحقق الكثيرون بأن المالطى الذي سبب المشاجرة والمذبحة هو شقيق خادم المستر (كوكسون) نفسه

وقد اجتنبت فرنسا وانكلترا انزال عساكرهما الى البر وقت مذبحة الاسكندرية . وذلك بناء على رأى انكلترا التى كانت تخاف اشتراك فرنسا معها في احتلال مصر

ولما انتشر خبر مذبحة الاسكندرية فى أوروبا ادعى كتاب الانكليز وسواسهم ان سبب هذه المذبحة هو التعصب الدينى عند المصريين . ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها هى أن الانكليز وصنائعهم هم أصل هذه المذبحة المشؤومة وهم الموجدون لها . وقد صرح المسيو (دى فريسينيه) رئيس الوزارة الفرنساوية فى ١٢ يونيو أمام مجلس الشيوخ « بأن عدة

أسلحة أعطيت للمالطيين قبل المذبحة بأيام قلائل وان نسبة المذبحة للتعصب الديني خطأ محض ، وأثني المسيو { دي فريسينيه } على خطة حكومة مصر في هذه الحادثة

ولما علمت الحكومة المصرية بمذبحة الاسكندريه أرسلت فى الحال (يعقوب باشا سامي) وكيل الجهاديه على رأس ألايين من البيادة و بطاريتين من الطوبجية وأورطتين من السواري لحفظ الامن العام في الاسكندريه واعادة السكينة بين أهاليها

وقد أرادت الحكومة المصريه اجراء تحقيق بشأن مذبحة الاسكندرية واظهار الحقيقة فيها وعرضت على فرنسا وانكلترا عقد لجنة مكونه من تسعة أعضاء مصريين ومن تسعة أوربيين لاجراء هذا التحقيق فرفضت انكلترا ذلك بتاتا

وفى صبيحة مذبحة الاسكندرية أرسلت ايطاليا والنمسا أسطوليهما الى مياه الاسكندرية للمحافظة على حياة رعاياهما. وفى ذلك اليوم نفسه وقف اللورد سالسبورى فى مجلس اللوردات وعنف الحكومة الانكليزية على عدم احتلالها الاسكندرية وقت المذبحة فأجابه اللورد (غرانفيل) بان الوزارة الانكليزية تركت للاميرال {سيمور} الحريه التامة فهو يعمل متي رأى لزوماً للعمل. ولاشك أن كل سواس بريطانيا كانوا يعلمون ان السبب فى عدم تداخل الاسطول الانكليزى وقت مذبحة الاسكندريه وعدم نزول العساكر الانكليزية الى البر هو تخوف الاميرال الانكليزى من اشتراك الاسطول الفرنساوى معه فى الامر

وقدسافر الجناب الخديوي و(درويش باشا) والقناصل الى الاسكندرية بعد المذبحة لتطمئن خواطر النزلاء وتم السكينة المدينة. وتشكلت عندئذ الوزارة المصرية في ١٧ يونيو عام ١٨٨٢ تحت رئاسة (راغب باشا) وبقي فيها (عرابي باشا) وزيراً للحربية

ولما شعرت دول فرنسا والروسيا والمانيا والنمسا وايطاليا باشتداد الازمة ألحت على الدولة العلية بضرورة اشتراكها معها في اللجنة الدولية المزمع عقدها بالاستانة ولكن ساسة تركيا أصغوا لنصائح الانكليز ورفضوا الاشتراك مع الدول الاوربية معللين ذلك بان اشتراك تركيا في اللجنة الدولية يعتبر اعترافا منها بأن حقوقها في مصر تعادل حقوق الدول الاخري. وقد اضطر مندوبو الدول وقتئذ أن يجتمعوا في الاستانة بدون اشتراك ساسة تركيا معهم. وحضر هذه اللجنة رسميا اللورد (دوفرين) بصفته مندوبا عن الحكومة الانكليزية وأمضي مع بقية المندوبين في ٢٥ يونيو عام ١٨٨٢ القرار أو { البروتوكول } الآتي :

« تتعهد الحكومات التي يمضي مندوبوها على هذا القرار بانها في كل اتفاق يقع بشأن تسوية المسئلة المصرية لا تبحث على امتلاك شيء من أراضي مصر ولا على الحصول على امتياز خاص بها (أي باحدي الحكومات دون سواها) ولا على نوال امتياز تجاري لرعاياها يكون غير ممكن لرعايا الحكومات الاخري نواله »

وهذا التقرير يعتبر تعهداً من دول أوروبا بعدم المساس بحقوق مصر وبعدم الاعتداء عليها . وهو تعهد قبلته الحكومة الانكليزية على نفسها

كسائر الحكومات الاوروبية وأمضاه بالنيابة عنها اللورد { دوفرين }
أي سياسي من أكبر سواسها . ويمكننا أن نعتبر هذا التعهد — بقطع النظر
عن تصريحات جلالة الملكة ووزراء انكلترا بشأن الجلاء — احتجاجا
أبديا من أوروبا ضد احتلال الانكليز لمصر ومن انكلترا نفسها ضد
عملها فى بلادنا .

وفى أثناء اشتغال اللجنة الدولية في الاستانة بالمداولة والاتفاق على حل
الازمة المصرية كانت انكلترا تجهز سفنها وتستعد لتقوية أسطولها فى
الاسكندرية وكانت الجرائد الانكليزية تلح على حكومة بلادها باحتلال
مصر وحدها . وقد أثرت كتابات الجرائد الانكليزية على الرأي العام
الانكليزى وصار يطالب الحكومة البريطانية بالعمل وحدها حتي أن اللورد
(كامبرلي) وزير المستعمرات وقف خطيبا وقال . ان انكلترا بالرغم عن
ميلها للسلام واحترامها لآراء أوروبا لايمكنها أن نترك سلامة قنال
السويس للصدفة أو ان تهمل الدفاع عن مصالحها فى الشرق . وعندئذ
أنذر الاميرال (سيمور) الحكومة المصرية بانها اذا عملت أي عمل
عدائى ضد أسطوله ضرب الاسكندرية ودمرها .

وقد اهتمت فرنسا بتجهيز سفنها أسوة بانكلترا وعرض المسيو
(فريسينيه) يوم ٨ يوليو عام ١٨٨٢ على مجلس النواب الفرنساوى طلب
ثمانية ملايين من الفرنكات لهذا الغرض الا أنه صرح بانه لا يقصد
ارسال جيش فرنساوى لمصر وانه لا يأمر بتداخل فرنسا فى وادي النيل تداخلا
عسكريا الا بقرار من مجلس النواب نفسه وان القصد بتجهيز السفن

هو الاستعداد للطوارئ

ولما رأت انكلترا ان من صالح سياستها زيادة التقرب بين «عرابي باشا» وبين الحضرة السلطانية وزيادة النفور بين عزيز مصر وبين جلالة السلطان أشارت على رجال الدولة العلية — الذين لم يسيئوا الظن بالانكليز لحظة واحدة فى الحوادث العرابية كلها — بارسال نيشان لعرابي اظهاراً لرضي جلالة السلطان عنه وامتنانه من خطته وعمله . فعمل رجال الدولة باشارة انكلترا وأرسل النيشان المجيدي الاول مع الفرمان الخاص به لعرابي باشا . فكان هذا الانعام تشجيعاً لعرابي وحزبه وتنفيراً للجناب الخديوي من الدولة العلية . وكان من شأنه أن يحمل عزيز مصر على الالتجاء الى الانكليز

وعند ما تحقق رجال السياسة الانكليزية من أن فرنسا لا تتداخل فى مصر تداخلا عسكريا وانها تجتنب ذلك كل الاجتناب أمروا الاميرال الانكليزي «سيمور» بخلق الاسباب الداعية لضرب الاسكندرية . فأرسل هذا الاميرال انذاراً للحكومة المصرية بانها ان لم تكف عن اصلاح الاستحكامات ضرب الاسكندرية لأنه يعتبر اصلاح الاستحكامات أو ترميم الطوابي تهديداً للاسطول الانكليزى !!! فأمر الخديو بناء على أمر الحضرة السلطانية بابطال اصلاح الاستحكامات وعدم ترميم الطوابي . فامتثل رجال الجيش أمره وأبطلوا كل اصلاح وكل ترميم فى الاستحكامات والطوابي غير ان الاميرال (سيمور) كان مكلفاً بخلق الاسباب لضرب الاسكندرية فلذلك أرسل انذاراً ثانياً للحكومة المصرية قال لها فيه ان عمالها يقفلون

بوغاز الاسكندرية بالأحجار وأنهم ان لم يمتنعوا عن رمى الاحجار أمر أسطوله بضرب الاسكندرية . فأجابته الحكومة المصرية بانها لم تأمر مطلقاً باقفال بوغاز الاسكندرية وان عمالها لم يرموا فيه أحجاراً وأن لاحقيقة البتة لهذه الدعوى . وسمح له وكيل البحرية المصرية بالقبض على كل من يرمي أحجاراً في البوغاز . ولكن الاميرال { سيمور } لم يقتنع بالحق وأرسل في يوم ١٠ يوليو عام ١٨٨٢ خطابا آخر للحكومة المصرية ادعي فيه كذبا أنها تشتغل بوضع مدافع جديدة في طابية صالح والمكس وقائد بك وأنذرها بانها ان لم تسلمه جميع المدافع والاسلحة الموجودة فى طوابي الاسكندرية من العجمي الى قائد بك ضرب الاسكندرية !

ولما علم قناصل الدول بالاسكندرية بتهديدات الاميرال (سيمور) للحكومة المصرية كتبوا اليه كتابا سألوه فيه ان يمتنع عن ضرب الاسكندرية لان هذا العمل يضر بمصالح الاوروبيين كافة ويدمر منازلهم وأملاكهم وتعهدوا له بالاتفاق مع الحكومة المصرية على مايرضيه . فأجابهم الاميرال بان منازل الاوروبيين وأملاكهم ستكون في مأمن من الخطر لانه لا يقصد الا تدمير طوابي الاسكندرية . وكان يريد الاميرال { سيمور } بهذا الجواب تطمين خواطر القناصل ولكنه كان يعمل لتدمير الاسكندرية كلها وتكليف الحكومة المصرية بدفع الغرامات الطائلة !

وقد عقد المغفور له { توفيق باشا } مجلسا من الوزراء تحت رئاسته فى يوم ١٠ يوليو لتقرير مايلزم عمله نحو الاميرال (سيمور) وحضر هذا المجلس { درويش باشا } المندوب العثمانى العالى واتفق كل الحاضرين في

المجلس على ارسال ناظر المالية وناظر الخارجية ووكيل البحرية وأحد رجال المعية الى الاميرال (سيمور) ليبلغوه أن طوابي صالح والمكس وقائد بك هي كما كانت في عهد ساكن الجنان (محمد على باشا الكبير) وانه ليس بها أشغال ولم توضع فيها أسلحة ولا مدافع جديدة وان الحكومة المصرية تقبل انه (أى الاميرال سيمور) يطلع عليها . فتوجه الاربعة المذكورون وأبلغوا الاميرال (سيمور) هذا الجواب فلم يقتنع به بل كرر طلبه الاول بشأن تسليمه الاسلحة والمدافع الموجودة في الطوابي . فلما عرض هذا الطلب على سمو الخديو وعلى النظار أقر رأي الجميع على ان قبوله يكون عارا كبيراً على مصر وانه اذا أطلقت السفن الانكليزية على الطوابي أجابتها الطوابي بعد خروج خمس أوست طلقات من مدافع السفن الانكليزية حتي تقع المسؤلية كلها على الاسطول الانكليزى وأرسلت الحكومة المصرية في مساء ١٠ يوليو عام ١٨٨٢ كتابا الي الاميرال (سيمور) قالت له فيه « انها لم تعمل شيئاً ما يستوجب اعتداء الاسطول الانكليزى على ثغر الاسكندريه وانها محافظة على شرفها ومقامها لا تقبل مطلقاً تسليمه الاسلحة والمدافع الموجودة في الطوابي وانها تلقي مسؤلية النتائج الوخيمة التي ستنتج من ضرب الاسكندريه على الامة التي اعتدت بغير سبب وبدون اعلان الحرب بينها وبين مصر على الاسكندريه مخالفة في ذلك القانون العام ونواميس الحرب »

ولما علم المسيو (فريسينيه) وزير خارجية فرنسا بالانذار الاخير الذي أرسله الاميرال « سيمور » للحكومة المصرية أمر الاسطول

الفرنساوي — الذي كان واقفا في مياه الاسكندريه بجوار الاسطول الانكليزي — بالابتعاد عن الاسكندريه والسفر الى بورسعيد . وبذلك قضت فرنسا على مصالحها في مصر وخالفت سياسة قرن كامل وارتكبت أكبر خطأ سياسي في تاريخها . ولقد تحمل المسيو « فريسينيه » تبعة هذا العمل وصار مبغوضا في أمته واتهمه الكثيرون من الفرنساويين بالخيانه وبأنه باع شرف فرنسا الانكلترا . ولكن للحوادث العرابية ولسياسة الدول فيها أسرار لم يكشفها لنا التاريخ الي اليوم . وعلى كل حال فان المسيو « فريسينيه » اتبع في الحوادث العرابية سياسة خرقاء وأوجد لبلاده مشكلة لا تنقص عن مسئلة الالزاس واللورين أهمية وخطارة

وقد أرسل اللورد (غرانفيل) في مساء ١٠ يوليه مذكرة للدول الاوروبية أخبرها فيها « بان ضرب الاسطول الانكليزي للاسكندرية ليس الا دفاعاً اقتضته الضرورة وان انكلترا لا تنوى ضد مصر شيأ آخر » . فما هي الظروف التي اقتضت ضرب الاسكندرية وما هذا الدفاع ؟ ألم يكن الاسطول الفرنساوى واقفا بجوار الاسطول الانكليزى فلم يدع أن طوابي الاسكندرية تهدده ؟ ألم تكن سفن ايطاليا والنمسا واقفة في مياه الاسكندرية فلم تدع ان طوابي الاسكندرية تهددها وانه يجب عليها الدفاع عن نفسها ؟ ألم يعترف قناصل الدول بالاسكندرية بان الحكومة المصرية اتبعت مع الاميرال (سيمور) تساهلاً لا مثيل له وانها لم تهدد أسطوله أبداً ؟ ألم تسمح الحكومة المصرية للاميرال (سيمور) بالقبض على كل من يرمى أحجاراً في قنال الاسكندرية ؟ ألم تسمح

له بتفتيش طوابي الاسكندرية ؟ وهل أطلقت طوابي الاسكندرية مدافعها على الاسطول الانكليزى حتى اضطر للمدافعة عن نفسه ؟

ان هذه الرواية المحزنة لعار كبير على دولة تدعي محبة العدل والانسانية ولفضيحة تبقى حديثاً للامم على تعاقب الايام والسنين

وما طلعت شمس يوم الثلاثاء ١١ يوليو عام ١٨٨٢ — وهو أسوأ أيام مصر وأشقاها — حتى أطلقت السفن الانكليزية كلها المدافع على الطوابي المصرية وبعد خروج نحو ١٥ كلة من مراكب الاسطول الانكليزى أجابتها الطوابي المصرية واستمر الفريقان على اطلاق الكلل مدة عشر ساعات متوالية حتى تهدمت الطوابي كلها وتدمر جزء من سراى رأس التين واحترقت منازل عديدة. وقد اجتمع مجلس النظار في مساء ذلك اليوم العبوس تحت رئاسة سمو الخديو وقرر أنه اذا استمر الاسطول الانكليزى على اطلاق الكلل رفعت الرايات البيضاء علامة على طلب اجراء المخابرات السلمية وفى صبيحة ١٢ يوليو ابتدأت المراكب الانكليزية تطلق المدافع على مدينة الاسكندرية نفسها ثانياً — وليذكر القارىء ان الاميرال (سيمور) حقق لقناصل الدول بان أسطوله لا يتعرض للمدينة بسوء — فرفعت الرايات البيضاء وانقطع بذلك ضرب الاسطول الانكليزى لمدينة الاسكندرية. وذهب طلبه باشا الي الاميرال (سيمور) فقابله أحد ضباط الاسطول وأخبره بان الاميرال الانكليزي يطلب صدور أمر الخديو قبل الساعة الثالثة بعد الظهر بتسليمه طابية العجمي وطابية المكس وطابية العرب لجعلها معسكرا للجنود الانكليزية. فعاد طلبه باشا وأخبر الخديو

والنظار بطلب الاميرال الانكليزي .فلما علموا بهقرروا ارسال تلغراف للحضرة السلطانية لعرض الامر عليها اذ انه لايمكنهم تسليم أرض من أراضي مصر لدولة أجنبية بغير أمر الدولة العلية وكلفوا طلبه باشا بتبليغ ذالك للاميرال (سيمور) .غير ان الوقت الذى حدده الاميرال لانتظار الجواب كان قد فات وترك مندوب الاميرال فى ديوان البحرية المصرية خبرا بأن الاسطول الانكليزى سيضرب الاسكندرية مرة ثانية. وعندئذ أمر المغفورله الخديو السابق (عرابي باشا) بارسال الجنود المصرية الى جهة طابية العجمي لمنع العساكر الانكليزية من الخروج الي البر واحتلال ساحل مصر . فلم يتبع (عرابى باشا) أمر الخديو واعتذر « بأن الارض هناك مكشوفة وأن مقذوفات المراكب الانكليزية لا تمكن العساكر المصرية من الدنوّ الى البحر »

ولما علمت أهالي الاسكندرية بعزم الاسطول الانكليزى على ضرب المدينة هاجت وماجت وأخذ الكل يهاجر واضطربت أحوال الاسكندرية وانتشر السفلة والاشرار واللصوص فى المدينة حتى سلبوا كل شيء فى أسواقها ورأت مدينة الاسكندرية الزاهرة يومئذ مالم تعهده من قبل فى تاريخها. وهكذا قضت بريطانيا المتمدنة أن يضرب أسطولها مدينة آمنة مطمئنة كان الاوربيون والمصريون يعيشون فيها كالاخوة وان يعود الى ضربها مرة ثانية حتي انتشرت الفوضي فيها وعم الفزع أرجاءها وهاجر منها أهلها وسكانها !

وقد كثر عندئذ تجمع العساكر المصرية حول سراي الخديو بالرمل

حتي ظن العزيز أن (عرابي باشا) يريد الفتك به ورأى ان ملجأه الوحيد انما هي انكلترا : ويقول «عرابي باشا» ان تجمع العساكر حول سراي العزيز كان بقصد المحافظة على حياة سموه . وبعد ضرب الاسكندرية بأيام قلائل توجه المغفور له (توفيق باشا) الي سراي الاسكندرية تحت حرس انكليزى

أما (عرابي باشا) فقد غادر الاسكندرية وجمع الجيش فى جهة (كنج عثمان) وابتدأت العساكر في عمل المتاريس وأخذ الاحتياطات اللازمة . وأعلن وقتئذ فى كافة أنحاء مصر أن البلاد صارت فى حالة عرفية لوجودها في حالة الحرب وتشكل مجلس حربي فى نظارة الجهادية تحت رئاسة وكيلها للنظر فى جميع المسائل والقضايا . وفى يوم ١٧ يوليو أرسل الخديو تلغرافا لعرابي باشا يخبره فيه بأن الصلح تم بين مصر وبين الاميرال الانكليزي ويأمره بالسفر لمقابلة سموه بالاسكندرية فطلب (عرابي باشا) تلغرافيا من سمو الخديو أن يرسل اليه بشروط الصلح فلم يجبه العزيز بشيء لعدم اتباعه أمره بالسفر للاسكندرية . وعندئذ أرسل الخديو لجميع مصالح الحكومة ولنظارة الحربية بأن الصلح تم عقد بين مصر وانكلترا وان الاستعداد للحرب غير واجب فاجتمع بنظارة الحربية تحت رئاسة وكيلها مجلس من وكلاء النظارات ورؤساء الدواوين والمصالح والعلماء والأعيان للمداولة فى الأمر وقرروا إرسال وفد يدعو الخديو للحضور الي القاهرة فسافر الوفد وعاد مخبرا (عرابي) وأعضاء المجلس بأن الخديو لا يمكنه مبارحة الاسكندرية الا باذن خصوصي من الانكليز . فازداد حقد العرابيين على المغفور له { توفيق باشا } ونادى بعضهم بعزله . وكان وقتئذ (مصطفي باشا فهمى)

— رئيس الوزارة المصرية الآن — من أشد الناس ميلا لعرابي وأكثرهم مجاهرة بالانتصار لعمله وخطته !

وفي يوم ٢٠ يوليو عام ١٨٨٢ أصدر سمو الخديو اعلانا بعزل (عرابي) بحجة انه لم يتبع أمره ولم يرسل العساكر المصرية الى جهة العجمي لمنع الجنود الانكليزية من النزول الى البر وانه أخذ الجيش وتوجه الى كفر الدوار بغير اذن العزيز . وأبلغ سمو الخديو تلغرافيا أمره الصادر بعزل (عرابي) الي وكيل الحربية وأمره بابطال التجهيزات العسكرية. فجمع وكيل الحربية مجلسا حافلا حضره بعض أمراء العائلة الخديوية وأغلب العلماء ووكلاء النظارات ورؤساء جميع المصالح ووكلاؤها والمديرون وقضاة المديريات والمفتيون وكثير من أعيان الامة وفضلائها وتجارها. وكان عدد الذين حضروا هذا المجلس يزيد عن خمسمائة نفس وقد عرض عليهم وكيل الحربية تلغراف الحضرة الخديوية فقرروا بعد المذاكرة والمناقشة أن لا يتبع للخديو أمر وان يكلف (عرابي باشا) بالدفاع عن البلاد وصد الانكليز عنها . وقرروا كذلك تشكيل مجلس اداري للنظر في أحوال البلاد وحفظ النظام فيها. وختموا جميعا على هذا القرار وأرسلوه للحضرة السلطانية وأبلغوه رسميا لعرابي باشا

فكان الخديو وقتئذ مع الانكليز في الاسكندرية والامة كلها مع الجيش ضده وضدهم

هذا ما جري في مصر بعد ضرب الاسكندرية أما في أوروبا فقد أحدث ضرب الاسكندرية اندهاشا عاما وأرسلت الدولة العلية في مساء ١١ يوليو نفسه لكافة الدول الاوروبية احتجاجا ضد عمل الاسطول الانكليزي وسألتها

الاهتمام بالامر . فقرر أعضاء اللجنة الدولية بالاستانة — ولم يخالفهم مندوب انكلترا في ذلك لعلمه بان سواس تركيا سيعملون بنصيحة دولته — في ١٥ يوليو عام ١٨٨٢ إرسال مذكرة للباب العالى يكلفون فيها الدولة العلية باسم أوروبا بارسال جنودها لاحتلال مصر على شرط أن الدول تحدد اختصاصات القائد العثمانى الذى يرسل على رأس الجنود وأن لا يتداخل هذا القائد في ادارات مصر وأن لا يكون لهذا الاحتلال تأثير على امتيازات مصر الممنوحة لها بمقتضي الفرمانات السلطانية والاتفاقيات الدولية وان تتفق الدول على تحديد أجل للاحتلال التركي وان تكون مصاريف الحملة العثمانية على نفقة مصر . وقد أرسلت هذه المذكرة الى الباب العالي في مساء يوم ١٥ يوليو ولبثت الدول منتظرة الجواب عليها . وكان ولا محالة من صالح تركيا ومن صالح مصر أن تقبل الدولة العلية تكليف أوروبا لها باحتلال مصر وترسل جنودها المظفرة الي بلادنا العزيزة ولكن قضي على سواس تركيا أن يتبعوا نصائح الانكليز حتى بعد ضرب الاسكندرية ويجيبوا مندوبي الدول بأن قبول تركيا التكليف أوروبا لها باحتلال مصر يعد ماسا بحقوق الدولة التي هي صاحبة السيادة على مصر والتى لها الحق في ارسال جنودها اليها بغير تكليف من أوروبا . ولا يدهشن القارئ أن انكلترا كانت ذات وجهين في سياستها فهذه عادتها ومن القواعد الثابتة عند سواسها أن ارتكاب الامور الدنيئة في سبيل الوصول الي غرض كبير يعد أمراً شريفاً . فسواس بريطانيا كانوا يفهمون تركيا أن أوروبا تريد السوء لها وانهم لم يشتركوا مع

مندوبي اللجنة الدولية بالاستانة الا ليقفوا على نواياهم ويعرقلوا مساعيهم

وفي هذا الاثناء طلبت الحكومة الفرنساوية من مجلس النواب الفرنساوي تقرير المبالغ اللازمة لتجهيز السفن استعداداً للطوارئ وبقصد حماية قنال السويس عند الحاجة . فدارت المناقشة بسبب هذا الطلب على مسئلة مصر وتعاقب الخطباء على منبر الخطابة منددا بعضهم بالوزارة ومصوبا البعض الآخر خطتها وانتهت الجلسة بقبول طلب الحكومة وتقرير المبالغ اللازمة . ولم يكلف المجلس الوزارة باتباع خطة مخصوصة في مصر كما أنه لم يظهر موافقته على سياستها بل انتظر نتائج هذه السياسة

وقبل ان يبعث الباب العالي جوابه على مذكرة أعضاء اللجنة الدولية المرسلة اليه في ١٥ يوليو عرض مندوبا فرنسا وانكلترا على اللجنة تعيين الدولة أو الدول التي يجب عليها المحافظة على قنال السويس . ولكن أعضاء اللجنة انتظروا جواب تركيا على مذكرة ١٥ يوليو . وقد أرسل { سعيد باشا } للجنة الدولية في ١٩ يوليو جواب الدولة العلية على مذكرة ١٥ يوليو وهو عبارة عن قبول تركيا الاشتراك مع مندوبي الدول في مداولاتهم بشأن مصر . ولم يذكر شيء ما عن قبول الدولة أو رفضها لتكليف الدول لها باحتلال مصر . فهي بعد ان رفضت الاشتراك مع أعضاء اللجنة قبلت الاشتراك معهم وبعد ان كلفتها أوروبا باحتلال مصر أهملت هذا التكليف وأخذت تتناقش مع أعضاء اللجنة ! ومن الاسف الشديد أن يدوّن التاريخ هذه السياسة التي لم تخدم الا الاغراض البريطانية مع أن ساسة تركيا اشتهروا في كل الحوادث والازمات بالدهاء العظيم

وقد جرت المناقشة حينئذ فى يوم ٢٥ يوليو عام ١٨٨٢ فى مجلس الشيوخ الفرنساوى بعد أن جرت في مجلس النواب. فقبل المجلس تقرير المبالغ اللازمة لتجهيز السفن وتقوية البحرية ولكنه وجه الي الوزارة أشد الملام والتعنيف عن سياستها في المسئلة المصرية. وبعد أن أقر مجلس الشيوخ على طلب الحكومة عرض المسيو { فريسينيه } على مجلس النواب الفرنساوى تقرير مبلغ تسعة ملايين ونصف من الفرنكات لحماية قنال السويس فعين المجلس لجنة للنظر فى هذا الطلب والمناقشة مع الحكومة وتقديم تقرير للمجلس. وكان المسيو « فريسينيه » مختلفا في الرأى مع الاميرال « زوريجيبري » وزير البحرية بشأن احتلال قنال السويس. فكان هو يرى ان الجنود الفرنساوية يجب ان لا تحتل الا الشاطيء الشمالي للقنال وكان وزير البحرية الفرنساوية يري ضرورة احتلال الجنود الفرنساوية لمدينة « الزقازيق ». ولما علمت اللجنة التى عينها مجلس النواب لدراسة مشروع احتلال قنال السويس باختلاف الوزيرين في الرأى وبأن أوروبا لم ترض تكليف فرنسا وانكلترا باحتلال القنال وتركتهما يتحملان مسؤلية أعمالهما رفضت تقرير مبلغ التسعة ملايين ونصف وأظهرت برفضها هذا عدم موافقتها على خطة الوزارة وسياستها. ولما دارت المناقشة في مجلس النواب الفرنساوى يوم ٢٩ يوليو ١٨٨٢ على طلب مبلغ التسعة ملايين ونصف قام المسيو « فريسينيه » رح سياسته فى المسئلة المصرية ـ التى عرفها القاريء ن مبدئها ـ وسأل س اعلان ثقته بالوزارة فقام الخطباء واحدا بعد واحد وكلهم ندووا

بسياسة « فريسينيه » . وبعد انتهاء المناقشة كرر المسيو « فريسينيه» طلب الاقتراع على الثقة بالحكومة فأقر المجلس بأغلبيــة ٤١٧ صوتا ضــد ٧٥ صوتا على عدم ثقته بالوزارة وسقط بذلك المســيو (فريسينيه) وأعضاء وزارته . ولو كان مجلس النواب الفرنساوى تنبه لخطأ وزارة « فريسينيه » في سياســتها وأسقطها قبل ضرب الاسكندرية لكانت نجت مصر من مصائبها وخرجت فرنسا من الازمــة ظافرة . إلا أن المجلس ترك المسيو (فريسينيه) فى الوزارة مؤملا سيره على خطة قويمة وطريق مستقيم ولكنه لم يتبع الا سياسة خرقاء خدم بها انكلترا أجل خدمة وأضر بها فرنسا ومصر الضرر الجسيم

وقد أعلنت الدولة العلية اللجنة الدولية بالاستانة ببلاغ أرسلته اليها فى يوم ٢٨ يوليو عام ١٨٨٢ — أي قبل سقوط وزارة فريسينيه بيوم واحد — أنها تقبل ارسال جنودها لاحتلال مصر ولكنها تشترط جلاء العساكر الانكليزية عنها عنــد وصول الجنود التركية اليهــا . فأجاب اللورد (دوفــرين) على بلاغ الدولة العليــة بأن انكلترا لا تقبــل احتــلال الجنود التركية لمصر الا اذا أصدر جلالة السلطان « اعلاناً بعصيان عرابى » ! فهي بعد أن شجعت عرابي وحزبه وبعــد أن أوعزت الى تركيا المرة بعــد المرة بتشجيع الحزب الوطني ورئيسه سألت الدولة العلية ان تعلن عصــيان عرابى ! وفى الوقت نفســه كتب الخديوالي الاميرال « سيمور » كتابا سمح له فيه باحتلال قنال السويس وبأخذ كل الاحتياطات الضرورية لمنع العرابيين من الوصول اليه . وكان المسيو « دى لسبس » قد وعد « عرابي باشا »

بعدم احتلال الجنود الانكليزية لقنال السويس وعداً صريحا وطلب منه مقابل ذلك عدم احتلال الجنود المصريه له وعدم الاعتداء عليه. فقبل «عرابي باشا» سؤال المسيو «دي لسبس» وظن أن الانكليز يجتنبون احتلال القنال وفاء بوعد (دي لسبس) ولكن الانكليز من عاداتهم أن يأتوا كل أمر يفيدهم ولو كان فى ذلك مخالفة وعودهم الصريحة وأيمانهم العلنية!

أما اللجنة الدولية بالاستانة فانها ناقشت طويلا فى اقتراح قدمه المندوب الايطالي يتضمن احتلال كل دول أوروبا لقنال السويس احتلالا مؤقتاً فقبلت المانيا والنمسا والروسيا هذا الاقتراح. وكانت الروسيا أشد الدول ميلا للدولة العلية فى المسئلة المصريه واكثرها تقربا منها ـ وقد جرت في ذلك على السياسة التى أوضحناها في آخر الفصل السالف من انها تصافى تركيا اذا عادتها انكلترا — فعرضت عليها مساعدتها بكل مافي وسعها وتأجيل قبض الغرامة الحربيـة المتأخرة من حرب عام ١٨٧٧ لكي ترسل بجنودها لمصر

وفي ٢ أغسطس عام ١٨٨٢ احتلت الجنود الانكليزية الآتية من الهند مدينة «السويس». ولم تنفذ دول أوروبا مشروع احتلالها لقنال السويس لأن تركيا وعدتها باحتلال مصر. وكانت الحكومة العثمانية تتخابر مع اللورد (دوفرين) فى عقد اتفاقية حربية بخصوص الاحتلال المشترك لتركيا وانكلترا . وان اتفاق دول أوروبا عندئذ على احتلال قنال السويس وحمايته يعد اجماعاً منها على رفض الاحتلال الانكليزى وعدم الموافقة عليه

وقد جرت مناقشة في مجلس العموم الانكليزى يوم ١١ أغسطس عام ١٨٨٢ على المسئلة المصرية فصرح المستر (غلادستون) بأن مقصد انكلترا من احتلال مصر هو اعادة الأمن والسلام فيها وأنه سيعرض المسئلة المصرية على دول أوروبا لتسويتها التسوية النهائية

وفي يومى ١٩ و٢٠ أغسطس احتلت الجنود الانكليزية بور سعيد والاسماعيلية وأصدر الجنرال (ولسلي) أمره باقفال قنال السويس في وجه السفن التجارية ليسهل للسفن الحربية الانكليزية المرور فيه وانزال الجنود على شواطئه . وقد احتج المسيو (دى لسبس) على عمل الجنرال (ولسلى) ولكن هذا الاحتجاج لم يفد شيئاً ما . ولما انتشر خبر احتلال الجنود الانكليزية لقنال السويس هاجت الصحف الفرنساوية وسخطت على وزارة (فريسينيه) التي أضرت بفرنسا ضررا عظيما . أما الجرائد الالمانية فكانت لهجتها لهجة تهكم بفرنسا التي قضى شقاقها الداخلي على مصالحها في الشرق وكانت تصرح بأن ليس لالمانيا مصلحة في مصر سوى رغبتها في مساعدة تركيا صديقتها

وقد جرت الحرب بين الجيش المصري والجيش الانكليزى فى « المحسمة » يوم ٢٥ أغسطس عام ١٨٨٢ وقطع الانكليز عن المصريين خط الرجعة فانهزمت العساكر المصرية وكان معهم الشهم الصادق (راشد باشا حسنى) -- وليعتبر بهذا الشهم سائر المصريين فانه مع كونه جركسي الاصل انضم الي جيش (عرابى) عند ماعلم بأن الانكليز احتلوا الاسكندرية وانهم عازمون على دخول البلاد المصرية وقام للدفاع عن

الوطن العزيز ناسياً كراهة الجراكسة للعرابيين وكراهة العرابيين للجراكسة —

وعندئذ اتخذ (عرابي باشا) التل الكبير مركزاً له وتتابع ورود العساكر المصرية من القاهرة

ولم يمض الأيام قليلة بعد هذه الواقعة حتى انهزمت الجنود المصرية فى التل الكبير وسار الانكليز على القاهرة . وهذا ماذكره (عرابى باشا) عن واقعة التل الكبير في تقريره الذي كتبه بعد دخول الانكليز القاهرة وقبل سفره للمنفي حيث قال

« ومع ذلك حصل حركتان حربيتان جهة كوبرى القصاصين ثبت فيهما الجيشان ثباتا عظيما وجرح فى ثانيتهما سعادة راشد باشا حسني فاستبدله سعادة على باشا الروبى وقبل أن نتمكن من انشاء المتاريس كما ذكر عاجلتنا العساكر الانكليزية والهندية وهاجمتنا السوارى ومعها الطوبجية السواري التي تطير معها أينما طارت وعلى حين غفلة فى ظلام الفجر اشتعلت نيران الطوبجية والبيادة المهلكة من الطرفين مقدار ساعتين ثم أتت فرقة سوارى وطوبجيتها من وراء الجيش فكان ذلك سبباً لخذلانه وتشتته فى يوم الاربعاء ٢٩ شوال سنة ٩٩ الموافق ١٣ ستمبر سنة ١٨٨٢ افرنجيه . ولما حصل هذا الخذلان توجهت من الجبل الى بلبيس وسواري الانكليز على مقربة مني وهناك تقابلت مع سعادة على باشا الروبى فتوجهنا الى محطة انشاص ومن هناك ركبنا وابور السكة الحديدية وتوجهنا الى مصر فوجدنا أهل المجلس جميعه فى ديوان الجهادية وحضرات البرنسات أيضا حضروا الى الديوان وبعد المداولة والتيقن بان دولة الانكليز لا تريد الاستيلاء

على مصر تقرر أنه حيث الامر كما ذكر فلا يلزم مدافعة بعد ذلك اعتماداً على ان دولة الانكليز موصوفة بحب الانسانية والاعتدال وأنها متي تحققت الامر ووقفت على أفكار أهل البلاد لاشك انها تسعي فى تحريرهم وراحتهم وحفظهم ..... »

وإن الانسان لتستولى عليه الدهشة عند مايقرأ هذه الفقرة ويتساءل كيف ان (عرابى باشا) بعد مذبحة الاسكندرية وبعد ضرب الاسطول الانكليزى لهذا الثغر العزيز كان يثق بالانكليز ويقول عن دولة انكلترا انها موصوفة بحب الانسانية والاعتدال وان لالزوم للدفاع عن مصر مادامت انكلترا هى الداخلة فيها ؟ فهل كان { عرابي باشا } يعتبر مذبحة الاسكندرية عملا لائقا بدولة موصوفة بحب الانسانية والاعتدال ؟ أوهل كان يعتبر ضرب الاسكندرية دليلا على حسن نوايا الانكليز نحو مصر ؟

لاريب ان الانكليز قد استطاعوا ان يخدعوا بدهائهم تركيا كما قدمنا وان يخدعوا عزيز مصر ورجال الحزب الوطنى !.

وفي أثناء اشتعال نيران الحرب بين عساكر مصر وجنود بريطانيا كان الباب العالى يتخابر مع اللورد (دوفرين) فى عقد الاتفاقية الحربية وكان هذا الاخير يبذل جهده في تأخير سفر الجنود العثمانية ويقدم كل يوم شرطا جديدا ويغير كل يوم مادة من مواد الاتفاقية ويلح على الدولة بضرورة « اعلان عصيان عرابى » . وقد بلغ اللورد (دوفرين) متمناه وأصدر جلالة السلطان فى يوم ٥ سبتمبر عام ١٨٨٢ منشورا أعلن فيه « عصيان عرابي » وأمر الجنود المصرية وسائر المصريين بعدم اتباعه في أمر من الامور !

ولا ينس القارئ ان الدولة العلية عضدت قبل ذلك {عرابى} كثيراً وأن الحضرة السلطانية أنعمت عليه بالنيشان المجيدى الاول اظهاراً لرضاها عنه !

ولا ريب ان هذا الاعلان ـ الذى صدر قبل واقعة التل الكبير بأسبوع واحد ـ كان من شأنه ان يضعف همم الجنود والاهالي فان الجميع كانوا يعتبرون (عرابى) مدافعاً عن حقوق جلالة السلطان في مصر وحائزاً الرضى جلاله. واذا أضفنا الي ذلك ان الخديو السابق كان مع الانكليز ضد (عرابى) وانه كان متفقا معهم على خطتهم الحربية وانه أرسل معهم ضباطاً مصريين لارشادهم في سيرهم أدركنا حرج الموقف الذى كان صار اليه {عرابى} فى آخر الحوادث العرابية وقبل انهزام الجيش الهزيمة النهائية .

وقد كان الباب العالى لا يزال يؤمل احتلال مصر والاتفاق مع الانكليز ولكن الجنود الانكليزية دخلت القاهرة فى ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢ وبعد دخولها بثلاثة أيام أعلن اللورد (دوفرين) الباب العالى بأن لا حاجة لسفر الجنود التركية لمصر !!!

وهكذا خدعت انكلترا الدولة العلية. فانها أوعزت اليها بتعضيد(عرابى) عند ما كان من مصلحتها تعضيـده وخلق أسباب الشقاق والنفور بين المصريين وبعضهم وبين الحزب الوطنى وسمو الخديوى . ولما رأت أن مصلحتها تقضى عليها باعلان الحضرة السلطانية لعصيان(عرابى) سألت الدولة ذلك وأجيب سؤالها . ولما كلفت دول أوروبا الدولة العلية رسميا باحتلال مصر لم تجبها الدولة لطلبها بل قبلت الاشتراك فى مداولات اللجنة الدولية بالاستانة بعد ان رفضت ذلك . ولما ألحت عليها اللجنة

باحتلال مصر وقبلت هذا الاحتلال قضت زمنا طويلا في مخابرة اللورد {دوفرين} بشأن عقد اتفاقية عسكرية ولم تعجل بارسال جنودها لمصر وتركت سواس انكلترا يخدعونها أكبر خديعة ، وهو درس تاريخي يجب ذكره وتذكره في كل فرصة وفي كل آن . فان انكلترا لا تضر باعدائها الظاهرين مثل ماتضر بمن تتظاهر لهم بالصداقة

وبعد دخول الانكليز القاهرة أصدر الخديو أمراً بالغاء الجيش المصري وشرع بالاتفاق مع الانكليز في انشاء جيش جديد يكون تحت امرة ضباط من الانكليز

وقد رأي الانكليز بعد احتلالهم لمصر أن بقاء المراقبة الثنائية يعوق سيرهم ويضايقهم في أغراضهم فقرروا الغاءها . ولذلك أعلن السير كولفين المراقب الانكليزي في ٣٠ اكتوبر عام ١٨٨٢ الحكومة المصرية « بأنه بناء على أمر وارد اليه من حكومته لا يحضر من ذلك اليوم فصاعداً جلسات مجلس النظار » فكان في الحقيقة هذا الاعلان الغاء للمراقبة الثنائية لانها كانت زوجية والمراقب الفرنساوي وحده لا يستطيع تكوينها . وبذلك اعتدت انكلترا على نفوذ فرنسا في مصر وابتدأت في أعمالها العدائية ضدها

وقد سلم (عرابي باشا) ورفقاؤه أنفسهم الى الجنرال {لو} بعد دخول الانكليز القاهرة وجرت محاكمتهم امام محكمة عسكرية وكان المدافعون من {عرابي} محامين من الانكليز . وجرت المحاكمة بغاية السرعة وبعد أن حكم على (عرابي) وزملائه بالاعدام صدر أمر الخديو بتغيير الحكم بالنفي المؤبد . وكان دولتلو (رياض باشا) وزيرا للداخلية وقتئذ فلما رأى

أن المحاكمة جرت بغاية السرعة ولم تظهر المسؤولية الحقيقية فى الحوادث العرابية خلافا لرأيه قدم استعفاءه واعتزل الوزارة

وبذلك انتهت الحوادث العرابية المحزنة وخابت آمال المصريين وأفلح الانكليز فى سياسة الخداع والكذب والافتراء التي اتبعوها لاحتلال مصر وبلوغ غاياتهم وتحقيق مآربهم

*
* *

لقد اختلف المصريون والناس كافة فى الحكم على الحوادث العرابية وتوزيع المسؤولية على الاشخاص الذين كان لهم يد فيها . فمن قائل ان (عرابي باشا) كان متفقا مع الانكليز على تسليمهم مصر أى أنه كان خائنا لوطنه فاقد الذمة والشرف . وهو قول أراه غير صحيح بالمرة فان الرجل كان سليم النية وغاية ما يؤخذ عليه انه تعجل كثيرا وانخدع كثيرا. ومن قائل ان (توفيق باشا) كان متواطئا مع الانكليز من بادىء الأمر وكان يتظاهر بأنه لم يجد حيلة للتخلص من الحزب العرابي الا بدعوة الانكليز لاحتلال مصر . وهو قول غير صحيح أيضا فان (توفيق باشا) كان يعلم ان مصيبة الامم هي تداخل الاجانب فى أمورها وكان يود ولا محالة استقامة الاحوال بغير تداخل أجنبي ولكنه أفهم بعد ضرب الاسكندرية ان العرابيين يريدون خلعه أو الفتك به وان الدولة العلية مساعدة لهم على ذلك فلما لم يجد نصيرا من قومه ينصره ضد العرابيين ألقى بنفسه بين أيدى الانكليز محافظة على ملكه وعلى حياته . ولا ريب ان المغفور له (توفيق باشا) كان متألما من الاحتلال الانكليزى غاية التألم والذين سمعوه يشكو منه

يمكنهم أن يشهدوا بذلك أمام التاريخ . والافهل يعقل أن أميرا من سلالة (محمد على) يرضي عن طيب خاطر بتسليم ملكه وبلاده لدولة اشتهرت بالشره والاطماع ؟ وانما غاية ما يؤخذ به على المغفور له {توفيق باشا} فى كل حياته هو أنه كان كثير الميل للسلم حتى انه كان يضعف فى بعض الظروف ويظهر مستسلماً . ولاشك انه لوكان شديد الحزم قوي الارادة لكانت نجت مصر من أخطار كثيرة

ومع ذلك فانه يتعذر على المؤرخ أن يقدم لقرائه حكما صريحا على الحوادث العرابية وعلى الاشخاص الذين كان لهم شأن فيها . فان هنالك أسرارا كثيرة لاتزال مستورة لوظهرت وانكشفت لتغير الحكم على أمور جمة وعلى أشخاص عديدين

وعلى كل حال فان العبرة التاريخية التى تظهر للعيان من الحوادث العرابية هى أن الشقاق سبب ضياع الأمم وسبب دمارها فلولا الشقاق بين الحزب العرابي والجراكسة ماأوجدت الحوادث العرابية . ولولا الشقاق بين الحزب العرابي والمغفور له (توفيق باشا) ما كبرت الحوادث وتجسمت وتداخلت انكلترا فى الامر . ولولا الشقاق بين جلالة السلطان والخديو السابق ماوثقت الدولة العلية بانكلترا وما شجعت الحزب العرابى وما لجأ المغفور له « توفيق باشا » الى الانكليز ، وبالجملة لولا ذلك الشقاق المشؤوم مااحتل الانكليز مصرنا العزيزة

فيجب اذن على سائر المصريين ان يتحدوا كل الاتحاد فيما بينهم وان لايتركوا للاجانب والدخلاء وسماسرة السوء والفساد سبيلا لالقاء بذور

الشقاق بينهم وبين بعضهم . فنحن اليوم أمام أعداء كبار يعملون بالاتحاد بالرغم عن قوتهم فكيف بنا ونحن أقل منهم قوة ؛ انه ليجب على كافة أبناء مصر ان يتعلقوا بسمو الخديو المعظم أشد التعلق وان يدافعوا عن أريكته ولو ماتوا عن آخرهم ففي سلامة الخديوية الجليلة سلامة الوطن العزيز وكل سوء يمس عزيز مصر يمس مصر نفسها. وليس الحزب الوطنى فى مصر الآن ذا أميال مناقضة لأميال العزيز بل الرئيس الحقيقي لهذا الحزب - أي الامة كلها - هو سمو الخديو (عباس حلمي باشا الثاني) الذى أيقظ العواطف الوطنية في بلاد مصر ونبه الامة عن بكرة أبيها الى حقوقها المقدسة

ويجب على المصريين فوق ذلك أن يتمسكوا أشد التمسك بالرابطة الاكيدة التي تربطهم بالسلطنة العثمانية .وقد أدرك سمو الخديو المعظم هذا الواجب قبل كل انسان فجدد رثيث الصلة بين مصر والدولة العلية وملأ بذلك قلوب المصريين أملا في المستقبل وفي نجاة الوطن العزيز

*
* *

ما احتلت انكلترا مصر حتى أعلن سواسها ووزراؤها ان هذا الاحتلال مؤقت لا تريد به الدولة البريطانية سوأ لمصر وانها أرسلت بجنودها الي وادى النيل لتوطيد دعائم العرش الخديوى ولترقية شأن الامة المصرية وانها متى أتمت مأموريتها تركت البلاد لاهلها يديرون أمورها بغير سلطة أجنبية وبدون تداخل أجنبي . وإن الكاتب لو أراد أن يسرد تصريحات وزراء انكلترا وسواسها بشأن مصر ووعودهم العلنية بالجلاء عن بلادنا

العزيزة لملأ الصحف بهذه التصريحات وبهذه الوعود . فكم من مرة قام اللورد « سالسبورى » وأمثاله ونادوا على مسمع من أمتهم ومن أمم العالم كلها بأن شرف انكلترا يقتضى الجلاء عن مصر وان هذا الشرف الرفيع لا يسلم الا باعطاء المصريين بلادهم وتسليمهم زمام الامور فيها . وكم من مرة وقف رجال الحكومة البريطانية وأشهدوا العالمين على أنهم انما يخدمون المدنية والانسانية في مصر وأن الجلاء أمر مقرر . وكم من مرة أقسم ساسة بريطانيا بالشرف البريطانى وبتاج جلالة الملكة أن مآل مصر للمصريين وان الجنود الانكليزية خارجة من بلاد النيل بعد استتباب الامن فيها وتوطيد مركز الامير . وكم من مرة قال المستر { غلادستون } بصوته الرنان « ان امتلاك مصر شئ جميل ولكن الوفاء بوعود بريطانيا أشرف وأجمل »

وآخر تصريح من هاته التصريحات الجميلة هو الكتاب الذى بعث به الى المستر (غلادستون) فى يناير عام ١٨٩٦ وقال فيه :

« أما آرائى فانها لم تتغير قط وهى دائما انه يجب علينا ان نترك مصر بعد أن نتمم فيها بكل شرف وفى فائدة مصر نفسها العمل الذى من أجله دخلناها

وان زمن الجلاء عن مصر على ماأعلم قدوافى منذ سنين

ولما كنت في منصبي أخيراً أملت مساعدة الحكومات الاخرى توصلا الى تسوية هذه المسئلة (المصرية) المهمة . والسلوك الذي اتبعه المسيو وادنجتون (سفير فرنسا بانكلترا وقتئذ)فى عام ١٨٩٢ شجع أملي

غير ان المخابرات لم تخط خطوة واحـدة مع عظم ما أملنا اذ ذاك . ولست أدرى لاى سبب .....»

فاعترف المستر (غلادستون) بنفسه فى هذا الـكتاب بان زمن الجلاء قد وافى . أي ان العمل الذى من أجله دخلت انكلترا مصر قد تم منذ سنين . فلماذا لم تسحب انكلترا عساكرها من مصر ؟ ؟

وقد اغتر الـكثيرون من المصريين ومن سواس أوروبا أنفسهم فى مبدأ الاحتلال بهذه التصريحات الجميلة والوعود الصريحة وظنوا ان انكلترا التي دبرت مذبحة الاسكندرية بأسفل الوسائل والتي ضربت الاسكندرية بطريقة يأباها التاريخ وتعافها نفوس الامم كافة والتى لطخت شرفها فى الحوادث العرابية بدسائسها وخداعها ونفاقها أرادت أن تقـدم للنوع البشرى بعد الذى عملت ضد مصر مثلا من أمثال مدنيتها وبرهانا على صدقها في وعودها واحترامها لشرفها

ولكن أعمـالها فى مصر برهنت على ان وعودها الصريحة وعهودها العلنية لم تكن الا ستاراً لاطماعها ورمادا ألقته في أعين سواس أوروبا وفي أعين المصريين ودلت خطتها فى بلادنا الاسيفة على أن عبارات (الشرف البريطانى) و (تاج جلالة الملكة) و (مقام الامة البريطانية) التى كنا نحسبها مقدسـة يصح لسواس بريطانيا أن يسـتعملوها للتعمية والتغرير ؛ فلقد اتبعت انكلترا فى مصر سياسة واحدة ثابتة هذه مبادئها:

أولا . هدم كل سـلطة أوروبية وقتل كل نفوذ أجنبي «غير انكليزى» فى مصر

ثانيا . قتل النفوذ المعنوى لجلالة السلطان الاعظم في مصر وقطع الروابط التى تربط مصر بالدولة العلية شيأ فشيأ

ثالثا . سلب الجناب الخديوى سلطته والاستيلاء على الادارات المصرية . وطرد المصريين من الوظائف السامية وتعيين الانكليز مكانهم

رابعا . خلق الاضطراب فى مصر وايجاد الاسباب الموجبة لدوام الاحتلال

خامسا . نشر النمائم والاكاذيب فى أوروبا على المصريين

فلقد اعتدت انكلترا على حقوق فرنسا فى مصر وطاردت الفرنساويين فى المصالح بكل قوتها وعملت على إضعاف اللغة الفرنساوية فى المدارس ونشر اللغة الانكليزية . ولم يكفها الاعتداء على نفوذ فرنسا بل اعتدت كذلك على كل حقوق أوروبا وأعمالها الحديثة فى صندوق الدين وأظهرت لكل الدائنين وحملة القراطيس انها اذا استولت على مصر { لاقدر الله } بصفة نهائية قضت على حقوقهم ومصالحهم أشد قضاء . وخطتها في الهند وفى سائر مستعمراتها تبين جلياً انها اذا صارت صاحبة الكلمة الوحيدة في مصر قتلت تجارة أوروبا وواردانها فى بلادنا وحرمت على كل أوروبى المعيشة والتكسب على شواطئ نهر النيل . وهو أمر يعرفه كل الاجانب فى مصر . وقد كانت انكلترا فى السنين الاولي للاحتلال معتمدة كل الاعتماد في المسئلة المصرية على المانيا ولكن هذه الدولة عرفت فى الاعوام الاخيرة أن انكلترا هى اكبر عدوة لها . وقد قضت عليها مصالحها الصناعية والتجارية ان تنافسها فى كل بلد وفي كل ثغر . وإن تقدم المانيا في الاستعمار لحادث

من أهم حوادث السياسة المصرية فانه سيجعل العداوة بين انكلترا والمانيا فى مصر قوية شديدة مستمرة . ومن يعش ير

فلم يبق اليوم أحد من الاوروبيين يعتقد ان انكلترا تخدم فى مصر المصالح الاوروبية وان بقاءها فى بلادنا وازدياد نفوذها وسلطتها لا يضران بأوروبا

وكما ان الانكليز وجهوا عنايتهم لقتل نفوذ أوروبا فى مصر فانهم عملوا ما فى استطاعتهم لتنفير المصريين من الدولة العلية ومن جلالة السلطان الاعظم . فأوعزوا الى فئة من الدخلاء الذين لا وطن لهم ولا شرف ولا عقيدة بالطعن على جلالة الخليفة الاكبر والسلطان الاعظم وتشويه أعمال الدولة العلية وأحوالها . ولم يسمحوا بمحاكمة هؤلاء الطاعنين الذين يسبون الأمة المصرية وعقيدتها أعظم السباب بطعنهم على خليفة الاسلام وسلطان مصر

ولكن الانكليز لم يفلحوا ولن يفلحوا أبداً فى تنفير المصريين من الدولة العلية . فحب بنى مصر للدولة العثمانية ولسلطانها المعظم حب صادق امتزج بالدم وبالحياة ولا يخرج من قلوبهم الا مع الأرواح يوم ترد لخالقها جل شأنه . وقد وهب الله المصريين في سمو العباس أميراً عالي الذكاء بعيد النظر فقوّي دعائم الصلة بين مصر والدولة العلية وحقق بذلك أمانى المصريين عن بكرة أبيهم وبغية العثمانيين أجمع . وما أظهر العباس اخلاصه لسلطانه العلى الشان حتى حنق الانكليز عليهما ودسوا الدسائس ضد الدولة فى كل بلادها وخلقوا المسئلة الارمنية وأوحوا الى سماسرتهم فى الاستانة ببذر

بذور الشقاق والبغضاء بين العباس وبين جلالة السلطان الاعظم ، ولكن حكمتهما أحبطت المساعى الانكليزية وخرجت انكلترا من المسئلة الارمنية بالفشل والخذلان بفضل السياسة الحميدية النبيلة

والمجهودات العظيمة العديدة التى بذلتها انكلترا للتفريق بين مصر والدولة العلية وتكدير صفاء العلائق بين سمو الخديو المعظم وجلالة السلطان الاعظم هى دليل ساطع على أن فى الاتفاق بين مصر والدولة العلية سلامة مصر وخيبة انكلترا .

ولقد ادعت انكلترا قبل الاحتلال الانكليزى وبعده أن جل أمانيها تقوية السلطة الخديوية فى مصر وترقية شأن المصريين وجعلهم كفؤا لان يحكموا بلادهم بأنفسهم . ولكنها لما احتلت مصر جرت على نقيض ذلك فعملت على هدم السلطة الخديوية ودك أركانها وملأت المصالح والادارات بالانكليز وطردت المصريين من الوظائف السامية . وقد ظهرت أعمال الانكليز فى مصر ونواياهم ظهور الشمس في رابعة النهار في عهد سمو الخديو الحالي { عباس حلمى باشا الثانى } حيث جاء مطالبا بحقوقه الشرعية متمسكا بحقوق أمته واستقلالها فعارضته انكلترا ووجهت اليه على لسان جرائدها وصنائعها الطعن القبيح وصار الانكليز في مصر يقربون منهم كل دخيل أو كل خائن يتظاهر بكراهة الامير المحبوب وبمخالفة آرائه واحساساته ويبعدون عنهم ويعاقبون كل مخلص لسموه . وأصبحت القاعدة الاولى للتوظف في بلادنا التعيسة هى الجحود للوطنية وكراهة العزيز . فليكن طالب الوظيفة جاهلا ما استطاع وليكن

غير كفؤ ماأراد فانه يعين ويقدم ويساعد من الانكليز متى كان جاحدا للوطنية عدوا للعزيز . وهكذا قام الانكليز بوفاء وعودهم وعملوا على تقوية السلطة الخديوية وتوطيد دعائم العرش الخديوى !

ولكن مصالح الامة المصرية صارت اليوم متفقة مع مصالح الخديوية وصارت آمال الامة وأمانيها متفقة مع آمال سمو الخديو وأمانيه فيستحيل على بني مصر ان يبتعدوا عن سمو العزيز (عباس حلمي باشا) لحظة واحدة بل انهم سيحافظون على ولائه أبد الدهر وسيكونون على الدوام أنصاره وأعوانه . وكلما اعتدي الانكليز على حقوق سموه أو أظهروا كراهتهم لمقامه العالي ازداد تعلق المصريين بعرشه وتمكن من أفئدتهم الاخلاص لجنابه الرفيع

ولما رأت انكلترا ان إعادة الأمن والسلام الي ربوع مصر لاتحتاج لزمن طويل وان أوروبا ستطالبها بعد الاحتلال بالجلاء خلقت المسئلة السودانية ليطول احتلالها فى مصر وليبقى السودان خزان الاضطرابات والقلاقل . وقد عرف القاريء من أول هذا الفصل ان (اسماعيل باشا) قد عين بعض الانكليز حكاما على السودان فكانت وظيفتهم تنحصر فى ايجاد دواعي الاضطراب وتنفير السودانيين من المصريين ومن حكومة مصر . فألقوا بأيديهم بذور الثورة والهيجان في السودان بمال مصر نفسها حتي قامت الثورة العرابية واختلت أحوال بلادنا ودخلها الانكليز فرفع السودان راية العصيان فى وجه مصر كما ابتغت انكلترا . ولما كان فى مصر كثير من الجنود المصرية الاشداء وقت احتلال الانكليز لبلادنا العزيزة رأى سواس بريطانيا ان أول واجب عليهم هو اعدام

هؤلاء الجنود وحرمان مصر من أعز أبنائها فأرسلوا الحملات على السودان ودبروا هزيمتها حتى هزمت وفقدت مصر في ثلاث سنين أكثر من ستين ألفا من جنودها الاعزاء والذين نجوا من هاته الحملات المشؤومة يصرحون جهاراً بان الخطة التى سار عليها القواد الانكليز للجيش المصرى تدل دلالة لاريب فيها على انهم كانوا يقصدون الهزيمة وسقوطه في قبضة الدراويش

وقد طلب الانكليز من الحكومة المصرية تقرير سلخ السودان عن مصر فى يناير عام ١٨٨٤ حيث كانت مصلحتهم تقتضي ذلك وقتئذ فرفض (شريف باشا) قبول هذا الطلب بكل شمم ورفعة نفس وقدم استعفاءه تاركا المنصب للوزير الارمنى (نوبار باشا) الذى قرر فصل السودان عن مصر . ولما اقتضت المصلحة الانكليزية تسيير حملة على السودان استصدر الانكليز أمراً عالياً بذلك وأشركوا الجنود الانكليزية مع جنود مصر لتزداد المسئلة السودانية والمسئلة المصرية اشكالا وتعقيداً

وبالجملة فان انكلترا جعلت السودان خزاناً لسياستها فى مصر تخرج منه القلاقل والاضطرابات كلما رأت ضرورة لذلك وكلما نوديت بأن الامن استتب في مصر وأن لالزوم للاحتلال الانكليزي

ولما كان سلاح أوروبا ضد المسلمين هى مسئلة الدين وكانت انكلترا تهول دائما على أوروبا بأن المسلمين متعصبون فى الدين كلما اقتضت ذلك حاجتها فانها أذاعت في كل أوروبا بان المصريين متحفزون للقيام بالثورة ضد المسيحيين وان سلامة الاوروبيين فى مصر متعلقة بدوام الاحتلال

الانكليزى . وهي وشاية سافلة ينفيها تاريخ مصر ويدحضها ما اشتهر عن المصريين من التساهل والاعتدال وإكرام الغرباء والنزلاء ، ومذبحة الاسكندرية التي تذكرنا بها الصحف الانكليزية ليست بنت التعصب الديني عند المصريين بل هي ثمرة دسائس انكلترا نفسها وانه يستحيل على التاريخ أن يلقى على المصريين مسؤولية هذه المذبحة بل المسؤول عنها انما هى انكلترا دون غيرها

وكذلك أشاعت انكلترا في كل أوروبا أن المصريين قوم لا يصلحون لاستلام زمام أمور بلادهم وليسوا بأكفاء لأن يحكموا أنفسهم بانفسهم وانهم فى حاجة لمعونة ومساعدة الاحتلال الانكليزى . أى ان انكلترا لشفقتها على المصريين تركت أبناءها فى مصر يديرون أمورها ويطردون المصريين من الوظائف والادارات ! وإن تاريخ مصر فى عهد العائلة الخديوية لمملوء بالبراهين الداحضة لدعوى عدم كفاءة المصريين فان أبناء مصر هم الذين نظموها ورتبوا اداراتها وقادوا زمامها قبل الاحتلال الانكليزى . والذين تعلموا وتهذبوا من أبناء مصر هم ولا محالة أكثر بكثير من الذين كانوا متعلمين من أبناء بلغاريا وصربيا يوم فصلت أوروبا هاتين الامارتين من الدولة العلية وأعلنت استقلالهما . وقد بني الانكليز على دعوى عدم كفاءة المصريين أن مصالح الدائنين تكون فى خطر اذا سلمت مصر لابنائها وان فى الاحتلال الانكليزى خير كفالة وأحسن ضمانة لرعاية هذه المصالح . وهو قول تكذبه الشواهد والحقائق فان المصريين لا يرفضون قبول المراقبة الدولية على المالية المصرية ، والحزب

العرابى نفسه كان يعلن فى كل فرصة انه لايريد المساس بحقوق الدائنين وانه يقبل المراقبة الثنائية . واذا كان هناك خطر على مصالح الدائنين فهو فى بقاء انكلترا في مصر فان أطماعها وأغراضها سولت لها وضع يدها بواسطة الحكومة المصرية على جزء من أموال صندوق الدين للانتفاع به في الحملة السودانية واضطرت أن ترده ثانيـة عند ماحكمت عليها المحاكم المختلطة . ولكن بعـد أن تحقق الدائنون وحملة القراطيس من ان انكلترا لاتخدم فى مصر سوى مصالحها وانها تضحى مصالحهم فى سبيل سياستها ومآربها

*
* *

رأى القارىء مما سبق ان انكلترا دبرت مذبحة الاسكندرية وتركت هذه المدينة الزاهرة ميدانا للاشرار واللصوص فنهبت المخازن والاسواق واضطرت الحكومة المصرية لدفع التعويضات الطائلة بعد دخول الانكليز فى مصر . ولما رأت الحكومة المصرية انها فى عوز شديد للمال اقترضت فى عام ١٨٨٥ مبلغ تسعة ملايين من الجنيهات ودعت الحكومة الانكليزية الدول الاوروبية للاشتراك معها فى تقرير المسئلة المالية فى مصر . فاجتمعت لجنة دولية بلوندرة وقررت فى ١٧ مارس عام ١٨٨٥ جعل مصاريف الادارات المصرية فى كل عام خمسة ملايين من الجنيهات .

واتفقت الدول على عقد لجنة دولية أخرى بباريس فى ٣٠ مارس عام ١٨٨٥ نفسه لتقرير جعل قنال السويس على الحيادة وتقرير حرية

المرور فيه لكل دولة وفي كل وقت . فاجتمعت اللجنة الدولية فى باريس وتداولت في المسئلة واتفقت على جعل قنال السويس على الحيادة وختمت جلساتها فى ١٣ يونيو عام ١٨٨٥ ولكنها لم تتفق على نقطة واحدة وهي طريقة تنفيذ قرارها . فمندوب فرنسا عرض على اللجنة اناطة تنفيذ هذا القرار بلجنة مشكلة من مندوبين من كل الدول العظمي ومن مندوب مصرى يكون له رأي استشارى وجعل هذه اللجنة تحت رئاسة مندوب عثماني . ولكن مندوب انكلترا رفض هذا الاقتراح وعرض على اللجنة تكليف الحكومة المصرية (التى للانكليز فيها الكلمة النافذة) بتنفيذ هذا القرار الدولى المختص بقنال السويس

وهذا الاختلاف في طريقة تنفيذ القرار الدولى جعل عمل اللجنة لاغياً بالمرة لان المسئلة وقفت عند هذه النقطة. ويتضح للقاريء جلياً من اقتراح المندوب الانكليزى فى اللجنة الدولية أن انكلترا تريد مد سيطرتها على قنال السويس وجعله ترعة انكليزية واستعماله وقت الحرب ضد الدولة أو الدول التي تكون محاربة لها . وماعملته انكلترا فى قنال السويس أيام الحوادث العرابية مع وعدها السابق للمسيو (دى لسبس) بعدم المساس به وعدم ارسال جنودها اليه يدل بأوضح بيان على ان انكلترا لاتحترم عهدا ولا ترعى ميثاقا متى اقتضت مصلحتها انتهاك حرمة العهد والميثاق

وانه لايمكن للدولة الاوروبية ان تأمن خطر استئثار الانكليز بقنال السويس الا اذا حررت مصر وسلمتها لابنائها وجعلت حيادة قنال

السويس وحرية المرور فيه لكل دولة وفي كل وقت ، تحت رعاية الحكومة المصرية الاهلية الحرة لا تحت رعاية حكومة مصرية زمامها بأيدى الانكليز . فمسئلة قنال السويس هي من أهم المسائل التى تحتم على اوروبا الالتفات لمسئلة مصر والعمل على حلها . وان تقدم المانيا في الاستعمار وانتشار تجارتها في الشرق الاقصي لمن الامور التى تحتم على هذه الدولة فى المستقبل ان تكون أول الدول اهتماماً بمسئلة مصر وأكثرها عملا على تخليص بلادنا العزيزة من تحت نير الانكليز

*
* *

لقد عمل الانكليز فى عام ١٨٨٥ على أن يخدعوا تركيا مرة جديدة وينتفعوا بها ضد الروسيا بدون ان ينفعوها . وذلك انه لما اشتد الخلاف بين انكلترا والروسيا بسبب مسئلة الافغانستان أرسل اللورد سالسبورى الي الاستانة السير { درومندولف } بحجة عقد اتفاقية مع الباب العالي بشأن مصر تحل فيها عقد المسئلة المصرية . وكان المقصد الحقيقي من مأمورية السير { درومندولف } هو استمالة تركيا الي انكلترا والعمل على عقد اتحاد معاضد الروسيا وتغريرها بأن انكلترا مستعدة للجلاء عن مصر حتى تقبل عقد هذا الاتحاد . ولكن الخلاف بين الروسيا وانكلترا سوى فى لوندرة أثناء وجود السير {درومندولف} بالاستانة واتفقت الدولتان في ١٠ سبتمبر عام ١٨٨٥ على استيلاء الروسيا على « البندجية » وترك « ميروسحاق » و « ذوالفقار » الى الافغانستان . فانتهت بذلك مأمورية السير (درومندولف) في الاستانة ولكنه بقي فى العاصمة العثمانية زمناً لكى

لا تظهر حقيقة اغراض انكلترا . وقد اتفقت معه الحكومة العثمانية على ارسال مندوب عثمانى عال بصحبته الى مصر لدراسة أحوالها معاً ووضع اتفاقية بالاشتراك تعرض بعدئذ على تركيا وانكلترا للتصديق عليها . فسافر الى مصر مع دولة الغازى (مختار باشا) وأخذ يماطله طول عام ١٨٨٦ بدون فائدة ثم عاد فجأة الى لوندرة وترك المندوب العثمانى وحده ، وقد وضع عندئذ دولة الغازي (مختار باشا) تقريرا جليلا على تنظيم الجيش المصرى واسترداد السودان

ولما علمت الحكومة العثمانية والحكومة الفرنساوية بسفر السير (درومندولف) الي لوندرة سألتا الحكومة الانكليزية عن سبب هذا السفر فأجابتهما وزارة لوندرة بارسال السير (درومندولف) الى الاستانة للمخابرة مع الحكومة العثمانية مباشرة . ولما وصل السير (ولف) الى الاستانة — وكان ذلك فى عام ١٨٨٧ — عرض على الحكومة التركية مشروع اتفاقية بشأن مصر تتضمن انجلاء العساكر الانكليزية من مصر بعد ثلاث سنين من عام ١٨٨٧ (أي في عام ١٨٩٠) ولكن على شرط انه لو حصل قبل انجلائها اضطراب في مصر يدعو الى استمرار الاحتلال بقيت الجنود الانكليزية وأطيل أمد الاحتلال وأنه اذا حصل فى مصر بعد خروج العساكر الانكليزية منها أي هيجان أو أي اضطراب يكون لانكلترا وحدها دون سواها الحق في ارسال جنودها الى مصر

وقد قبلت الدولة العلية هذه الاتفاقية وأمضي عليها الصدر الأعظم في ٢٢ مايو عام ١٨٨٧ ولم يبق الا تصديق جلالة السلطان الاعظم عليها

. ولكن فرنسا لما علمت بها عارضت تصديق جلالة السلطان عليها كل المعارضة واستعانت بالروسيا على مساعدتها لدي الحضرة السلطانية . وهذه هى المرة الاولى التى اتفقت فيها فرنسا والروسيا على مسئلة سياسية بعد مؤتمر برلين .

وقد أرسل المسيو (فلورانس) وزير خارجية فرنسا وقتئذ منشورا لسفراء فرنسا فى الخارج أبان لهم فيه ان اتفاقية (درومندولف) تجعل احتلال انكلترا لمصر احتلالا أبدياً إذ انه يمكنها خلق الاضطرابات والقلاقل متى شاءت خصوصا وان المسئلة السودانية لا تزال قائمة . وأبان ان هذه الاتفاقية من شأنها محو سلطة الدولة العلية عن مصر . ومما جاء فى هذا المنشور قول المسيو (فلورانس) :

« وانا { أى فرنسا } بصفتنا دولة اسلامية في البحر الابيض المتوسط لا نقبل ابداً المساس بحقوق جلالة السلطان الاعظم . فان هذا المساس يكون ذا نتيجة خطرة جدا » . فكانت سياسة المسيو (فلورانس) ترمى الى احترام حقوق الحضرة السلطانية واستمالة المسلمين الخاضعين لفرنسا بالتقرب من جلالة السلطان وباحترام حقوق الدولة العلية

وقد نجحت فرنسا والروسيا فى اقناع جلالة السلطان الاعظم بسوء نية انكلترا وباضرار معاهدة (درومندولف) فرفض جلالته التصديق على هذه المعاهدة وغادر المندوب الانكليزي الاستانة عائدا الي لوندرة

ولم تحدث بعد ذلك مخابرات بشأن مصر الا فى عام ١٨٩٠ ولكن اللورد سالسبورى رفض صراحة فى هذه المرة تحديد أجل للجلاء

عن مصر

* * *

لقد اعتمدت دائما انكلترا في سياستها في المسئلة المصرية على ألمانيا والنمسا وايطاليا أي على دول التحالف الثلاثى. وقد صرح اللورد (غرانفيل) بعد احتلال الانكليز لمصر بأن البرنس (بسمارك) هو الذى نصح انكلترا بارسال جنودها الى وادي النيل. فالبرنس (بسمارك) كان يري ان احتلال الانكليز لمصر يشغل فرنسا عن مسئلة الالزاس واللورين ويخلق العداوة بينها وبين انكلترا ويجبر الدولة العلية على مصافاة ألمانيا والعمل على استمالتها ضد انكلترا. ولذلك ساعد الانكليز فى مصر كثيرا وبقيت دول التحالف الثلاثى زمنا طويلا عضداً قويا لانكلترا فى مصر. وكان من دهاء سواس بريطانيا أنهم خدعوا ايطاليا وأظهروا لها المودة والمحبة وسلموها بعض شواطيء البحر الاحمر وأوقعوها في شباك الاستعمار فاضطرت لمساعدتهم في مصر. ولما انهزمت جيوشها أمام الاحباش استغاثت بانكلترا وتوسلت اليها بألمانيا فاهتمت انكلترا بالأمر وتظاهرت بالميل لمساعدة الايطاليين وانقاذهم وجبرت الحكومة المصرية على إرسال حملة دنقلة بحجة نصرة ايطاليا وتخليصها من أيدي الاحباش والدراويش!!!

وبدهاء السياسة الانكليزية أفلحت انكلترا في الاعتماد على ألمانيا ودولتى النمسا وايطاليا حليفتيها فى مسئلة مصر وحققت كثيراً من أمانيها. وقد أفهم سواس بريطانيا رجال السياسة الالمانية ان فرنسا تنوي الاستيلاء على مصر وان جنودها تحتل مصر اذا خرجت هى منها. فانخدع لهذه

الاباطيل سواس ألمانيا واعتقدوا — أو تظاهروا بالاعتقاد — بأن المسئلة المصرية مسئلة فرنساوية وأن السعي فى الجلاء يكون خدمة كبري لفرنسا . وما تحادثت مع سياسى ألمانى في برلين الا وصرح لي بأن المانيا تعتبر المسئلة المصرية مسئلة فرنساوية وانها لذلك تفضل مساعدة انكلترا على مساعدة فرنسا

وهذا الاعتقاد الفاسد الراسخ فى أذهان الكثيرين من الالمانيين هو ولا شك من أهم أسباب مساعدة ألمانيا لانكلترا فى مصر . فبينما نرى السياسة الالمانية تعضد الدولة العلية كل التعضيد وتساعدها على إحباط مساعي انكلترا ودسائسها فى أرمنيا وكريد واليونان نري هذه السياسة نفسها نصيرة لانكلترا فى مصر !! كأن المسئلة المصرية غير مرتبطة بالمسئلة الشرقية وكأن مصر ليست بجزء من الدولة العثمانية !

ولكنه يمكننا أن نجزم بأن السياسة الالمانية لاتخدم المصالح الانكليزية فى مصر الي النهاية . فان علاقات المانيا مع انكلترا تكدرت كثيراً عن ذي قبل والمنافسة تزداد كل يوم بين الدولتين فى التجارة والاستعمار . ولاريب عندي ان السياسة الحميدية النبيلة تجذب اليها ألمانيا فى المسئلة المصرية كما جذبتها نحوها في المسئلة الشرقية . ولكن بلوغ هذه الغاية لا يكون الا اذا جاءت الظروف المناسبة وحانت الفرص . وفضلا عن ذلك فان مستعمرات المانيا فى أفريقيا وفى آسيا تقع تحت خطر عظيم اذا وقعت بلاد النيل في قبضة انكلترا وصارت ملكاً لها . فان مصر مفتاح افريقية وآسيا وماضيها وحاضرها ينذران الامم كافة بأن الدولة الحاكمة لها تكون

أقوي الدول بطشاً ويكون في استطاعتها أن تضر بمصالح العالمين

فمسئلة مصر ليست كبقية المسائل الافريقية والاسيوية بل هى المعضلة الكبرى فى سياسة هذا العصر . ولا يغرّن القراء تقدم انكلترا في مصر وازدياد سلطتها فيها وفي حكومتها فذلك لا يؤثر مطلقا على جوهر المسئلة المصرية نفسها . وسواء كان الانكليز في مصر ثلاثة أشخاص أو ثلاثة ملايين وسواء كانوا بغير سلطة أو أصحاب السلطة كلها فالمسئلة المصرية واحدة لا يؤثر عليها قلة عدد الانكليز فى مصر أو كثرتهم . وكما أن مصر كانت فى الماضي كنانة الله في الارض فهي كذلك لا تزال قبراً للامم الطاغية . وأفراد الانكليز الذين يحكمون على المستقبل بالماضى ويعرفون أن أدوار التاريخ تتجدد ولا تتغير حكموا صريحا بان دوام الانكليز في مصر خطر على الدولة البريطانية وأنه يكون سبباً لدمارها. ولقد قال اللورد (سالسبوري) أخيراً فى احدى خطاباته « ان سياسة الطمع هى سبب خراب الممالك العظمي » .فليعتبر هو نفسه وليعتبر سواس بريطانيا جميعا بهذه الحكمة العالية. فان سياسة بريطانيا فى مصر سياسة طمع وشره لا مثيل لهما . كيف لا وهي ترمى الى تأسيس مملكة افريقية تبتدىء من الاسكندرية وتنتهي عند رأس الرجاء الصالح وتعمل لهذا الغرض غير ملتفتة الى حقوق الأمم التى تستعبدها ولا الي المصائب التى تسقطها عليها ولا الي الدماء التى تسيلها فيها »»

ولقد أبنا في رسالة (اخطار الاحتلال الانكليزي) النتائج الخطيرة التى تنتج عن بقاء الانكليز فى مصر وأوضحنا ان وراء المسئلة المصرية

جملة مسائل سياسية من الخطارة والأهمية بمكان. فوراءها مسئلة تجارية دولية . ومسئلة البحر الابيض المتوسط . ومسئلة افريقية . ومسئلة اسيوية. ومسئلة مسيحية . ومسئلة اسلامية

فاذا استولت انكلترا على مصر صار من المستحيل على الاوروبيين القاطنين بها أن يعيشوا فيها فان انكلترا تضيق عليهم مسالك الحياة لينفرد أبناؤها بمكاسب مصر وخيراتها ولتكون أبواب مصر مفتوحة للتجارة الانكليزية دون سواها. وهذه سياسة انكلترا في كل بقعة ترفع عليها رايتها ويقضي عليها سوء الحظ بالوقوع فى قبضتها . ذلك فضلا عن ان التجارة الاوروبية يستحيل عليها عندئذ ان تصل الي السودان أو الى أواسط افريقيا فان طريق النيل البديع يكون محتكراً للانكليز وللتجارة الانكليزية ليس الا . فامتلاك انكلترا لمصر هو فى الحقيقة موت للتجارة الاوروبية فى مصر وفى السودان وفى افريقيا الوسطى وقضاء على الاوروبيين القاطنين بمصر

واذا امتلكت انكلترا مصر صار البحر الابيض المتوسط بحيرة انكليزية وضاعت الموازنة بين الدول الاوروبية . فان انكلترا يمكنها بواسطة جبل طارق ومالطة وقبرص وموانى مصر وقنال السويس ان تقتل بحرية كل دولة وأن تبقي وحدها سيدة البحر الابيض المتوسط. وهو خطر لامحالة عظيم على الدول الاوروبية لايمكن لها دفعه بغير تحرير مصر وتركها مستقلة فى إدارتها مستظلة بالسيادة العالية للدولة العلية

وامتلاك انكلترا لوادي النيل يجعل مستعمرات الدول الاوروبية

بافريقيا عديمة النفع ويضيع التوازن الدولي من افريقيا . فان بقية المستعمرات الدولية منفصلة عن داخل افريقيا بصحاري واسعة وجبال صخرية وعرة لا كوادى النيل يجرى فيه نهر عظيم يوصل التجارة وأصحابها الي أواسط أفريقيا ويسهل لاصحابه الوصول الي أي جهة من الجهات الافريقية

وكما ان الموازنة بين الدول فى افريقيا تضيع تماماً باستيلاء الانكليز على مصر فان هذه الموازنة تضيع أيضاً من آسيا اذا تمت لانكلترا الكلمة في وادى النيل . فان السياحة فى الشرق الاقصى وفى المياه الاسيوية تكون متعلقة باهواء انكلترا ورغائبها ومستعمرات الدول فى آسيا تكون تحت رحمة انكلترا . فبريطانيا التى أنزلت جنودها على شواطئ قنال السويس في عام ١٨٨٢ واستأثرت بمنافع القنال وقتئذ هى بعينها بريطانيا التى يمكنها متى اقتضت حاجتها ذلك أن تقفل قنال السويس في وجه الدول كافة وتفصل بينها وبين مستعمراتها الأسيوية

وقد علم القارئ مما كتبناه عن (مسئلة الشام بين مصر والدولة العلية)أن المغفور له (محمدعلى باشا) كان يريدالاستيلاء على الشام لتقوية ملكه فى مصرعملاً برأي نابليون من أن الشام ضرورى لمصر ومصر ضرورية للشام . فاذا استولت انكلترا على مصر هل تكون الشام وقتئذ فى مأمن من اعتداء الانكليز عليها ؟ وفى أية حالة تكون الدنيا اذاصار بيت المقدس والاماكن المقدسة فى أيدي بريطانيا البروتستانتينية؟ وماذا يعمل الكاثوليكيون والارثوذكسيون حين ذلك ؟ بل وماذا

يعمل المسلمون ،

إن استيلاء انكلترا على مصر لخطر عظيم على العالمين وحادث يجر على بنى الانسان اكبر المصائب وأشد النوائب . وقد يقول بعض الناس باستحالة تحقق هذه النتائج التى أتينا عليها أو ببعد إمكانها . ولكن رجال السياسة يجب عليهم أن ينظروا الى النتائج البعيدة وأن يتداركوا الاخطار الآتية ولو كان وقوعها بعد قرن أو بعد قرون

وقد قلنا ان وراء المسئلة المصرية مسئلة إسلامية وأوضحنا فى مقدمة هذا الكتاب ان انكلترا تعمل من يوم احتلالها لمصر على تقسيم الدولة العلية ولا ترى لوجودها فى مصر سلامة الا بهدم السلطنة العثمانية ووضع يدها على مصر بصفة نهائية وضم بلاد العرب اليها وجعل الخلافة عربية فى قبضة رجل يكون آلة لها . فلذلك كانت مسئلة مصر روح المسئلة الشرقية وكان وجود الانكليز فى مصر خطرا كبيراً على المملكة العثمانية .

ولذلك يجب على سوّاس الدولة العلية ان يهتموا بمسئلة مصر أشد الاهتمام وان يجعلوها في مقدمة المسائل الحيوية للدولة والملة . وكما أن انكلترا خدعتهم فى الحوادث العرابية أعظم خديعة دونها التاريخ فانه يجب عليهم ان يعملوا على إخراجها من مصر إرضاء لشرف الدولة العلية وانقاذاً لها من أشد الاخطار

ولا ريب ان أنظار المسلمين فى سائر أنحاء الارض موجهة الى مصر فهى بعد الحجاز البلاد التي يحج اليها المسلمون أكثر من سواها . ولقد ذكرت بلادنا العزيزة في القرآن الشريف ثلاثة وثلاثين مرة استلفاتاً

لأنظار المسلمين اليها ودلالة على أهميتها الخاصة بها بين البلاد الاسلامية .
وسماها الرسول عليه الصلاة والسلام بالرباط الاكبر لانه بواسطتها يمكن للخلافة الاسلامية ان تدافع عن المدائن المقدسة (بيت المقدس ومكة والمدينة)

وقد اعتبر المسلمون من عهد النبي الكريم ان بلاد الشام وبلاد مصر وبلاد العرب يجب أن تبقى الي الابد ملكاً للاسلام . فهذه البلاد هي التي سكنتها سلالة سيدنا الخليل (ابراهيم) عليه السلام الذي جري رسولنا الكريم على سنته وجاء متمما لدينه وشريعته . ولما دخل الصليبيون الشام أيام الحروب الصليبية قام المسلمون أجمعون لاسترجاعها وما هدأت أحوال العالم الا برجوعها في قبضة الاسلام . فكذلك مصر لا يطمئن المسلمون بها وباحوالها الا اذا خرج الانكليز منها وعادت تحت السلطة الاسلامية الحقيقية

واذا أضفنا الى ما تقدم ان مصر مشرق الانوار بين المسلمين ومهد العلوم والعرفان وأنها محط رحال الذين يريدون التعلم والتحصيل علمنا مقدار اهتمام العالم الاسلامي بأحوال بلادنا المحبوبة وعلمنا خطارة المسئلة المصرية بالنسبة للمسلمين خصوصا

ولا غرابة اذا كنا تكلمنا على المسئلة المصرية من الوجهة الدينية الاسلامية فان السياسة لا انفصال لها عن الدين . وبالاحساسات الدينية تقاد الامم أسهل مما تقاد بالاعتبارات السياسية . وقد أرتنا أمم أوروبا المتمدنة نفسها أن الدين أساس السياسة وانها مهما بلغت من الحضارة والمدنية فان الشعائر الدينية هي عامل من أهم العوامل في حياة الامم بل أهمها وأعظمها

. وأوضح دليل على ذلك تداخل أوروبا في شؤون الدولة العلية باسم الدين ومعاداة المسيحيين لليهود فى كل بلاد أوروبا وتظاهرهم ضدهم في مجالس النواب وفى الشوارع وفى المنتديات

وبالجملة فمسئلة مصر تعتبر أول مسئلة حيوية للدولة العلية وللخلافة الاسلامية . ودسائس انكلترا ضد الدولة فى المسئلة الارمنية وفى غيرها من المسائل تظهر للقاريء بأجلى بيان أهمية المسئلة المصرية وضرورة اهتمام العالم كله بها

واذ كانت مسئلة بلادنا بهذه الأهمية وكان خروج الانكليز منها مما لا بد منه عاجلاً كان أو آجلاً فيجب على سائر المصريين أن يتمسكوا بحقوقهم المقدسة أشد التمسك وان يطالبوا بها بكل الوسائل وفى كل وقت وآن . فأصحاب الحقوق فى مسئلة مصر عديدون ولكن اكثرهم حقوقا واكبرهم نصيباً هم ولا محالة المصريون

وقصاري القول انه يجب علينا أن نعمل لتقريب ميعاد الجلاء وان ننشر المعارف فى انحاء البلاد وفى سائر القرى حتي يعرف كل مصرى حقوقه وواجباته نحو الوطن والامة وحتى لا يعتدى لصوص الحرية على بني الوطن العزيز

وان الوطني الحقيقى هو الذي يظهر وطنيته فى وقت الشدائد ويقول ويعمل بهذا القول : « انى لو استطعت ان أغير وجه البسيطة لانقاذ بلادي لغيرته بدون تردد »

الأزمة السادسة

(المسئلة البلغارية والمسئلة اليونانية)

من عام ١٨٨٥ الي عام ١٨٨٧

علم القارىء مما سلف ان الروسيا أسالت دماء أبنائها في حرب عام ١٨٧٧ مع الدولة العلية وصرفت الاموال الطائلة لاخراج بلغاريا من تحت سلطة الدولة وتشكيلها إمارة قائمة بنفسها وانها فى معاهدة سان اسطفانوس اشترطت جعل البلاد التى يسكنها البلغاريون إمارة واحدة أى عدم تقسيم بلغاريا الي قسمين . وعلم القارىء أيضا أن مؤتمر برلين قرر فصل الاراضي البلغارية الى قسمين وتسمية القسم الجنوبى منها بالروملي الشرقي وجعله تحت سلطة تركيا مباشرة . وقد أبنا ان الروسيا بذلت غاية جهدها فى تحريض أهالى الروملي الشرقى على رفع لواء العصيان فى وجه الدولة العلية والانضمام الي بلغاريا . وكان ذلك عقب مؤتمر برلين أي لما كانت الروسيا تؤمل استعمال بلغاريا آلة لها في البلقان وتسيير أمورها حسب مرامها . ولكن البرنس (بسمارك) أوجد الشقاق بين الروسيا والنمسا فى بلاد البلقان وعلى الخصوص فى بلغاريا حيث استمال هذه الامارة الناشئة الي النمسا وجعلها فى دائرة نفوذها

ولما كانت العداوة بين الروسيا وانكلترا شديدة وكانت الروسيا تتقرب من فرنسا رأى سواس بريطانيا أن خير وسيلة تضمن لهم استمرار الاحتلال الانكليزى في مصر هي خدمة التحالف الثلاثى فى البلقان ومساعدة النمسا ضد الروسيا . فلذلك أرسل اللورد سالسبرى الى البرنس (ألكسندر

دي باتنبرغ) أمير بلغاريا رسائل التودد وأظهر له الميل الشديد حتى جعل هذا البرنس وجهته انكلترا وارتبط بالعائلة المالكة الانكليزية ارتباطاً أكيداً وعقد قران شقيقه البرنس { هنري دي باتنبرغ } على البرنسس { أليس } احدى بنات الملكة الانكليز . ومن ذلك الحين صار أمير البلغار آلة في أيدي سواس انكلترا والنمسا . فأوعزوا اليه باحداث انقلاب فى الروملي الشرقى يكون بالقبض على الحاكم العثمانى واعلان انضمام الروملى الي بلغاريا تحت امارته . فعمل بهذه الآراء والايعازات . وفي يوم ١٨ سبتمبر عام ١٨٨٥ قبض رجال الشرطة في الروملي الشرقي على (جافريل باشا) الحاكم العثمانى وتشكلت لجنة ثورية دعت الامة للانضمام الى بلغاريا فأجابت الامة الدعوة وفى ثانى يوم لهذه الثورة ذهب البرنس (ألكسندر) الى { فيلبوبوليس } وأعلن انضمام الروملي الشرقى الى بلغاريا وتولى زمام الأمور .

وفى يوم ٢٤ سبتمبر أرسل البرنس (ألكسندر) مذكرة رسمية لكافة الدول الاوروبية أخبرها فيها بحادث ١٨ سبتمبر وسألها اعتبار الروملي الشرقى جزأً من بلغاريا والتوسط لدي الدولة العلية لكي تعترف بهذا الانقلاب الجديد

وما انتشر خبر انضمام الروملي الشرقى الى بلغاريا فى أوروبا حتى ظن الكثيرون ممن يجهلون أسرار السياسة في البلقان ان الروسيا هي المحرضة على هذا الانقلاب وانه يسرها أن تري كل البلغاريين تحت حكومة واحدة وان تؤسس { بلغاريا الكبرى } . ولكن الحقيقة

مناقضة لذلك فان الروسيا رأت بعين السخط انضمام الروملي الشرقي الى بلغاريا وساءها تأسيس (بلغاريا الكبري) لانها كانت تودتأسيسها وهي ربيبة لها لا وهي عدوة تعمل بآراء النمسا وانكلترا . فلذلك احتجت على هذا الانقلاب واستعفي ضباطها الذين كانوا في الجيش البلغاري وطلبت من أوروبا عقد لجنة دولية بالاستانة للنظر في مسئلة بلغاريا لما في انضمام الروملي الشرقي اليها من مخالفة قرارات مؤتمر برلين فأجابت الدول سؤلها وقررت عقد لجنة دولية بالاستانة

أما الدولة العليـة فقد رأى وزراؤها انها مضطرة لقبول قرارات أوروبا وانه لايمكنها استرداد الروملي الشرقي بالقوة . ولكن جلالة السلطان الاعظم كان يرى ضرورة استعمال القوة والمحافظة على حقوق الدولة بكل الوسائل فأسقط وزارة (سعيد باشا) وأمر (كامل باشا) الذي كان وقتئذ سفيراً للدولة العلية في سان بطرسبورغ بتشكيل وزارة جديدة وعينه صدراً أعظم . وقد كان جلالة السلطان الاعظم يؤمل مساعدة الروسيا له ضد دول التحالف الثلاثي وضد انكلترا غير ان رجال السياسة الروسية أفهموا (كامل باشا) أنهم لايرون بداً من الانصياع لقرارات اللجنة الدولية المزمع عقدها بالاستانة . فاضطرت الدولة العلية لقبول تعيين مندوب من قبلها لحضور هذه اللجنة

ولقد كانت نتيجة انضمام الروملي الشرقي الى بلغاريا ان اليونان وصربيا قامتا مطالبتين بنصيبهما من أملاك الدولة العلية مقابل ما نالت بلغاريا وأخذت كل واحدة من هاتين المملكتين تجهز جنودها وتستعد للحرب . وقد حشدت

بلغاريا كذلك جيشها على حدود صربيا وعلى حدود الدولة العلية وكان يتخيل لكل انسان وقتئذ ان نيران الاضطراب في البلقان ستمتد الي أوروبا وتشمل الحرب فيها . فلما رأت ذلك دول أوروبا أرسلت في ١٥ اكتوبر عام ١٨٨٥ مذكرة الي الدولة العلية والي بلغاريا أبانت فيها انها غير موافقة على عمل بلغاريا وانها تحترم معاهدة برلين وحقوق جلالة السلطان ونصحت فيها بلغاريا بعدم حشد جنودها على الحدود التركية

وقد اجتمعت اللجنة الدولية بالاستانة في ٥ نوفمبر وبعد اجتماعها بتسعة أيام أعلن (ميلان) ملك الصرب الحرب على بلغاريا . ولما وصل اعلان الحرب الى البرنس (ألكسندر) أمير بلغاريا استغاث هذا الامير بالدولة العلية بصفتها صاحبة السيادة العالية على بلغاريا واستأذنها في رد الصربيين عن بلاد بلغاريا . وبعد اصطلاء نيران الحرب بزمن قليل انتصر البلغاريون على الصربيين فى (سليفنيتزا) وردوهم على أعقابهم خاسرين . وقد هاجت أوروبا لهذه الحرب وخافت عواقبها فأرسلت في ٢٤ نوفمبر عام ١٨٨٥ مذكرة الى الحكومة الصربية طلبت منها ان تسأل بلغاريا عقد الهدنة وعدم الاستمرار على إسالة دماء «الاشقاء» أي الصربيين والبلغاريين ..... فقبلت الصرب ذلك ولكن بلغاريا لم تقبل بحجة أنها المعتدى عليها وانها مضطرة لطرد الصربيين خارج حدودها . فاستمر البرنس (الكسندر) يحارب الصربيين وينتصر عليهم حتي وصل مدينة (بيرو) وعندئذ أنذرته النمسا بعدم التقدم الى الامام فوقف وقبل عقد الهدنة

أما الروسيا فقد بقيت على الحيادة أثناء الحرب ولكنها بالرغم عن

احتجاجها ضد ضم الروملي الشرقي الي بلغاريا هنأت البلغاريين على انتصارهم وشكرت شهامتهم . وهذا يدل على ان العواطف الدينية تتغلب دائما على الاميال السياسية وان الدين هو في أغلب الظروف رائد الامم والدول في سياستها

وقد استمرت اللجنة الدولية بالاستانة في مناقشاتها ولكن المندوب الانكليزي اجتهد في جعل هاته المناقشات بغير نتيجة فرفض تعيين حاكم عثماني للروملي الشرقي وإجبار البلغاريين على احترام معاهدة برلين

ولما رأت أوروبا ان جيش بلغاريا لايزال واقفا أمام الجيش الصربي قررت ارسال لجنة دولية مشكلة من بعض رجال العسكرية في أوروبا لفصل الخلاف بين المتحاربين فسافرت اللجنة الدولية وقررت انجلاء العساكر الصربية من ضواحي (فيدين) — وهى مدينة بلغارية — قبل انجلاء العساكر البلغارية من (بيرو) بيومين

وقد أرسلت الدولة العلية مندوبين الى الروملي الشرقي لدراسة أحوالها واستمالة الاهالي الى الدولة ولكنهما لم يفلحا في مأموريتها . وبعثت كذلك مندوبا عالياً الى البرنس (الكسندر) ليرشده في مخابراته بشأن عقد الصلح مع الصرب . وكانت انكلترا في ذلك الحين تظهر لتركيا المحبة والولاء وكان السير (درومندولف) في الاستانة يفهم رجال تركيا بان بريطانيا ترغب الاتفاق مع الدولة العثمانية وتقرير الجلاء عن مصر معها . فانخدع رجال السياسة التركية لاقوال السير (ولف) وازداد نفوذ انكلترا في تركيا وقتئذ ازدياداً عظيما . وكانت نتيجة هذا النفوذ

غبن تركيا فى مصروفي الروملى الشرقى غبنافاحشا . فان الدولة العلية رضيت أن تضحى الروملى الشرقى في سبيل خروج العساكر الانكليزية من مصر وتساهلت مع انكلترا فقبلت طلبها بشأن تعيين البرنس (الكسندر) أمير بلغاريا حاكما على الروملى الشرقى

*
* *

وقد أخذت اليونان تجهز معدات الحرب وتسلح جنودها وتستعد لمحاربة الدولة العلية . وفى ٣١ دسمبر عام ١٨٨٥ أرسلت الوزارة اليونانية — التي كان يرأسها وقتئذ المسيو (دليانيس) — منشوراً لوكلائها لدى الدول الاوروبية أمرتهم فيه بتبليغ هاته الدول بان اليونان لم تستول على كل ماقررته لها اللجنة الدولية بالاستانة فى عام ١٨٨١ وانها مستعدة لأخذ نصيبها من أملاك تركيا بالقوة والسلاح. فنصحتها أوروبا كما نصحت صربيا وبلغاريا بالقاء السلاح وبالكف عن حشد الجنود فلم ترضخ لنصيحة الدول واستمرت على غيها. ولما رأت أوروبا ان الحرب اذا قامت بين اليونان وتركيا كانت الطامة الكبرى على اليونان عملت على انقاذ هذه المملكة بالرغم عنها وقررت ارسال سفنها وأساطيلها في مياه اليونان لارهابها واجبارها على الخضوع والامتثال لارادتها. وقد تجنبت فرنسا الاشتراك مع بقية الدول فى هذه المظاهرة البحرية لما لليونانيين من المكانة في قلوب الفرنسويين

أما صربيا وبلغاريا فقد أنذرتهما أوروبا بمذكرة تاريخها ٣١ يناير عام ١٨٨٦ بانه اذا اعتدت احداهما على الاخري ساعدت أوروبا المعتدى عليها ولا تسمح للمملكة المعتدية بالاستيلاء على شيء ما من أراضى

المعتدى عليها. وقد كان البرنس (كاراجورجفيتش) صهر أمير الجبل الاسود يطوف وقتئذ عواصم أوروبا ويعمل لخلع الملك (ميلان) وتوليته مكانه ملكا على صربيا فاضطر الملك ميلان الى عقد الصلح مع بلغاريا بمدينة (بوخارست) فى ٢ مارس عام ١٨٨٦ لكي لاتتغير عواطف أوروبا من جهته

وقد طلبت الروسيا من دول أوروبا النظر فى المسئلة البلغارية وجعل تعيين البرنس (الكسندر) حاكما على الروملى الشرقى لمدة خمس سنوات فقط كما تقتضيه قرارات مؤتمر برلين . فرفض البرنس قبول هذا الطلب وعزم على معارضة الروسيا غير حاسب لنتائج هذه المعارضة حسابا . ولكن الروسيا توصلت الي تحقيق ماعرضته على أوروبا فقررت اللجنة الدولية بالاستانة في ٥ ابريل عام ١٨٨٦ جعل تعيين البرنس (ألكسندر) حاكما على الروملى الشرقي لمدة خمس سنوات وتعيين لجنة مشتركة من مندوبين من الدولة العلية ومن مندوبين من أمير البلغار لدراسة أحوال الروملى الشرقى والوقوف على احتياجاتها وعرض النظام الذى يتفق عليه المندوبون على اللجنة الدولية . فرضخ البرنس (ألكسندر) لقرار اللجنة الدولية بالاستانة وشكل مجلسا أهليا مشتركا من مندوبى الروملى الشرقي ومن مندوبى بلغاريا جعله بمثابة مجلس نواب

ولم تنكف اليونان في هذا الاثناء عن حشد جنودها على حدود تركيا ومعاداة الدولة العلية . فلما رأى الباب العالى ان هذه الحالة التى ليست بالسلم وليست بالحرب تضر بالدولة كثيراً وتحملها النفقات الباهظة والمبالغ الطائلة سأل الدول الاوروبية أن تجبر اليونان على سحب جنودها من

الحدود او أن تترك الدولة العلية تؤدبها بالحرب . فاهتمت اوروبا بالامر وقررت منع الحرب بين الدولة واليونان بكل الوسائط الممكنة وارسلت لهذا الغرض انذاراً للحكومة اليونانية بالقاء السلاح والكف عن الاعتداء على حدود تركيا والخضوع لرغائب اوروبا وأخبرتها فى هذا الانذار بانها تجبرها على احترام رغائبها بالقوة ان لم تحترمها من نفسها وبمحض إدارتها . وقد أظهرت فرنسا من بادئ الامر ميلها لليونان ولم ترض الاشتراك مع بقية الدول فى عمل مظاهرة بحرية . فلما انذرت الدول اليونان رأت من واجباتها ان تنصحها بصفتها نصيرتها الوحيدة بالرضوخ لاوامر اوروبا . فقدم الوكيل السياسي لفرنسا فى أثينا مذكرة للمسيو (دليانيس) بتاريخ ٢٣ ابريل عام ١٨٨٦ نصحه فيها بعدم اعلان الحرب على تركيا وبعدم مخالفة رغائب الدول الاوروبية فتظاهر المسيو (دليانيس) بقبول هذه النصيحة وفى ٢٥ ابريل من السنة نفسها بعث الي وكيل فرنسا بأثينا يخبره بانه قبل نصيحة الحكومة الفرنساوية وأنه سيعمل بها

ولكن الدول الاوروبية لم تقتنع بهذا الجواب لعلمها بان اليونانيين لا يصدقون فى أقوالهم وأنهم يريدون اصطلاء نيران الحرب في كل بلاد البلقان ليختطفوا شيأ من أملاك تركيا فارسلت الي الحكومة اليونانية فى مساء ٢٦ ابريل عام ١٨٨٦ انذاراً شديد اللهجة طلبت منها إعادة عدد الجيش الي ما كان عليه من قبل والكف عن كل عمل عدائي ضد تركيا والقيام بتنفيذ ارادة اوروبا فى مدة لا تزيد عن أسبوع واحد . ولا ينس القارئ أن أوروبا كانت تعمل لخير اليونان ومصلحتها فان الدولة العليا

كانت تهزم اليونان شر هزيمة لوكانت أعلنت الحرب . فلذلك كان تهديد أوروبا لليونان بمثابة انقاذ لها من الوقوع فى مهواة الخطر والاضمحلال .

وقد رفضت اليونان قبول الانذار الدولي وسافر وكلاء الدول بأتينا من عاصمة اليونان الا وكيل فرنسا فانه بقى بها بعدهم قليلا ثم غادرها بحجة انه يريد المداولة فى الامر مع المسيو (فريسينيه) وزير خارجية فرنسا . ولما رأت الدول ان اليونان تظهر الكبرياء والترفع عن الانصياع لرغائبها أمرت قواد أساطيلها فى مياه اليونان بمحاصرة الثغور اليونانية محاصرة شديدة حتى تمتثل الحكومة اليونانية لأوامر أوروبا الشفوقة عليها. فحوصرت الثغور اليونانية واضطرت وزارة (دليانيس) للاستقالة وفى ٢١ مايو عام ١٨٨٦ استلم المسيو (تربكوبيس) مقاليد الوزارة اليونانية فأعلن الدول الاوروبية بأنه مستعد للرضوخ لأمرها ولكنه في أثناء ذلك أوعز الى فرقة من الجيش اليونانى بالهجوم على طليعة الجيش التركى وادعى ان جيش جلالة السلطان هو المعتدي على جيش اليونان لتساعده الدول ضد الدولة العلية وترفع الحصار عن الثغور اليونانية . ولكن الدول تنبهت للحيلة وطالبت الحكومة اليونانية بالقاء السلاح وإعادة عدد الجيش الى ما كان عليه من قبل وسحب الجنود من الحدود . فامتثل اليونانيون للأمر وفي ٨ يونيو عام ١٨٨٦ رفعت الدول الحصار عن ثغور اليونان

وإن استعداد اليونان للحرب وتظاهرها بالعداء لتركيا فى عام ١٨٨٦

الدلائل جلياً على ان هذه الدولة كانت تستعد من عهد بعيد لمحاربة تركيا وأنها لم تغفل لحظة واحدة عن تسليح جنودها وتجهيز جيشها . فانهزامها فى الحرب الاخيرة دواء شاف لها من مرض غرورها . ولا أقول انه يشفيها الى الابد فان المرض كامن فى النفس وعداوتها للعثمانيين والمسلمين قوية لدودة . ولكن انتصارات (أدهم باشا) تشفيها من غرورها زمنا طويلا

وقد اجتهد في ذلك الحين البرنس (الكسندر دي باتنبرغ) أمير بلغاريا فى تحقيق انضمام الروملي الشرقي الى بلغاريا فانشأ الجمارك على حدود الروملي أمام حدود تركيا وصارت البضائع التركية لاتدخل فى هذه المقاطعة التركية الا اذا دفعت رسوم الجمارك وصرح أمام الجمعية العمومية التى شكلها كمجلس نواب لبلغاريا والروملى بان الوحدة البلغارية تكوّنت وانه لايستطيع انفصامها . فلما علمت بذلك الروسيا ازداد حنقها على بلغاريا وأميرها وأرسلت فى آخر يونيه عام ١٨٨٦ مذكرة الى الباب العالى سألته فيها أن يؤدب بلغاريا ويوقفها عند حد محدود فأجابها الباب العالى معتذراً بان بلغاريا معضدة من أغلب دول أوروبا . فعند ذلك أعلنت الروسيا أنها عازمة على جعل ثغر (باطوم) ثغراً حربياً روسيا لاثغر حرا . ولا يخفى ان ذلك يخالف المادة ٥٩ من معاهدة برلين ولكن الروسيا لما رأت ان معاهدة برلين غير محترمة من البلغار أرادت أن تنتقم من الدول المعضدة لهم وعلى الخصوص من انكلترا بجعل ثغر (باطوم) غير حر للتجارة . وقد احتجت انكلترا على عمل الروسيا ولكن احتجاجها لم يفد شيأ مذكوراً

وقد اجتمع مندوبو تركيا مع مندوبي أمير البلغار للنظر في شؤون الروملي الشرقي للاتفاق على وضع دستور لها ولكن الخلاف استحكم بينهم بشأن تابعيتها فمندوبو تركيا كانوا يطالبون بعلها كما كانت تابعة مباشرة للدولة العلية مع جعل البرنس (ألكسندر) حاكماً عليها ومندوبو البلغار كانوا يطالبون بضمها تماماً الى بلغاريا

ولما كانت كراهة لروسيا البرنس (ألكسندر) تزداد كل يوم فان هذه الدولة دبرت له دسيسة ظلية ترمي الى خلعه من امارة بلغاريا. وذلك انها أوحت الى جماعة بانشاء حزب يقوم بالقبض عليه ويخرجوه من بلغاريا ويؤسسوا حكومة مؤقتة. فعملوا بايعاز الروسيا وفي يوم ٢١ أغسطس عام ١٨٨٦ تمت المكيدة وقبض على البرنس (ألكسندر) وأرسل على باخرة لجهة غير معلومة. وزج المسيو (كارافلوف) وزيره الاول في السجن وأسس أصحاب المكيدة لجنة منهم للنظر في الامور ريثما يعين أمير جديد لبلغاريا.

ولا شك ان هذا الحادث الخطير كان ضربة قاضية على سياسة انكلترا في الشرق وكان من شأنه ان يزيد في النفور بينها وبين الروسيا. وقد حسبت انكلترا انه يمكنها مقاومة الروسيا في بلغاريا بمساعدة ألمانيا والنمسا واعادة البرنس (ألكسندر) أميراً على بلغاريا ولكن المانيا التي كانت بيدها سياستها وسياسة النمسا تخوفت من معاداة الروسيا الى هذا الحد وتركت مسئلة البرنس (ألكسندر) للظروف والحوادث. وكان الكثيرون من رجال السياسة يحسبون ان الامة البلغارية تقابل خلع البرنس (ألكسندر) بغير حراك وتمتثل لارادة اللجنة الثورية التي خانته بايعاز الروسيا ولكن الامة البلغارية

كانت متعلقة بالبرنس (الكسندر) ولم تنس انه نصرها على صربيا نصراً مبيناواًنه ضم الى بلغاريا (الروملى الشرقى) فهاجت وماجت وتظاهرت فى الشوارع والمنتديات العمومية بالميل للبرنس (الكسندر) طالبة اعادته أميراً عليها . وفي يوم ٢٤ أغسطس عام ١٨٨٦ أي بعد ثلاثة أيام من خلع البرنس {الكسندر} قبض الاهالى على أعضاء اللجنة التي خلعت البرنس وزجوهم فى السجن وشكلوا لجنة مكونة من المسيو (ستامبولوف) والمسيو {مارا فلوف} ومن آخرين بهيئة حكومة مؤقتة وكلفوهم باخبار البرنس (الكسندر) رسميا بأن الامة البلغاريه تريد رجوعه أميراً عليها . فأخذوا يبحثون عن مقر البرنس حتى علموا أنه فى المانيا فأخبروه تلغرافياً بالامر ودعوه للعودة الي صوفيا فسافر اليها في ٢٩ أغسطس عام ١٨٨٦ واستلم من الحكومة المؤقتة زمام الامور

وقد احتفلت أهالى بلغاريا بعودة البرنس {الكسندر} الاحتفالات العظيمة ولكن الروسيا بقيت على نيتها الأولى فلما رأى البرنس ان سلامته وسلامة ملكه في يد الروسيا ارسل الي القيصر تلغرافا عرض عليه فيه خضوعه لاوامره واستعداده لقبول كل مطالبه فأجابه القيصر بأنه لا يعتني بأمور بلغاريا الا اذا غادرها هو (أى البرنس ألكسندر). فكانت نتيجة اتباع هذا الامير لارشادات انكلترا تعصب الروسيا ضده وعدم مساعدة المانيا والنمسا له وابتعاد انكلترا نفسها عنه كل الابتعاد حتى أن وكيل وزارة الخارجية الانكليزيه صرح فى ٦ سبتمبر عام ١٨٨٦ أمام مجلس العموم بأن انكلترا لم تتعهد بشيء نحو بلغاريا وان ليس لها مصالح فيها

فلم يبق بعد ذلك كله للبرنس (الكسندر) الا أن يتنازل عن إمارة بلغاريا . وقد تنازل بالفعل رسميا في ٦ سبتمبر عام ١٨٨٦ وغادر فى ذلك اليوم نفسه صوفيا تاركا زمام الامور لمجلس مكون من المسيو (ستامبولوف) والمسيو (كارافلوف) والمسيو (موتكوروف) . وقد تخوف هؤلاء الاعضاء من احتلال الروسيا البلغاريا احتلالا عسكريا فاستلفتوا أنظار الدولة العلية للامر بصفتها صاحبة السيادة على بلغاريا فخابرت الدولة دول أوروبا ولما تحققت من انها لا تسمح لايه دولة باحتلال بلغاريا أخبرت الحكومة البلغارية المؤقتة بأن لاخوف على الامارة من احتلال الروسيا لها

وقد أرسلت الروسيا الي صوفيا بعد تنازل البرنس (الكسندر) الجنرال «كولبار» بصفة مندوب من قبلها لدراسة أحوال بلغاريا وارشاد الحكومة المؤقتة في سيرها . وماوصل الجنرال (كولبار) الي عاصمة بلغاريا حتى عامل الحكومة المؤقتة والامة البلغارية معاملة الامير لرعاياه فطلب من الحكومة المؤقتة : أولا الافراج عن أعضاء اللجنة التى قبضت في ٢١ أغسطس على البرنس {ألكسندر} وخلعته من إمارته . ثانيا إبطال الحالة العرفية . ثالثا تأجيل عقد مجلس النواب ـ الذى كان يجب أن يجتمع في ١٠ اكتوبر عام ١٨٨٦ لانتخاب أمير جديد ـ الي أجل غير محدود

وفى أثناء هذه الحوادث كلها كان الناس كافة يتساءلون فى أوروبا عن سبب مساعدة البرنس { بسمارك } للروسيا في بلغاريا بعد مساعدته للنمسا وانكلترا فيها . وقد اختلفت العلل التى نسبوها لمساعدة البرنس «بسمارك» للروسيا. ولكن الحقيقة هي ان رجل السياسة الالمانية رأي ان

الروسيا مستعدة لمحاربة النمسا اذا عارضتها هذه الدولة في البلقان وان المانيا تكون مضطرة لمساعدة النمسا اذا قامت الحرب فعمل على تأييد السلام. هذا فضلا عن ان الروسيا كانت تتحبب الى فرنسا وكان البرنس «بسمارك» يخشى انه اذا ساعد النمسا في بلغاريا ضد الروسيا تحالفت هذه الدولة الاخيرة مع فرنسا

وقد بذل الجنرال (كولبار) غاية جهده في استمالة البلغاريين اليه ضد الحكومة المؤقتة فسار بأنحاء البلاد والقرى ويخطب في كل ناد ولكنه لم يفلح ورفضت الحكومة طلبانه وحاكمت الذين قبضوا على البرنس (الكسندر) في ٢١ اغسطس ولم تؤجل ميعاد انتخابات أعضاء مجلس النواب الذي كان محددا في يوم ١٠ اكتوبر عام ١٨٨٦ كما قدمنا. ولما جاء هذا اليوم جرت الانتخابات ففازت الحكومة المؤقتة بأغلبية ٥٠٠ صوتا ضد ٥٠ صوتا وقررت عقد المجلس في آخر شهر اكتوبر بمدينة (تيرنوفا) العاصمة القديمة لبلغاريا. أما الجنرال (كولبار) فانه اعتبر الانتخابات لاغية بدعوى ان الحكومة المؤقتة ارتكبت الجرائم لارهاب الاهالي وأعلن أعضاء الحكومة بأن الروسيا تعتبر محاكمة الذين قبضوا على البرنس (الكسندر) بمثابة إهانة لها. وقد عمل الجنرال (كولبار) على خلق الاضطرابات في بلغاريا ليوجد سببا لتداخل الروسيا فيها تداخلا عسكريا وحرض الروسيين المقيمين ببلغاريا على مشاحنة البلغاريين ومخاصمتهم فحصلت بسبب ذلك مشاجرات كثيرة أفضت الى زيادة النفور بين الجنرال الروسي وأعضاء الحكومة المؤقتة. ولم يقبل أعضاء الحكومة المؤقتة الطلبات واحدا من

طلبات الجنرال (كولبار) وهو منع مجلس النواب من اعادة انتخاب البرنس (ألكسندر دي باتنبرغ) أميراً على بلغاريا

وقد اجتمع مجلس النواب البلغاري في ٣١ أكتوبر عام ١٨٨٦ وانتخب في ١١ نوفمبر البرنس (فالدمار دي دانمارك) أميراً على بلغاريا . وكان هذا الانتخاب موافقاً لمصالح بلغاريا وغير مخالف لرغائب الروسيا فان هذا البرنس هو شقيق قيصرة الروسيا (زوجة القيصر اسكندر الثالث ووالدة القيصر الحالي) . ولكن ملك الدانمارك رفض قبول تعيين نجله أميراً على بلغاريا فاضطر مجلس النواب البلغاري لتعيين المسيو (جيفكوف) حاكماً موقتاً لبلغاريا

ولا ريب ان الروسيا كانت تود احتلال بلغاريا وجعلها في قبضة يمينها ولولا ذلك لكانت سألت ملك الدانمارك أن يقبل تعيين ابنه أميراً على بلغاريا . ولما عرفت انكلترا رغبة الروسيا ونواياها الحقيقية سعت لدى النمسا للاتفاق معها ضد الروسيا وسافر لهذا الغرض اللورد (راندولف شرشل) الى فينا بعد انزار برلين . وفي ٩ نوفمبر عام ١٨٨٦ وقف اللورد سالسبوري في لوندرة خطيباً ووجه الملام الشديد الى الروسيا وانتقد سياستها وخطتها في بلغاريا وأعلن ان انكلترا مستعدة للاتفاق مع النمسا في المسئلة البلغارية ، فهاجت الجرائد الروسية وقابلت مطاعن الوزير الانكليزي بمثلها وطلبت من الحكومة الروسية قطع العلائق مع انكلترا واستدعاء السفير الروسي من لوندرة

وفي هذا الأثناء قطعت الروسيا علائقها مع بلغاريا لمخالفة الحكومة

المؤقتة لرغائبها وفى ٢٠ نوفمبر عام ١٨٨٦ غادر الجنرال { كوابار } صوفيا واستصحب معه كل قناصل الروسيا بعد ان علق في الشوارع احتجاجاً ضد أعمال الحكومة المؤقتة التي سماها بحكومة «اللصوص» وترك الرعايا الروسيين فى بلغاريا تحت حماية قنصل ألمانيا وفي الروملي الشرقى تحت حماية قنصل فرنسا

وقد عرض الباب العالي فى ٣ ديسمبر عام ١٨٨٦ على الدول الاوروبية تعيين البرنس (دى منجريلى) أميراً على بلغاريا ولكن الدول رفضت تعيينه بحجة أنه مبغوض من البلغاريين ومحبوب من الروسيا . ولما طال الامر وطال انتظار البلغاريين لتعيين أمير لهم أرسلت الحكومة البلغارية المؤقتة لجنة الي عواصم أوروبا لسؤال الدول التعجيل بالاتفاق على تعيين أمير لبلغاريا . فسافرت اللجنة الى ڤيينا حيث قوبلت فيها باحترام عظيم ثم قصدت برلين ولكنها لم تقابل فيها بمثل ذلك الاحترام وبعد ذلك سافرت الي باريس ولوندرة . ومن الصدف الغريبة أنها تقابلت في محطة { كولونيا } مع البرنس (ألكسندر دى باتنبرغ) خيته أجل تحية وأبلغته بقاء الامة البلغارية على ولائها له ولكن البرنس كان يعلم أن عودته الى بلغاريا صارت أمراً مستحيلاً . وبعد ان أتمت اللجنة رحلتها قصدت الاستانة العلية ورفعت الى مقام جلالة السلطان الاعظم فروض التابعية وأخذت تتخابر في عاصمة الدولة مع رجال تركيا ومع سفير الروسيا ولكن الاتفاق لم يحصل بينها وبين السفير الروسي . (فارسلت عندئذ الدولة العلية فى آخر شهر مارس عام ١٨٨٧ رضا بك)

الى صوفيا بصفة مندوب عال من قبلها لايجاد الوفاق بين الاحزاب البلغارية وبعضها وبعثت بمذكرة للدول الاوروبية أبانت لها فيها ان بقاء بلغاريا بهذه الحالة مضر بها وان التعجيل بحل المسئلة صار واجبا

ولما يأس البلغاريون من اتفاق الدول الاوروبية على تعيين أمير لهم عرضت الحكومة المؤقتة على مجلس النواب البلغارى انتخاب البرنس (فرديناند دي ساكس كوبور) فانتخبه المجلس فى يوم ٧ يوليو عام ١٨٨٧ أميراً على بلغاريا وأبلغه ذلك بصورة رسمية فأرسلت عندئذ الدولة العلية لدول أوروبا تسألها رأيها فى الامر فأجابت كل دولة على حدتها بانها تقبل تعيين البرنس (فرديناند) اذا وافق ذلك رغبة الدول كلها . الا الروسيا فانها أجابت بانها لا تقبل أي قرار يصدره مجلس النواب البلغاري . فامتنع بذلك اجماع الدول على تعيين البرنس (فرديناند) . أما البرنس نفسه فانه بعد ان بقى متردداً بين القبول والرفض بضعة أيام قبل امارة بلغاريا وسافر الي صوفيا في ١٠ أغسطس عام ١٨٨٧ وعند وصوله اليها أرسل للحضرة السلطانية تلغرافاً أعرب فيه عن صدق اخلاصه وعن أمله في مساعدة الدولة العلية له . وفى ١٤ أغسطس أدي امام مجلس النواب البلغارى يمين الاخلاص للامة البلغارية والعدل في الاحكام . وفى ١٨ أغسطس زار مدينة (فيليبوبوليس) عاصمة الروملي الشرقى مظهراً بذلك انه لا يرضي بترك هذه المقاطعة للدولة العلية . وقد شكل الوزارة البلغارية بعد ذلك تحت رئاسة المسيو (ستامبولوف) أشد أعداء الروسيا فى بلغاريا

وقد سأل الباب العالى الحكومات الاوروبية عن رأيها بشأن جلوس

البرنس (فرديناند) علي كرسي إمارة بلغاريا فأجابت الروسيا بان الدولة العلية يجب عليها التداخل فى بلغاريا وطرد البرنس منها وأجابت بعض الدول الاخرى بضرورة الاتفاق مع الروسيا فى الأمر . فعرضت الروسيا على الدولة العلية ارسال الجنرال الروسي (ارنروت) الي بلغاريا لتوطيد الامن فيها وخلع البرنس (فرديناند) فقبلت الدولة العلية ذلك ولكنها اشترطت على الروسيا اشتراك مندوب عثمانى مع (إرنروت) فى مأموريته .وفي هذا الاثناء كلفت انكلترا والنمسا وايطاليا قناصلها في صوفيا بمقابلة البرنس { فرديناند }واعتباره أميراً على بلغاريا. فكان هذا العمل بمثابة اعتراف من هذه الدول الثلاث بتعيين البرنس { فرديناند }

ومن حسن حظ البرنس{فرديناند} ان المخابرات لم تنجح بين الدولة العلية والروسيا وبقيت الحالة علي ماهي عليه وسارت بلغاريا فى عهد وزارة المسيو { ستامبولوف } على سياسة مناقضة لسياسة الروسيا بالمرة . ولم تعتدل سياستها وتحسن علاقاتها مع الروسيا الا بعد سقوط {ستامبولوف} وقتله واعتناق البرنس (بوريس) ولي عهد بلغاريا وابن البرنس { فرديناند} للدين الارثوذكسى في هذه السنين الاخيرة . ولم يعترف جلالة السلطان الاعظم بتعيين البرنس (فرديناند) أميراً على بلغاريا الا بعد تحسن علاقاته مع الروسيا . وقد دل ذلك على ان بين الروسيا والدولة العلية ألفة ومودة . وبعد اعتراف الحضرة السلطانية بتعيين البرنس { فرديناند } أميراً على بلغاريا اعترفت به الدول جمعاء . وبذلك انتهت

ومن الامور المحزنة ان كل أزمة من أزمات المسئلةالشرقيـة تنتهي بسلخ جزء أو أجزاء من أمـلاك الدولة العليـة فقـد فقـدت الدولة في هذه الازمة الروملي الشرقي وأضاعت نفيس أوقاتها في مخـابرات لا نفع فيهاولاجدوى

(الأزمة السابعة)

(المسئلة الأرمنية)

لقد اعتقد بعض سواس الدولة العلية زمناً طويلا ان الدولة الوحيدة التي يجب مصافاتها والتقرب منها والعمل بارشاداتها هي دولة انكلترا دون سواها من الدول الاوروبية . ورسخ هذا الاعتقاد في أذهان الكثيرين حتى انه كان يستحيل على أحد سواس الدولة العثمانية ان يتنبأ بمصير هذه المودة الانكليزية القديمة وبالعداوة الشديدة التي أصبحت تجاهر بها انكلترا نحو الدولة العلية . ومن يطلع على مذكرات وزراء تركيا السالفين ووصاياهم يجدان أكثرهم كانوا ينصحون سلاطينهم باخلاص الود للدولة الانكليزية وباتخاذها الصديقة الوحيدة بين دول أوروبا . ولا ريب ان ثقة الدولة العلية بانكلترا أضرت بها ضرراً بليغا وكانت سبباً لحروب عديدة فقدت فيها تركيا المال والرجال والبلدان . وان كل عارف بتاريخ انكلترا وبسياستها في ماضيها وحاضرها لا يرتاب لحظة واحدة في ان الدولة الانكليزية لا صديق لها وان صداقتها المزعومة للدولة العلية لم تكن سلاحا للاضرار بالدولة العلية نفسها وآلة تكسب بها من المكاسب بقدر ما تجر على تركيا من الخسائر

وما السياسة في عرف الانكليز الا علم الكذب والنفاق والحيل فهم لا يعرفون مع السياسة شرفا ولا يحترمون عهداً ولذلك كانوا في الحقيقة ألد أعداء الدول التي يتظاهرون لها بالصداقة والولاء وكانت الدول المعادية لهم سالمة من مكائدهم ومن خداعهم

ولم يرتفع الستار تماما وتنكشف حقيقة أميال الانكليز نحو الدولة

العلية الا فى عام ١٨٩٣ عند ماأظهر سمو العباس انه لا يعرف له متبوعا غير الحضرة السلطانية ويمم دار السعادة لتأدية فروض التابعية والاخلاص لصاحب الخلافة العظمي . فان الانكليز مادخلوا مصر الا بسبب الشقاق بين المتبوع الاعظم والتابع وما توطدت سطوتهم فيها الا بذلك الشقاق المشؤوم . فكان من الامور البديهية ان تقرب عزيز مصر من الحضرة السلطانيـة يضر بمصالحهم فى مصر ويحرج مركزهـم فيها ويلبس المسئلة المصرية ثوبا جديداً فى أعين الناس كافة . ولذلك هم بذلوا الجهد الجهيد في تنفير سمو العزيز من السلطنة السنية ولما لم يفلحوا اخـذوا ينفرون صاحب الخلافة من أمير مصر فخبطت كذلك مساعيهم في هذا السبيل . وبعد زيارة سمو الخديو للاستانة في المرة الاولي انتشرت الاشاعات فى كل دوائر أوروبا السياسية بأن الانكليز يسعون لدي الدولة العلية فى خلع سمو الخديو الحالي وان جلالة السلطان الاعظم يقابل هذه المساعي بزيادة الانعطاف نحو أمـير مصر وزيادة اظهار الرعاية له ولشعبه ولبلاده . وقد تكررت هـذه الاشاعات وأكدها الكثيرون من رجال السياسة الاوروبية وانتظر الكل عندئذ حصول فتور وجفاء في العـلائق بين الدولة العثمانية ودولة بريطانيا . الا انه لم يكن يخطر على بال أحد وقتئذ ان انكلترا تعمل على هدم السلطنة العثمانية انتقاما منها وتخلق الاضطرابات والثورات فى قلب المملكة التركية تشفياً من صاحب الخلافة الاسلامية. ولكن انـكلترا اشتهرت بانها لاتقف أمام عائق لبلوغ غايتها وإدراك بغيتها فقد سلحت الارمن البروتستانت وألقت عليهم التعليمات باحداث

هيجان عام فى كافة انحاء المملكة العثمانية والاعتداء على المسلمين فى كل بلد عثمانية ووعدتهم بالمساعدة والتداخل وايجاد مملكة أرمنية مستقلة. وبالجملة لم تجد انكلترا وسيلة لوضع يدها نهائياً على وادى النيل سوي خلق المسئلة الارمنية

وكان لانكلترا في الثورة الارمنية جملة مقاصد . فهى كانت تريد قبل كل شيء زعزعة أركان الامن والسلام في تركيا وإضعاف سلطة الحكومة العثمانية وإرهاب جلالة السلطان الاعظم وإجباره على الخضوع لرغائبها والعمل بأوامرها . وكانت انكلترا تعلم علم اليقين ان اضطراب الاحوال فى تركيا وقيام المسيحيين ضد المسلمين والمسلمين ضد المسيحيين وما شاكل ذلك من الامور يدعو حتماً إلى تداخل أوروبا في الامر وتحزبها ضد الدولة العلية إذ الحقائق تنشر في أوروبا مقلوبة وطالما اعتدي المسيحيون على المسلمين وادعت جرائد أوروبا ان المسلمين هم المعتدون وانهم وحدهم المقترفون لكل الآثام . وكان الانكليز يعلمون أيضا ان تداخل أوروبا في مسائل تركيا وتحزبها ضدها يملآن قلوب المسلمين غلا وكراهة للمسيحيين ويشجعان المسيحيين على الاستمرار في خططهم الثورية فيزداد بذلك البلاء ويعم الدمار والفناء وتنزل المصائب على تركيا وتحل البلايا بالسلطنة العثمانية . وازدياد كراهة المسلمين لاوروبا كان من شأنه أن يجعل المصريين فى يأس من نجاة وطنهم وتداخل الدول فى صالحهم فيستسلمون للانكليز ويعتدل سمو الخديو مع المحتلين. وهذا جل ما كان يتمناه الانكليز من تحزب أوروبا ضد الدولة وضد الاسلام

وغير ذلك فان انكلترا كانت تعمل بتحزيبها الاوروبا ضد الدولة العلية وضد الاسلام على تفهيم المسلمين كافة بانها القائدة لزمام أوروبا وانها صاحبة الامر والنهي فى سياسة الدول ليمتلأ بذلك المسلمون رهبة منها وتزداد سيطرتها في العالم الاسلامى . وكانت السياسة البريطانية ترمى الي أحد أمرين إما ارهاب جلالة السلطان الاعظم وتسييره حسب أهوائها وأغراضها وأما خلعه وتولية من يكون بالطبع صنيعةً لانكلترا وأسيراً لها . ولاريب ان خلع جلالة السلطان الاعظم كان يكون سببا لقلاقل لاعدادلها وداعية لاضطراب عام فى كافة نحاء العالم العثمانى والاسلامى . فمن ذا الذى كان يرضى من العثمانيين ان تسقط أوروبا السلطان العثماني وتتداخل في شؤون الدولة العلية لهذا الحد ؟ ومن ذا الذى كان يرضي من المسلمين ان تنزل أوروبا المسيحية خليفة الاسلام عن عرش خلافته ؟ ومن ذا الذى كان يري من العثمانيين والمسلمين هذا الامر الخطير بعين الرضا والسكون ؟ ومن ذا الذى كان يقبل الخضوع لسلطان عينته أوروبا ولخليفة أجلسته على عرش الخلافة دول المسيحية بعد ان خلعت خير سلطان وأشرف خليفة ؟ بل وماذا كان يعمل الكاثوليكيون لو توصل جلالة السلطان الاعظم الى خلع حضرة البابا ؟ ... أى الي عمل ماتريد انكلترا أن تعمله معه

ان تحقيق أمنية انكلترا بخلع جلالة السلطان الاعظم كانت تكون تحقيقا للشرور والمصائب والبلية التى لم ير النوع البشرى مثيلا لها فى تاريخه

وقد أوضحنا فى مقدمة هذا الكتاب ان انكلترا تريد هدم السلطنة العثمانية وتقسيم الدولة العلية ليسهل لها امتلاك مصر وبلاد العرب

وجعل خليفة الاسلام تحت حمايتها وآلة فى أيديها . وهي تقصد بتقسيم الدولة العلية غير ذلك إحداث حرب عمومية في أوروبا وإضعاف فرنسا والروسيا . فان الموازنة الاوروبية لاتتم الا ببقاء الدولة العلية وسلامتها. واذا قسمت هـذه الدولة (لاقـدر الله) قامت الثورات فى كل انحاء الشرق وهاجت أمم البلقان وصار كل يطالب بشيء فيم الهيجان وتقوم الحرب العمومية ولا محالة . وبمـا ان الانكليز كانوا يؤملون نوال مصر وبلاد العرب فانهم كانوا يرضون ترك الشام لفرنسا والاستانة للروسيا ولا يخفى ان إستيلاء فرنسا على الشام والاماكن المقدسة من شأنه ان يقيم فى وجهها كثيراً من الامم المسيحية ويثير المسلمين كافة ضدها ويجعل مستعمراتها الافريقية والاسيوية التى أهلها مسلمون مشتعلة نيران الثورة فى سائر أنحائها . كذلك استيلاء الروسيا على الاستانة فانه كان يغير بالمرة وجه الوجود ويفقد الموازنة الاوروبية ويقيم ضـد الروسيا كل المسلمين التابعين لها وغير التابعين . فان الاستانة تعتبر فى نظرنا معاشر المسلمين قلعة الاسلام وحصنه الحصين والمدينة التى يجب المحافظة عليها أكثر من سواها بعد مكة والمدينة . فقد وعد الرسول عليه الصلاة والسلام الفاتح لها بالجنة دليلا على مالها من الشأن والاهمية

ومن ذلك يري القارىء ان انكلترا عملت بايجادها للمسئلة الارمنية على تدمير ملك آل عثمان وضعضعة السلطة الاسلامية وإذلال العثمانيـين والمسلمين وإحداث حرب عامة في الغرب وفي الشرق

*
* *

وقد والت انكلترا الأرمن بالتشجيع والتحريض على متابعة الثورة والهيجان وما فتئت ترسل اليهم الذخائر والاسلحة وتحضهم على الاسترسال في التمرد والعصيان فعملوا بتحريضها وتلطخوا بدماء الجرائم والفظائع متسلحين في كل أعمالهم بالاسلحة الانكليزية. ورأى العالم هذه الطائفة التي كانت عائشة في بحبوحة السعادة والرفاهية والتي كان يسميها العثمانيون « بالملة الصادقة» والتي لها في مناصب الحكومة والادارات وفي التجارة والصناعة الشأن الاول تثور ضد الدولة العلية هذه الدولة العادلة المعتدلة التي أراد أحد ملوكها اجبار المسيحيين على اعتناق الدين الاسلامي فعارضه العلامة أبو السعود وأرجعه عن عزمه . هذه الدولة التي تركت للارمن وغيرهم حرية دياناتهم وتقاليدهم واحترمت رجال دياناتهم كعلماء المسلمين ..... .

ولما جرت محاكمة ثوار الارمن في عام ١٨٩٣ أمام محاكم (انقره) ظهرت الحقيقة التي لا ريب فيها وتبين للعالمين ان انكلترا هي الموعزة لهم بالثورة والمحرضة لهم على شق عصا الطاعة للدولة العلية. فقد ضبط رجال البوليس العثماني كاتب أسرار الجمعية السرية المدبرة لحركة الثورة وبين يديه أوراقه المشتملة على اكثر أسماء الاعضاء واتضح أن الارمن البروتستانت هم وحدهم القائمون بالثورة دون الكاثوليك وان لهم جمعيات سرية داخل الدولة العلية وخارجها وان هذه الجمعيات تمد بالمال الجرائد الارمنية الثوروية وعلى الخصوص جريدة (هنتشك) التي هي أهمها. وقبض كذلك رجال البوليس العثماني على بعض المبعوثين الامريكان البروتستانت الذين كانوا يشتركون مع الارمن في تدبير الدسائس فاحتج سفير الولايات المتحدة على القبض

عليهم وطلب الافراج عنهم فتعطفت الحضرة السلطانية وسمحت له بارسال مندوب من قبله للتحقيق فى أماكن الواقعة فسافر المندوب ولما عاد قدم تقريرا قال فيه ان التحقيقات التى أجراها الحكام العثمانيون منطبقة على العدل وان الذين قبض عليهم من مبعوثي البروتستانت لا يستحقون المساعدة ولا الرأفة

وقد أبان التحقيق فى قضية ثوار الارمن أمام محاكم (أنقره) أنهم كانوا يجمعون الاموال باسم المستشفيات المراد انشاؤها وكانوا ينفقونها على شراء الاسلحة ونشر الافكار الثورية وترويجها بين سفلة الارمن وان رجال الدين من الارمن والرهبان كانوا يساعدونهم ويسكنون بعضهم في الكنائس وان مدينة (مرسيوان) جعلت مركزاً لاكبر جمعية . واستدل من التحقيق على ان بعض رجال السياسة الانكليزية كالمستر غلادستون شجع سراً بكتابات خصوصية بعض رجال الدين من الارمن على الثورة واحداث القلاقل فى تركيا ووعدهم بمساعدة انكلترا وتعضيدها وتشكيل امارة أرمنية مستقلة

وأبان التحقيق كذلك أن ثوار الارمن كانوا يخطبون فى جمعياتهم السرية ضد الدولة العلية ويحرضون سفلة قومهم علي السلب والنهب وقطع الطريق وارتكاب الفظائع والجرائم حتي تعتقد أوربا ان الارمن أمة حية وتعمل لاخراجها من تحت سلطة الدولة العلية . وأبان التحقيق أيضا انهم كانوا متفقين على رموز واشارات للتعارف بها كرفع الشوارب ومس الآذان وتغطية الوجه وما شاكل ذلك وانهم كانوا يتزيون بزى الاتراك والاكراد

والجراكسة ويفتكون بالمسلمين وبعض الارمن أنفسهم لتشيع الجرائد في أوروبا ان المسلمين متعصبون وأن الارمن يقاسون العذاب اشكالا وألوانا . واتضح من التحقيق أن ثوار الارمن كانوا يسرقون الخيول ويسلمونها لراهب اسمه (دانيال) اشتهر بالمهارة الفائقة فى صبغ الخيول وتغيير ألوانها ثم يبيعونها بعد ذلك وانهم كانوا يهددون من لا يريد الانخراط في سلك جمعياتهم بالقتل وكانوا يقتلون كل من يفشي أسرارهم

وأثبت التحقيق جلياً ان ثوار الارمن كانوا ينشرون فى انحاء المملكة العثمانية اعلانات باسم المسلمين تحرض الامة على اشهار العداوة لجلالة السلطان الاعظم والمناداة بخلعه . وقد عثر المحققون فى هذه القضية المهمة على نصوص هذه الاعلانات مطبوعة فى جريدة (هنتشك) الارمنية التى تطبع في لوندرة

وقد جرت المرافعات فى هذه القضية أمام محاكم أنقره وأظهر حضرة المفضال محمد عارف بك أفندى المدعي العمومى بأجلي بيان أن المحرك لهذه الفتنة هم أعداء الدولة العلية وانه يجب القصاص من هؤلاء الثوار المجرمين الذين خانوا عهد الدولة والوطن . ومن أصدق العبارات التى قالها فى مرافعته قوله :

« ان رعايا جلالة مولانا السلطان الاعظم من الارمن الذين هم من مدة ستمائة سنة مغمورون في بحار تفضلات الدولة العلية واحساناتها والذين هم برعاية مولانا العادل ممتعون بالراحة والعدل محافظون مثل بقية الرعايا العثمانية المخلصة على وطنيتهم وحريتهم الدينية وآدابهم ولغاتهم

وظلوا كل هذه القرون لم يتعرض لهم أحد بسوء لا لاخلاقهم ولا لحيثياتهم المدنية ولا لاموالهم ولهم فى كافة الولايات والمدن والنواحى كنائس كبري شائقة شاهقة ومدارس عليا آهلة عامرة ومجالس روحانية حرة . فنحن بغاية الاسف نرى أشخاصا منهم ينصاعون للتأثيرات الشيطانية التى يلقيها عليهم أعداء المملكة فيرتكبون من وقت الى آخر وفي كثير من الجهات والنواحي جرائم لا توافق شروط الامانة والصداقة

وهذه الاعمال الفظيعة التي يراها الرأى العام منافية للانسانية وشريعة المروءة ومن نتائج الكفران بالنعم ونكران الجميل استوجبت بالطبع تنبه الحكومة الشاهانية وتكدر جلالة السلطان الاعظم وأثارت عواطف الاسف والحزن بل والخجل عند جميع العقلاء من طائفة الارمن ،

وقد صدرت على المجرمين احكام مختلفة فحكم على بعضهم بالاعدام وحكم على البعض الآخر بالسجن . وصاروا عبرة لغيرهم من الاشرار والمفسدين . ولا يحيق المكر السيء الا بأهله

وقد تلطف جلالة السلطان الاعظم وعفا عن بعض المجرمين وعدل الحكم على الآخرين فكان ذلك منه منتهي الرحمة قصارى والاحسان ودليلا ساطعا على ان خليفة المسلمين رؤوف بكل رعاياه على السواء لا كما يدعيه كتاب الانكليز وخطباؤهم زوراً وبهتانا

وان قضية { انقره } لموعظة كبرى لسائر المسلمين فهي تبين مقدار عداوة الانكليز للدولة العلية وللاسلام وتظهر خبايا السياسة البريطانية وتكشف النقاب عن حقيقة الصداقة المزعومة التي كانت تتظاهر بها

انكلترا نحو الاتراك والمسلمين . فلم يبق بعد هذه القضية الشهيرة شك ولا ريب في ان الانكليز يعملون على تدمير المملكة العثمانية واثارة عواطف المسيحيين فى كل بقاع الارض ضد المسلمين أى انهم يعملون لارجاع أزمان الحروب الصليبية . فليتذكر من يريد أن يتذكر من بنى الدولة العلية ومن بنى الاسلام

*
* *

ما ارتفعت نيران الثورة الارمنية وقام الارمن باظهار ثمرات تدبيراتهم وثمرات التلقينات الانكليزية حتي هبت الجرائد البريطانية موجهة الى الدولة العثمانية سهام الشتائم والقبائح طاعنة على جلالة الخليفة الاعظم الطعن السافل البذىء مدعية كذباً ان جلالة الخليفة هو الموعز للاكراد بالفتك بالارمن وقتلهم هم ونسائهم وأطفالهم . وهى أكذوبة لم ير التاريخ لها مثيلا . فان كتاب الانكليز الذين كانوا يسطرون هذه الشتائم والمطاعن الساقطة كانوا يعلمون حق العلم ان رجال السياسة البريطانية هم الموعزون للارمن بالثورة وان الارمن هم المعتدون . وفى أغلب الاحيان كان كتاب الانكليز الذين يطعنون على الدولة العلية وسلطانها الاعظم هم أنفسهم من الموعزين للارمن بالثورة ومن المحرضين لهم على الاسترسال في شق عصا الطاعة والعصيان . وهى رواية غريبة فى بابها يجب على التاريخ أن يدونها بغاية الاعتناء ليعرف الاعقاب كيف تخدم انكلترا الانسانية وكيف تحمي المسيحيين فى الشرق . . . . . .

ولم تكن حركة الخواطر في انكلترا بشأن الارمن الاحركة سياسية وحركة دينية فى آن واحد .فرجال السياسة كانوا يؤملون الوصول بالثورة الارمنية الى هدم المملكة العثمانيـة والاستيلاء بصفة نهائية على مصر بلاد العرب ، وبما انه كان يستحيل عليهم أن يفهموا العامـة من قومهم هذه الغاية البعيدة فقـد أهاجوا خواطر الشعب الانكليزى بعوامل الدين . فكنت ترى الكنائس ميدانا لاعداء تركيا ولاعـداء الاسلام وكانت منابرها مهبطا لادنى الشتائم الموجهة للدين الحنيفي ولخليفة المسلمين وكان رجال الدين البروتستانتى من اكبر العاملين على تهييج الافكار في مسئلة الارمن وكانت أغلب المجتمعات التى تعقد لمساعدة الارمن تعقد تحت رئاستهم حتى انه كان يخيـل للانسان ان الامة الانكليزية بسواسها ورجال دينهـا ليست من أمم القرن التاسع عشر بل أمة من أمم المسيحية أيام الحروب الصليبية بعثت لتذكير المسيحيين بوجوب معاداة المسلمين ومطاردتهم. ..

ومن أكبر الدلائل على تعصب الانكليز ضد الدولة العلية وضد الاسلام ان المستر (غلادستون) زعيم حزب الاحرار فى انكلترا قام نصيراً للأرمن وطعن على صاحب الخلافة الاسلامية الطعن المر واتهمه بأنه هو السافك لدماء الارمن الآمر بقتلهم وبالفتك بهم وكان فى كل خطاباته يعلن بصوته الرنان انه لا ينتصر للأرمن بصفتهم مسيحيين بل انه ينتصر لهم بصفتهم من النوع الانسانى ويصرح جهارا بأنه يخطب في صالح المسلمين اذا لم ينصـف المسيحيون المسلمين في بقعة من بقاع العالم. ولما كان بعض السذج من المسلمين الذين يعجبون بكل شيء فى أوروبا حتى بسياسة دولها ضد العثمانيين وضد

المسلمين يظنون ان المستر (غلادستون) صادق في دعواه فقد كتبت الى هذا السياسي الانكليزى العظيم في صيف عام ١٨٩٦ كتاباً ذكرته فيه بأنه كتب لى فى يناير عام ١٨٩٦ نفسه « ان زمن الجلاء عن مصر قد وافى منذ سنين » وبأنه صرح فى كل خطاباته بأنه مستعد لمساعدة المسلمين وللدفاع عنهم اذا رآهم فى حاجة لمساعدته ولدفاعه وسألته القاء خطبة فى انكلترا على مسمع من سواس بريطانيا وكتابها لتذكير بني قومه بضرورة الجلاء عن مصر والوفاء بالوعد واحترام شرف جلالة الملكة وشرف التاج الانكليزى فاجابنى المستر (غلادستون) بجواب مدهش للغاية وهو « انى نصير للجلاء عن مصر ولكني لا استطيع التداخل فى مسئلتها لانى لا سلطة لى فى بلادي ولست الا أحدا بنائها الخصوصيين »

فكيف يدعي المستر غلادستون انه عديم السلطة فى بلاده عند مايطالب بالدفاع عن المصريين وبمطالبة انكلترا بالجلاء عن مصر وهو بعينه المثير لعواطف الانكليز ضد الدولة العلية وضد المسلين ؟ أيكون قوي السلطة عالى الصوت فى مسئلة الارمن وعديم السلطة خافت الصوت فى مسئلة مصر ؟ أين اذن صدق المستر (غلادستون) فى قوله انه مستعد للدفاع عن المسلمين اذا رآهم في حاجة للدفاع عنهم ؟ أوليس الواجب على المستر (غلادستون) ان يذكر حكومة بلاده بوجوب احترام التعهدات العلنية الصريحة والمعاهدات الدولية المختصة بمصر قبل ان يطالب الحكومة العثمانية باحترام المادة (٦١) من معاهدة برلين ؟ ألا يعلم المستر (غلادستون) انه يجب على انكلترا أن تحترم وعودها وعهودها

قبل أن تطالب الحكومات الاخرى باحترام مادة من مواد معاهدة دولية؟ أوليس رفض المستر (غلادستون) قبول المدافعة عن مصر والمطالبة بالجلاء عنها بمثابة اعلان لتعصبه ضد الدولة العلية وضد المسلمين ؟ ألا يدل هذا الجواب الذى بعث به الي المستر (غلادستون) دلالة صريحة على ان سواس بريطانيا يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم ؟

ان تعصب المستر (غلادستون) وأصحابه ضد الدولة العلية وضد المسلمين واضح لا ريب فيه . وقد أظهره لاوروبا بعض الكتاب المنصفين . ولكن أجدر هؤلاء الكتاب بالذكر هو (الفيكونت دى كورسون) الفرنساوي فانه وضع رسالة (١) أبان فيها دسائس الانكليز فى المسئلة الارمنية وأعمال ثوار الارمن وفظائعهم . وانا نقتطف من هذه الرسالة الجليلة بعض شذرات للاستشهاد بها فى هذا المقام :

أوضح الكاتب في أول رسالته ان الجرائد الانكليزية كانت تتنبأ بكل الحوادث الارمنية وقال فى صحيفة (٦) بهذا الصدد

« والواقف على مسئلة الارمن بحذافيرها يتحقق لديه انه ما من حادثة وقعت في البلاد التى اصطلح الانكليز على تسميتها بارمينيا الا وتكون الجرائد الانكليزية فى لندرة قد أنبأت بها قبل حدوثها بزمن طويل جدا فتراها تبين لقرائها نوع الحادثة التى ستقع ومكان وتاريخ وقوعها كما فعلت فى حادثة وادى (تالورى) ولا يجدر بالعاقل ان يتخذ هذا الانباء بالمستقبل ضربا من ضروب التبصر الذي امتازت به الجرائد الانكليزية بل لا بد أن

(١) وقد اعتني بتعريبها حضرة الفاضل محمد أفندى مسعود

يذهب في تفسير معماه الى مافسره به من قال ان الثورة الارمنية أشبه شيء ببضاعة جهزها الانكليز في مجتمعاتهم السياسية وأخذوا فى تصديرها حسب الطلبات الى جهات معلومة »

واستدل الكاتب على كذب الجرائد الانكليزية بأقوال بعضها حيث كتب فى صحيفة (١٠):

«ولقد اعتنينا اعتناء تاما بجمع مانشرته الجرائد المشار اليها في هذا الموضوع وثابرنا على هذا العمل مدة طويلة ثم أمعنا النظر فيه وضاهينا بين أجزائه فظهر لنا من المناقضات بين أقوال الجريدة الواحدة ومن الاختلاقات الواضحة مايدع القارىء فى ذهول واستغراب. مثال ذلك أن بعض الجرائد كانت ترثى لحال الارمن وتصف ما نابهم من الذل والهوان وما حاق بهم من المصائب والنوائب بعبارة يضطرب لها ذوو الشفقة والحنان ثم تورد عقب هذا الوصف أشعاراً حماسية قديمة هى عين الذى نشر حينما استقلت بلاد اليونان إثارة للخواطر وتهييجاً للنفوس. أما الجرائد الاخرى وفي مقدمتها جريدة (الغلوب) فكانت تنسب الي زميلاتها الغش وتضليل الرأى العام بما تنشره من الاكاذيب بشأن المسئلة الارمنية وقد قالت فى بعض أعدادها الصادرة فى شهر يناير سنة ١٨٩٥ بالحرف الواحد مايأتى:

«ان الفظائع التى اسند الي الاتراك اقترافها ضد الارمن هى اكبر ماغشت به الجرائد الانكليزية الرأى العام الانكليزى »

وأثبت الكاتب أن عقلاء الارمن سخطوا على انكلترا واعتبروها عدوتهم الحقيقية التى ألقت بهم في مهواة الهلاك وكتب بهذا الشأن فى صحيفة « ١٢ »:

«وانا لم نكلف خواطرنا ابراز الحقائق من مكامنها الا اشفاقا بأرمني الاقاليم الاسيوية الذين رضخوا لايعاز الاجنبي لهم بشق عصا الطاعة فسببوا بذلك ضياع حياة الكثيرين منهم وانتشار الفقر والفاقة فى جميع أنحاء البلاد الارمنية واستيلاء الوساوس والقلق على قلوب الافراد وعقولهم. وفى يقيننا ان العقلاء منهم أخذوا الآن يعضون على الاصابع ندماً على مافرطوا فيه ويسخطون على الذين بتغريراتهم الخبيثة كانوا سبب وقوعهم فى هاوية لاقرار لها وما ذلك الا لكون أولئك العقلاء يعلمون علم اليقين ان دعوة الحكومة العثمانية لاصلاح شؤون الارمن وترتيب أحوالهم لاتكون بالقيام عليها وتمهيد الطريق لتداخل الاجنبي في أمورها الداخلية كما يعلمون ان الثورة تستدعى الحكومة الى اتخاذ الوسائل اللازمة لقمعها وهو مايستغرق زمنا طويلا يمكن اعتباره عقبة فى طريق التقدم وحائلا دون ارتقاء العمران»

وقد أبان (الفيكونت دي كورسون) ان المسيحيين فى الدولة العلية ممتعون بجميع الحقوق التي يتمتع بها المسلمون وانهم ممتازون عنهم بعدم دخول العسكرية. ومما كتبه فى هذا الموضوع قوله :

« تقضي قوانين الحكومة التركية ونظاماتها العمومية على التركى المسلم بمهاجرة بيته ومفارقة أهله وخلانه للانتظام فى سلك العسكرية حيث يلبث ضمن العاملين فى الجيش ست سنوات متوالية وثمان سنوات فى الجيش الاحتياطى ريثما يكون صاحبه أو رفيقه أو جاره الارمنى أثناء كل تلك السنوات متمتعاً بحريته المطلقة قائما بأعماله المعيشية عاملا على

ترقية نفسه فى سلم الهيئة الاجتماعية لانه يكون قد عوفي من الدخول في الجيش بدفع بدل نقدي طفيف لايجوز للمسلم أن يفدى نفسه به ولا بامثاله أضعاف الاضعاف

وبديهى ان هذا الامتياز الممنوح للمسيحيين دون غيرهم من الاهالى قد ألحق بالمسلمين اضراراً كثيرة أقلها تناقص النسل وعدم التأهل لتولي الوظائف والمناصب فى الحكومة »

وأثبت الكاتب كذلك بالبرهان الدامغ والحجة القاطعة انه يستحيل تشكيل مملكة أرمنية . وقال فى هذا الصدد ماتعريبه :

« أيجهل الانكليز الذين تداخلوا فى المسئلة الشرقية وقالوا بضرورة انشاء مملكة أرمنية تكون بلاشك تحت رعايتهم وفى ظل حمايتهم . أن الاكراد هم بلا جدال ولا ارتياب أصحاب البلاد بالنظر لكونهم اكثر عدداً من جميع الامم التى تعيش فيها . وهذه احصائية صريحة لسكان الولايات الاثنى عشر التى يسكنها الارمنيون والاكراد منقولة عن كتاب (تركية آسيا) للمسيو (فيتال كينيه) :

	مسلمون	أرمن	غيرهم	المجموع
اطنه	١٥٨٠٠٠	٩٧٤٥٠	٧٤٩١٨٠	٤٠٣٤٣٠
حلب	٧٩٢٤٥٠	٤٩٠٣٠	١٥٤٢٧٠	٩٩٥٧٥٠
أنقره	٧٦٣١٢٠	٩٤٢٩٠	٣٥٤٦٣	٨٩٢٨٧٠
بتليس	٢٥٤٠٠٠	١٣١٣٩٠	١٣٢٣٠	٣٩٨٦٢٠
ديار بكر	٣٢٨٦٤٠	٧٩١٣٠	٦٣٦٨٠	٤٧١٤٥٠

ارضروم	٥٠٠٧٨٠	١٣٤٩٦٠	٩٩٥٠	٦٤٥٦٩٠
قونيا	٩٨٩٢٠٠	٩٨٠٠	٨٩٠٠٠	١٠٨٨٠٠٠
معمورة العزيز	٥٠٥٤٤٠	٦٩٠٢٠	٦٥٠	٥٧٥١١٠
الموصل	٢٤٨٣٨٠	—	٥١٩٠٠	٣٠٠٢٨٠
سيواس	٨٣٩٥١٠	١٧٠٤٣٠	٧٦٠٦٠	١٠٨٦٠٠٠
طرابزون	٨٠٦٧٠٠	٤٧٢٠٠	١٩٣٨٠٠	١٠٤٧٧٠٠
وان	٢٤١٠٠٠	٨٠٠٠٠	١٠٩٠٠٠	٤٣٠٠٠٠
المجموع	٦٤٢٧٧٢٠	٩٦٢٠٠٠	٩٤٤٩٨٠	٨٣٣٤٩٠٠

وقدر المستر اكزمنيس عدد الاكراد الحقيقيين ١٦٤٤٨٦٠ فيكون مجموع المسلمين في الولايات الاثنى عشر غير الاكراد ٤٧٨٢٣٦٠ والاكراد وحدهم ١٦٤٤٨٦٠ والارمن من غريغوريانيين وكاثوليك وبروتستانت ٩٦٢٠٠٠ والاقوام الاخر من يونانيين ولاتين وكلدانيين وأقباط ويزيدية ٩٤٤٠٨٠

أما في الولايات السبعة وهي طرابزون وسيواس وارضروم وانقرة ووان وديار بكر وبتليش التى تأمل الجرائد الانكليزية تأليف المملكة الارمنية منها فيبلغ عدد سكانها كما يأتي

مسلمون	٣٧٣٣٧٥٠
أرمن غريغوريانيين	٨٤٧٧١٠
بروتستانت	٦٠٧٣٤
كاثوليك	٥٨٤٧١

يونان ارثوذكس	٣٥٢٥١٢
متحدون	٣٨٠
نسطوريون	٩٢٠٠٠
كلدانيون	٤١٤٤٠
يعقوبيون	٥١٢٩٨
سوريون	٩٩٨٠
يزيديون	٩٤٦٢
اقباط	٣٧٢
مجموع المسلمين	٣٧٣٣٧٥٩
أرباب الديانات الاخرى	١٤٩٧٣٥٩

أي ان نسبة مجموع المسلمين فى الولايات السبعة السالفة الذكر الى عدد الاهالى الكلى كنسبة ١١ الي ١٥ وعليه فتكون نسبة المسيحيين اليه هي ٤ الي ١٥ ليس الا والأرمن نصف هؤلاء فتكون نسبتهم الي عدد الاهالي الكلى كنسبة ٢ الي ١٥

فكيف يمكن والحالة هذه انشاء مملكة أرمنية يكاد العنصر الارمنى فيها أى الذى سيقبض على أزمة الوظائف في الحكومة لايوازي الثمن من مجموع عدد الاهالى. لاريب ولا شك فى انه اذا تحققت أماني القائلين بأنشاء تلك المملكة تمزقت احشاؤها وتكسرت ضلوعها بتواتر المنازعات الملية والحروب الاهلية . والا فكيف يتصور عاقل منصف ان الامن يكون سائداً والطمأنينة موطدة الدعائم في فرنسا مثلا اذا كان لا يوجد

فيها من الفرنسويين سوى ستة ملايين ومن الالمانيين والانكليز الذين هم أشد أعداء فرنسا لدادة وخصومة نحو ٣٠ مليونا

يؤخذ بالبداهة مما سبق بيانه أن مسئلة انشاء مملكة أرمنية يقوم بأمرها أحد أبناء البلاد هى أمنية برقشها الانكليز بألوان تجذب قلوب الارمنيين اليهم . وليس يبرح عن أذهان القراء الواقفين على ماوقع من الحوادث أثناء انعقاد مؤتمر برلين ان مندوبي الكنيسة الارمنية عرضا على نواب الدول فى هذا المؤتمر بارشادوالهام (نوبار باشا) مشروعا يؤخذ من مغزاه طلب تعيين « حاكم عام أرمنى » لبلاد أرمينيا أى للولايات السبعة التى سبق بيان أسمائها وتحديد شروط تعيين الموظفين وانتخاب المجالس العمومية وتشكيل عساكر الجندرمة الي غير ذلك من المطالب التى تعتبر كافلة لاستقلال أرمينيا استقلالاً مطلقا وبعبارة أخري لجعل ٣٧٠٠٠٠٠ نفس من المسلمين تحت سيطرة ٨٠٠٠٠٠ أرمنى مسيحي .

أما الحاكم العام الذي كان يريد المندوبان الارمنيان تعيينه فهو كما يتبادر لذهن القاريء (نوبار باشا) الذى كان عينه الانكليز بتغيير لقبه وتحويله من حاكم عام الى والي أو أمير (برنس) وهذا هو السر في كونه لبث نحو ستة عشر عاما يوالى الانكليز بخدماته ومساعيه ويجعل نفسه آلة لهم يستعينون به على قضاء مآربهم ونوال أغراضهم فى البلاد المشرقية وكونه وضع القطر المصري فى قبضتهم وساعدهم على الاستئثار بالسلطة والاحكام فيه شيئاً فشيئاً بالرغم عن أميال سمو الخديو الشاب وعواطفه الوطنية

ومما لابد من تذكير القاريء الكريم به هو أن بين المسئلة المصرية

والمسئلة الارمنية علاقة أكيدة ورابطة وثيقة تاه عنها كتاب الجرائد الاوروبية ورجال السياسة فان (نوبار باشا) طامح الي الجلوس على منصة الامارة الارمنية الموهومة وقد اتخذ الانكليز هذا الطموح وسيلة لبلوغ مرامهم من وضع البلاد المصرية تحت حماية دولتهم وليست الحوادث الاخيرة التى كانت بلاد الاناضول ميدانا لها الا حجابا كثيفا يستر مقاصد الانكليز من الاستئثار بالسلطة في وادى النيل ويخفى مساعيهم ودسائسهم المقصود بها وضع هذا الوادي فى طي أملاكهم الشاسعة الاطراف

وقد شعر المؤتمر البرليني بما كان يحاول الحزب الارمني الحصول عليه منه ألا وهو الاقرار بتعيين (نوبار) حاكما عاما على أرمينيا فاحترز أعضاؤه من الوقوع فى حبائل ذلك الحزب بتحرير ما كان موضوعا للمادة الحادية والستين من العهدة البرلينية وهذا نصه « يتعهد الباب العالي بأن يجرى بلا ابطاء ولا تأخير التعديلات والاصلاحات التى تستلزمها الحاجات المكانية والضرورات المحلية في الاقاليم والولايات التي يسكنها الارمن وبأن يكفل لهم الامن والطمأنينة من الجراكسة والكرد . ويتعهد كذلك بأن يوافى الدول من وقت الى آخر بما يتخذه من الوسائل اللازمة لذلك كى تراقب تنفيذها »

والمتأمل فى ظاهر هذه المادة يجده مناقضا لما كان يخالج صدور نوبار باشا وأصحابه الانكليز من الامانى والآمال ولكن الدولة الانكليزية تمكنت بواسطة هذه المادة من احتلالها القطر المصري ومن الحصول على جزيرة قبرص ومن التداخل فى شؤون آسيا الصغري

ولقد نشر الماجور (عثمان بك) فى جريدة غازتت دونيخ العمومية مقالة

شائقة أماط فيها اللثام عن أسرار الاجتماعات التى حصلت فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨٧ بمدينة جنيفة «جنيره» قاعدة بلاد سويسره بين نوبار باشا ولورد يس مليكوف وتكران باشا وبوغوص باشا وكان نوبار باشا . عائداً وقتئذ من لوندره حيث تهاطلت عليه الوعود من أصدقائه الانكليز بمعاونته وشد ازره في مشروع انقاذ البلاد الارمنية من الاحكام العثمانية الصارمة فقرروا بينهم ارسال جماعة ممن لا شأن لهم سوي إثارة الخواطر وغرس بذور الفتن ورفع لواء العصيان والاضطراب الى بلاد الاناضول وأوعزوا اليهم ان لا يتوانوا عن السلوك فى هذا المسلك حتى تضطرب الاحوال ويختل نظام الامن وتجد الدولة البريطانيـة فرصة للتداخل بحجة المراقبة والاشراف على تنفيذ مضمون المادة الحادية والستين من عهدة برلين . وتم الاتفاق أيضا على ان الجرائد الانكليزية فى لوندره والمبعوثين البروتستانت فى ارمينيا يوالون زعماء هـذا الاضطراب بالمساعدة والتعضيد مبالغة فى الحض وزيادة في التنشيط

ولمناسبة ذكر المبعوثين البروتستانت نقول ان المرسلين الدينيين في البلاد التى يخترقونها أو يقيمون فيها هم رواد التدابير السياسية والممهدون للدسائس القنصلية ولهـذا ترى ان مساعيهم نجحت بين الارمن وبلغ عدد الذين اعتنقوا المذهب البروتستانتى من هؤلاء أكثر من ٦٠٠٠٠ نفس وقد استعمل القسوس للوصول الى هـذه الغاية الفريدة وسائل وأساليب غريبة منها. انهم كانوا يغرون الارمن بقولهم انكم اذا اعتنقتم هذا الدين شملتكم الحماية الانكليزية التى تمتد بلا مراء على جميع الامم

البروتستانتية وأمكنكم حينئذ أن تهزؤا بموظفي الحكومة العثمانية اذا حاولوا تشديد الوطأة عليكم وتخلصوا من دفع الضرائب والرسوم القادحة التى أثقلوا بها كاهلكم »

وقد أتى الكاتب على أسماء اللجنة الانكليزية التى شكلت لمساعدة الارمن حيث قال :

« ونذكر من الانكليز الذين شدوا أزر هؤلاء الاخلاط وعاونوهم على نوال مطامعهم المستر ستفنسون أحد أعضاء البرلمان ورئيس اللجنة الارمنية الانكليزية والمستر اتكين أمين صندوق اللجنة والمستر برايس أحد أعضاء البرلمان ووكيل احدى الوزارات فى وزارة المستر غلادستون ولدوق درجيل والدوق دي وستمنستر واللورد روندل واللورد كمبرلى « وزير خارجية انكلترا » والسر هاتير والمستر شفون والسر سيتول والسر جون كينافاى والمستر شانغ وجميعهم من أعضاء مجلس البرلمان والمستر ستنن غلادستون مدير مدرسة هواردن والقس ماكول والمستر جون كليفورد الخ

ولا حاجة الى اعادة القول فى هذا المقام بان المستر غلادستون المشهور بحقده المزمن على تركيا وضغنه للاتراك هو المدير الاعظم للحركة الارمنية وانه لم يدع فرصة تفرت بدون أن يجاهر فيها بعداونه للدولة العلية وتحريض الجمهور على كراهتها والسعى فى هدم أركانها »

وأوضح الكاتب السالف الذكر تاريخ اللجنة الارمنية الثورويه الهنتساكية فقال

« وفى سنة ١٨٨٧ شكل الفوضويون من الارمن وهم روبن هان اسديان الملقب بكمبور ونيشان مجاوريان وهمايك كوشبازيان جمعية سرية منسوجة

على منوال الجمعيات العمومية الروسية (نهلست) جعلوا مقرها حارة هفابان بمدينة تفليس وقد سميت هذه الجمعية باسم هنتشاك ونيط بها انشاء جريدة بهذا العنوان عهد بادارتها وتحريرها الي نزاربكيان ليون الذى كلف بالعودة الى مدينة جنيفة (جنبرة) حيث ابتدأ في نشر هذه الوريقة الثورية . وبعد مدة طائلة نقل ادارة الجريدة الي مدينة أثينا لكى تتوفر لديه الطرق والوسائل اللازمة لادخالها في البلاد العثمانية بالنظر لقرب تلك المدينة منها غير أن الحكومة اليونانية لم تستطع بقاء جريدة فاسدة المبادىء في بلادها وتحت حمايتها فطردت محررها وأربابها الذين هاجروا عاصمة اليونان قاصدين مدينة لوندره ولا يزالون فيها الى اليوم ينشرون تلك الصحيفة الثورية

ولكي يقف القارىء وقوفا تاما على الغرض الذي يسعي أعضاء لجنة هنتشاك لنواله لا نري بداً من ترجمة بعض لوائحهم ومنشوراتهم ترجمة حرفية نراعى فيها مطابقة الاصل من جميع وجوهه وللقارىء أن يستنتج من خلال معانيها مايلائم الصدق من الاحكام الصائبة فنقول: نشرت لجنة هنتشاك فى سنة ١٨٨٩ بمدينة لوندره رسالة قسمتها شطرين الاول منهما عنوانه « التيار الجديد » والثاني « خطاب مفتوح » يقع نظر القارىء فيها بالصحيفة ١٩ على ما يأتي :

« من الواضح قبل كل شيء اننا فوضويون وان لنا رغبة وطيدة مبينة في لوائحنا ألا وهي نشر مبادىء الفوضي فى بلاد الاناضول . هذا هو الغرض الاساسي وللوصول اليه قد عقدنا الخناصر على انشاء حكومة وطنية

مستقلة في تلك البلادواحداث الاضطراب بلاتوان ولاامهال للحصول على الحرية السياسية الواسعة النطاق »

وقد أورد هذا الكاتب الجليل موادلائحة الجمعية الهنتشا كية وانا نأتى على ترجمة بعضها :

« المادة ٦ هي : من الغرابة بمكان وهذا نصها « يجب على كل لجنة أن تعين رئيسا للجواسيس من بين أعضائها على شرط ان يكون من موظفي الحكومة أو تكون له رابطة وعلاقة بموظف أرمني في الحكومة ليتمكن من نقل اسرارها ونواياها الي اللجنة ويشترط فى تعيين ذلك الرئيس ان يكون من ذوى الشهامة والقدرة على كتمان الاسرار. وينبغى ان يكون تحت ادارته عشرة جواسيس ينتخبون من أصدق رجال الجمعية ليقوموا باخبارها أولا بأول بما يكتنفها من المخاطر وعليهم أن يدخلوا فى كل مكان متنكرين بحيث يكون زى التنكر للواحد منهم مختلفا عنه للآخر ويهيئوا مشروعاتهم فى الخفاء وتكون المخابرات المختصة بهم منحصرة بين اللجنة وبين رئيسهم »

«وتقضى المادة السابعة بتعيين خطباء يخطبون بين الجمهور لحضهم على الثورة والاضطراب . أما المادة الثامنة فاليك نصها : « يجب ان يكون لكل لجنة منفذ يكون تحت امرته جماعة من المساعدين والواجب المفروض على هذا المنفذ وعلى مساعديه أن يقوموا باعدام من ترى فيهم اللجنة أنهم يضرون بها سواء كانوا من الحزب أومن الاجانب وذلك متى صدر قرار اللجنة قاضياً باتخاذ هاته الوسيلة. وأنواع العقاب ثلاثة التوبيخ والضرب بالعصي والاعدام

وهذا النوع الاخير ينفذ امابالخنجر أو بالرفلفر وامابالخنق وامابالسم . ولاجل نسف المنازل والمباني على العموم يجب استعمال : أولا . القنابل الديناميتية ثانيا . الديناميت السائل . ثالثا . قنابل الحريق المملوءة بالبارود

« المادة ٩ : يجب أن يكون لدي اللاجنة واحد تنحصر اختصاصاته فى غرس بذور الفتن وتحريض الضعفاء على الاقوياء حتي تتم الفتنة وينتشر الاضطراب وليس لهذا الشخص ان يعمل الا بأوامر اللاجنة وارشاداتها »

« المادة ١٠ . ينبغي ان يوجد حارس على الاسلحة موصوف بالنباهة والشهامة اذ لايخفى ان هذه الوظيفة أهم الوظائف وأخطرها والواجبات التي ينبغي عليه مراعاتها هي العناية بحراسة الاسلحة والخرطوش والبارود وعدم اطلاع أحد على مكامنها ويجب ان يكون بين يديه دفتر ليسهل بواسطته عمل المراقبة كل ثلاثة أو أربعة شهور كما يجب أيضا ان لايوضع مكان الاسلحة والذخائر على أكثر من مسيرة ساعتين أو ثلاث من المدينة وان تكون العناية بحراستها شديدة جداً كي لا تقع بين أيدي الحكومة »

وقد أفاض (الفيكونت دى كورسون) فى رسالته الفريدة في الكلام على دسائس الارمن وفظائعهم وتكلم عن حادثة (كوم قبو) التى حدثت قبل محاكمة الارمن بانقره وقبل اشتغال الرأى العام الاوروبى بالمسئلة الارمنية . ومن ضمن ما كتبه بشأن دسائس الارمن ما تعريبه :

« وقد تبين للقارئ ان الغرض من احداث الاضطرابات انما هو اثارة خواطر الارمن الذين كانوا اليوم وقوعها مخلدين الي السكينة راغبين عن مشاركة اللجنة المتشاكية فى أعمالها الثوروية الخبيثة والانتقام ممن اشتهروا

بتقبيح هذه الاعمال وتشنيعها . وعملا بهذا المبدأ قتلوا هتشك افندى أحد معتبرى المحامين الارمن أمام محاكم الاستانة العلية وقد اعترف القاتل له وهو ارمناك الذى لا يتجاوز عمره ١٨ ربيعاً ان همبرسوم بويادجيان رئيس اللجنة الهنتشاكية في الاستانة العلية والمسبب الاصلي لواقعة كوم قبو قد أعطاه خمس ليرات عثمانية أجرة قتله لذلك الرجل المستقيم . وكثيراً ما كاد قسوس الكنيسة الارمنية والبطريق ارشكيان نفسه يقعون في مخالب الثوروبين لولا اسعاف العناية الربانية لهم وتيقظ رجال الحفظ لحركات الاشقياء الذين قبض على البعض منهم فاعترفوا صراحة بأنهم وكلاء اللجنة الهنتشاكية

وقتل الثائرون أيضاً أحد أغنياء المضاربين من بنى جلدتهم واسمه سيمون بك مكدود وقد قبضت الحكومة على المجرمين وهم استبان أحد تجار المجوهرات وهمبرسوم القهوجي وكاروك وتانيوس فاعترفوا صراحة بأنهم لم يأتوا ذلك الجرم الا باغراء دكران أحد صناع الاحذية المنتظم بصفة عضو فى اللجنة الثورية . وقد حصل حديثاً في ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٥) ان اثنين من أعضاء تلك اللجنة تجاسرا على قتل أرمني اسمه توتونجيان موظف فى قلم المطبوعات

وقد تمكن كل من همبرسوم بويادجيان ومهران دماديان من مغادرة الاستانة عقب تلك الحوادث التى تقشعر من ذكرها الابدان قاصدين مدينة جنيفه حيث كانت تنشر وقتئذ جريدة هنتشاك التى نقلت فيما بعد الي مدينة أثينا وقد تمكن بعدئذ بويادجيان بالتنكر والتخفي من الدخول في بلاد

الاناضول حيث التقى باخيه مرديروس جراير المشهور باسم مروك وبالاشتراك مع بعضهما احدثا الاضطراب في يوزجات وموش وتلورى

وعقب سفر بويادجيان استلم رئاسة اللجنة الهنتشاكية في الاستانة العلية شخص روسي الانتماء يدعي وارد برادر يكوف ولكنه لم يلبث فى الرئاسة زمنا طويلا حتي قبضت عليه الحكومة وفتشت منزله بحضور مندوب من قنصلية الروسيا الجنرالية في دار السعادة واستولت على ماوجد فيه من الاوراق واللوائح والمنشورات المتعلقة باللجنة الهنتشاكية وبعد ان سجلت سفارة الروسيا عندها بيان هذه الاوراق وختمت عليها بطابعها ارسلت الي المحاكم النظامية لمحاكمة المتهمين قضائياً؛

وبعد ان أتي حضرة الكاتب الفرنساوي بالدلائل البينة التى تثبت ارتكاب الارمن لاسفل القظائع استشهد بأقوال بعض أماجد الكتاب الاوروبيين على اختلاق الجرائد الانكليزية للاخبار الكاذبة ونشرها الخزعبلات عن أحوال تركيا فكتب في صحيفة { ٦٤ } من رسالته البديعة ماتعريبه :

« وكتب المسيو دانوسو الذى أمضي ثلاثة شهور ببلاد أرضروم في رسالة مهمة بتاريخ شهر مايو سنة ١٨٩١ أن حماية الدولة العلية شاملة للارمن والمسلمين بدرجة واحدة وان لاتفاوت فى الحرية الممنوحة للطرفين. الى أن قال :ولرجال الثورة فى أرمينيا زعماء ترد لهم الاوامر من رؤسائهم بالاستانة العلية طبقاً لما يتوارد على هؤلاء من لوندرة من التعليمات الخصوصية المهيأة في دخل ادارة جريدة الدالي نيوز . وقال فى الختام

ولقد اندهشت من تماثل الحوادث وتشابه الوقائع في أرمينيا وكريد فالذين يدعون أنهم أصبحوا فريسة لظلم الدولة العلية واجحافها بحقوقهم نراهم يتمتعون فى كلا البلدين بامتيازات لم يفز بها مواطنوهم المسلمون أقلها عدم دفع الضرائب والاعفاء من الخدمة العسكرية ولا يسعنا تلقاء هذا التماثل سوى الحكم بأن اليد التى أثارت الفتنة فى أحدهما هى التي أثارتها في الآخر »

وكتب فى صحيفة ٦٧ و٦٨ ماتعريبه :

« أما اللجنة الارمنية الانكليزية فى لوندرة فقد انتهزت فرصة ذلك الانقلاب السياسي وبعثت بعض نصرائها الى آسيا الصغرى وأوعزت اليهم تفريق منشورات يدعون فيها الاهالي علنا الي الثورة والاضطراب وقد جعلوا مرسيوان ميدان دسائسهم التى امتدت منها الى قيصرية ويوزجات وتشورن وجمشخانه وعزيزيه وغيرها من الاماكن وقد توجه رجل اسمه (اندون رشتوني) أحد أعضاء لجنة لوندره الي قيصريه لايقاظ الفتنة فيها فلما قبضت عليه الحكومة وجدت معه منشورات ولوائح جمعية هنتشاك الثورويه وطابع الجمعية وفتشت الحكومة بارشاد أحد المجرمين في كنيسة ديفونيك القريبة من (قيصريه) فوجدت كمية وافرة من الاوراق كان رشتونى السالف الذكر وضعها عند أحد القسوس ومن مطالعة هذه الاوراق علم أن للشخصين المسميين طومايان وكايايان الارمنين البروتستانتين المعلمين فى مدرسة مرسيوان البروتستانتية ضلعاً فى تلك الحوادث وانهما أسسا مطبعة سرية فى داخل تلك المدرسة واستغرقا

الوقت فى تعليم التلامذة مبادىء الفوضي وقواعدها

اما حوادث يوزجات وقيصرية فكانت ثمرة دسائس مرديروس جراير المشهور باسم موروك شقيق همبرسوم بويادجيان وتوضيحها أنه دعي الى الحضور بجهة بيك جملة من الارمن وبعد انوزع عليهم الاسلحة والنقود الواردة برسمهم من انكلترا أمرهم بالاستمداد عند أقل اشارة لنهب القرى التي يسكنها المسلمون وذبح هؤلاء . وقد ارتكبوا جملة جرائم بجهات مختلفة وعلى الخصوص فى قيصرية وكلها أفضت الى القبض على المذنبين ومحاكمتهم بمحكمة أنقره التي صدر حكمها بالاعدام على ١٧ من المتهمين وبالاشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة على ستة منهم وبها لمدة سبع سنوات على عشرة منهم وبرأت ساحة ١٤ منهما ولكن أبت مكارم الحضرة الشاهانية الا الشفقة على أولئك المذنبين اذ أصدر السلطان أمره الكريم بابدال عقاب الاعدام بالطرد من بلاد الدولة العلية . وبالرغم عن هذه العواطف الكريمة التى قل أن تتوفر فى أمير من أمراء أوروبا أو فى حكومة من حكوماتها فان الجرائد الانكليزية أسرفت من الطعن والسب فى مقام جلالته ولم تدع نعتاً من النعوت القبيحة الا ألصقته باسمه وامتازت الجرائد البروتستانتية على غيرها فى انتهاج هذه الخطة وذلك لكون طومايان وكايايان هما من الارمن الذين اعتنقوا الديانة البروتستانتية . وبمجرد صدور الامر الكريم بتخفيف تلك العقوبات بادر كل منهما الى مبارحة بلده لانهما كانا من ضمن المحكوم عليهم بالاعدام . أما طومايان فقد ذهب مباشرة الي لوندره حيث صار من أكبر أعضاء اللجنة الارمنية الاوروبية وأكثرهم نفوذاً وهو الذي كان

الانكليز يعرضونه على الانظار فى المجتمعات وفى ادارات الجرائد بمثابة مثال من الامة التى وقع عليها الضغط والظلم من الحكومة العثمانية

وكان بطريق الارمن بالاستانة العلية في هذا الاثناء يبعث بالمنشورات تباعا الى الاساقفة واكابر القسوس (مارس سنة ١٨٩٥) كى يحرضهم على منع الاجانب من التغرير بالاهالى الداخلين فى دائرة اختصاصهم الديني وقد جاء بأحد تلك المنشورات ما يأتى :

« محضوا النصح للطبقة الجاهلة من رعاياكم كى لا يقعوا في شرك المهيجين . أما الذين ينشزون عن الطاعة ولا يأتمرون بأوامر الحق فالتمسوا العفو والصفح لاجلهم لدى الحكومة باعتبار أنكم المدافعون عن وحدة الصداقة الوطنية »

وهى عبارة غاية في الحكمة والصواب ولكن لم يكن لها ذرة من التأثير على العقول تلقاء ما تنشره الجرائد الانكليزية والارمنية التي تصدر بمدينة لوندره من التحريض واثارة الخواطر وشرح المواقع « التى فاز فيها الثائرون الارمن بالانتصار على الجيوش العثمانية » الي غير ذلك مما أفضي الى مذبحة ساسون التي تقشعر الابدان من ذكرها

ومن الخطأ المبين أن يعتقد القارئ بحصول هذه المذبحة عفواً وجزافا فلقد ثبت أن الانكليز هيؤها منذ زمن طويل كما يتضح صراحة من تلاوة الشذرة الآتية المقتبسة من جريدة { الكونجريجاسيونا لست } الصادرة فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٣ بمدينة بوستن من امريكا بقلم المستر هيروس هملن أحد المبعوثين البروتستانت وهى : « اكد لى شاب من

الارمن تظهر عليه مخائل الذكاء والنباهة ويتكلم الانكليزية بنفس السرعة التى يتكلم بها اللغة الارمنية وهومن أفصح المدافعين عن مبدأ الثورة بان الحزب الثوروى يأمل الاتيان بعمل يمهدلاحدى الدول الاجنبية وسائل الدخول فى آسيا الصغري والاستيلاء عليها . فلما سألته عن كيفية ذلك أجاب قائلا : تألفت عصابات من الهنتشاكيين فى جميع انحاء الدولة العلية وهى تترقب الفرص المناسبة لقتل الاكراد والترك واحراق قراهم ومساكنهم ثم تعتصم بعدئذ بالجبال فينشأ عن ذلك وقتئذ ان المسلمين يتملكهم الغضب فينقضون على الارمن ويفتكون بهم فتكا مريعاً تضطر معه احدى الدول الاجنبية الى التداخل في أمور آسيا الصغرى والاستيلاء عليها باسم الانسانية والتمدن المسيحي » . فقلت له ان هذا المشروع وحشي وفى أقصي درجات القسوة فأجابنى بكل سكينة : لاريب فى انه يبدو لك كما تقول ولكننا معشر الارمن قد وطنا النفس على نوال الحرية . فلقد تحركت عواطف أوروبا لفظائع بلغاريا فمنحتها الحرية وهى لابد أن يصل اليها نداؤنا فتمنحنا أيضا هذا الامتياز »

وبعد نشر هذه المحادثة فى الجريدة المشار اليها بسنة تقريبا وقعت فتنة بوادى تالورى (ساسون) واتضح ان المحرك لها هوهمبرسوم بويادجيان الذي تمكن من العودة الي الاناضول بعد ان سمي نفسه مراديان ووطد رابطة العلاقة بينه وبين الارمن البروتستانت فى ولايات بتليس ووان وأنقره وأدنه وكان ذلك الرجل يغرر بعقول ذوي الاحلام الطائشة بدعوتهم الي حمل السلاح ومهاجمة المسلمين ويمنيهم بمساعدة انكلترا

وتداخلها فى شؤونهم بالقوة الحربيـة ولكي يموه عليهم بهذه الاكاذيب كان يبرزلهم خطابات ادعى انها واردة اليـه من أكابر رجال السياسةفى لوندره .وقدطبع منشورا فى هـذا المعني أرسله الىأعضاء الاكليروس الارمنى القس وهابديان رئيس أساقفة ادنه سابقاوقدنشرتهفي شهرمارس سنة ١٨٩٥ أغلب الجرائد الفرنساويه

وقد قال المستراكزمنيس الذى سلف ايراد أقواله مرارا في أوائل هذه الرسالة مايأتي : « ان الباعث على حصول الاضطرابات المذكورةهو رجل اسمه بويادجيان أحد تلامذة المبعوثين الاميركان .وهوالذي كان له ضلع فى حادثة كوم قبو وصدر أمر جلالة السلطان الاعظم بالعفو عنه. ويقول الارمن ان هذا الرجـل قد حضهم على الثورة بعـد ان أقنعهم بمساعدة انكلترا لهم واسعافهاايا هم بعساكرها وانهم سألوه كيف تتمكن العساكر الانكليزية من الوصول الي هذه الجهات البعيدة عن الشواطئ فضلاعن تعذر السير فيهافأجابهم بان أولئك العساكر سيصلون الي هذه الجهات بواسطة بالونات (قباب تيارة) جسيمة الحجم حمراء اللون وهى آخر اختراع فى العلوم العسكرية الجـديدة . واعتقاد الاهالى بهـذا الكذب الفاحش دليل على مقدار سذاجتهم وسرعة تصديقهم وبساطة فطرتهم وقد اتخذ بويادجيان هذه الفرصة الطبيعية آلة لاستمالة سكان الاحدى عشرة قرية المكون منهامركز ساسون وكانوا يبلغون ثلاثة آلاف نسمة تقريبا فتحصنوا في جبال انطون داغ بعد ان تسلحوا بالبنادق المتكررة الطلقات الواردة اليهم من لوندره وتفليس »

وكتب (الفيكونت دي كورسيون)في صحيفة ٧٢وما بعدهامن رسالته الجليلة ماترجمته:

« أما الحادثة نفسها فنحتمي عن ايرادشرحها بمقتضي ماوصل الي علمنا من الاخبار والمعلومات بل نقتنع بنقلها عن جريدة النويورك هرالد التى لايجسر أحدعلى اتهامهابالتحيز للاغراض أوالميل للاتراك وها هي :

«ان الثائرين الارمن الذين ظهروا فى جبال تالورى الواقعة بين ساسون فى الجنوب الشرقى من موش (ولاية بتليس) وبين مركز كال (من متصرفية جوانج)قداجتمعوا فى تلك الجهة بارشاد وتحريض شخص اسمه همبرسوم أومراديان لاثارة الفتنة بها.وهمبرسوم هذا ولد ببلدة هاجين (ولاية ادنه)وتفرغ لدراسة الطب بمدرسة الحكماء فى الاستانة العلية مدة ثمان سنوات وكان له اصبع فى حادثة كوم قبوثم فر الى الاستانةومنها الي جنيفة.وبعدان أقام بهامدة تنكربا حدالازياء وانتحل اسماغيراسمه الحقيقى ثم عاد الى ولاية بتليس عن طريق اسكندرونه وديار بكروأخذفيها يحرض الجمهور على الثورة والاضطراب وكان يساعده على هذا الفساد خمسة آخرون من بنى جنسه وكان همبرسوم يؤكد للاهالي بأن الدول الاوروبية قدأناطته بمأمورية مهمة وهى دك أركان النفوذ العثماني ودأب على الكلام بهذا المثال حتى استمال اليه قلوب الارمن القاطنين في قرى سينروسماي وجللى جوزات وآهي وهدنك وسنانك وسكند وايفار وموسون وايتك واكجسر وقرية قالوري التى تشتمل على أربعة محلات.وفي أواخر شهر يوليو سنة ١٨٩٤

بارح أولئك المغرورون بلادهم بعدان وضعوا نساءهم وأولادهم وأموالهم في جهات أمينة والتقوا بالثائرين الآتين من موش ومحلتي كال وسلفان في جبل آندوك داغ وهناك تم الاتفاق على ان خمسمائة أو ستمائة منهم يهجمون على بلدة موش فزحفت هذه الفرقة على قبيلة دليكان المستقرة بالقرب من سفح جبل كورلنك الكائن جنوبي موش فسلبت أموالها وقتلت كثيراً من رجالها واستعملت في قتل المسلمين منهم أساليب التعذيب التي لا ترد على خواطر المتوحشين والبربريين وذلك بعد ان شهرت بدين الاسلام وطعنت فيه امامهم ثم هاجت بعد ذلك العساكر العثمانية النظامية ولكنها لم تتمكن من تنفيذ مشروعها الاول ألا وهو الولوج في مدينة موش وذلك لاهمية الحرس العسكري الذي كان مقيما فيها . أما بقية الثائرين الذين لبثوا في جبل اندوك داغ فقد انقسموا فرقا متعددة قصدت كل فرقة جهة معلومة للهجوم عليها. وقد اتصل بنا من أخبارها انها أحرقت ابن أخي عمر أغا حيا وانتهكت حرمة النساء المسلمات الساكنات في قرية جولي جوازات وعذبت المسلمين وألحقت بهم النكال واكرهتهم على تقبيل الصليب وسملت عيونهم وجدعت أنوفهم وقطعت آذانهم وأذاقتهم من العذاب ألوانا وأشكالا . وفي أول شهر أغسطس هجم أولئك الثائرون على قبائل فانينار وبكيران وباديكان واقترفوا أفظع من تلك الآثام مع أهلها واقتدي بهم الثائرون في قريتي اليغرنك ويرموش الواقعتين بقسم جنيان فانهم هجموا على اكراد تلك الناحية وأوقعوا باهالي كيسر وشتشت وهجم الارمن في آخر شهر أغسطس على الاكراد

المقيمين بالقرب من مدينة موش فأحرقوا ثلاثة من القرى أما الثائرون في تالوري فقد فتكوا بالمسلمين والنصارى معا طلبا للغنائم والسلب ولما وصلت الجيوش الشاهانية لمطاردتهم طلب رئيسهم همبرسوم النجاة لنفسه ففر الى الجبل مع أحد عشر من رفقائه وقد قبض عليه العساكر بعد ان قتل منهم اثنين بيده وجرح ستة آخرين ولم يأت آخر شهر أغسطس حتى تفرق الثائرون شذر مذر . وقد عومل الاهالى من نساء واطفال وشيوخ بأحسن المعاملة مراعاة لما أمر به الدين الاسلامي واشارت اليه الانسانية أما الثائرون الذين قتلوا فهم الذين أبوا التسليم والاذعان لاوامر الحكومة وفضلوا الاستمرار على مكافحتها »

وكتب هذا الكاتب المحقق فى صحيفة ٧٦ وما يليها ماتعريبه :

« ولكن هذه الحقيقة الواضحة قد اسدلت الجرائد الانكليزية عليها الستار ثم أبرزتها في لفائف المبالغات والاكاذيب كي تستعين بها وزارة الخارجية الانكليزية على إصابة ماترنو اليه عيون مطامعها من الاغراض الذاتية . وفى الواقع فانه بعد ازعمت الخافقين تلك الاكاذيب طلبت انكلترا من الدولة العلية تعيين لجنة دولية لمزاولة تحقيق المسئلة الارمنية فقابلت الحكومة العثمانية هذا الطلب بالقبول لوثوقها بوضاحة الحقائق وتوفر القرائن المثبتة لادانة الارمن

وبناء على هذا القبول شكلت اللجنة وانتظم ضمن أعضائها مندوب روسى وآخر فرنساوي وآخر انكليزى وهو تشكيل يحق للقارىء أن يندهش كثيراً منه لموافقة الروسيا وفرنسا لانكلترا عليه واشترا كهما

معها فيه ولكن لو نقب الانسان عن الخفايا واستطلع الحقائق لاستحسن هذا الاشتراك اذلو كانت الدولة الانكليزية استأثرت بالتحقيق لكانت تمكنت من نشر الاكاذيب واذاعة المفتريات عن الدولة العلية بلا خوف من قيام أحد لتكذيب مدعياتها وبرهنت على ان تركية آسيا قد أصبحت مرسحاً لتمثيل مذابح النصارى صباح مساء وأظهرت بذلك أهمية تداخل « احدى الدول الاوربية العظمي » لتأييد دعامة النظام والامن والعدالة فى تلك الانحاء

وخلاصة القول لولم تشترك الروسيا وفرنسا مع انكلترا في مسئلة التحقيق لاحتل الانكليز أراضي الاناضول كما احتلوا مصر بحجة توطيد الامن وكبح جماح العصاة ثم طاب لهم المقام فيها الي الآن بالرغم عن طلبات الدولة العلية وفرنسا وعن العهود العنية التى فاه بها رجالهم السياسيون مرات متعاقبة »

« ولقد أفضت عواقب هفوتنا السياسية في البلاد المصرية الي انحطاط نفوذنا وخفوت صوتنا بمعنى انه بمجردمااقترحت الدولة الانكليزية علينا فتح أبواب التحقيق فى المسئلة الارمنية قابلنا هذا الاقتراح بالقبول وتمام الارتياح وانما استدعينا أصدقاءنا الروسين الي الاشتراك فيه معنا لاسيما وانه يوجد من بين رعاياهم نحو مليون من الارمن

وقد تم التحقيق على قاعدة التجرد من الاهواء وتمام الاستقلال ودل على ما كان يمر بالخاطر من ان الارمن جنحوا للاضطراب بتحريض

محرضين جاؤا من الخارج لهذا الغرض ووزعوا عليهم أسلحة انكليزية متكررة الطلقات وارتكبوا معهم بعد ذلك أقصى مايرتكب من الجرائم والآثام في أوقات الثورة كالحرق والقتل والسلب ثم اعتصموا بالجبال الشاهقة للتمكن من مقاومة الجنود العثمانية المنتظمة وقد اثبتت لجنة التحقيق فوق هذا الاعتراف ان الحكومة العثمانية بارسالها القوة العسكرية لاخماد الثورة قد عملت بمقتضى مايخوله لها القانون من الحقوق

وقد كان لظهور هذه النتيجة وقع سيء لدى أرباب الجرائد الانكليزية ولذلك تراهم قد شددوا الوطأة على الدولة العلية واتسع امامهم المجال لاختلاق الاكاذيب فقالوا ان الاتراك بعد ان ذبحوا آلاف الارمن في جولي جوازت حفروا آبار عميقة ألقوا فيها جثث القتلى ثم غطوها بطبقة من الجير والحقيقة هي ان الجنود العثمانية لما التقت بالعصاة كما أسلفنا استدعتهم الى الرضوخ للطاعة فلما لم يقبلوا اقتتلت منهم نحو ٣٠٠ نفس تقريبا فلما انتهت الموقعة جمع العساكر جثث القتلي في حفرة أهالوا عليها الجير كي لاتكون منبعاً للعفونة وبورة للروائح الكريهة التي تعبث بالصحة وهي عادة مرعية في جميع البلاد اذا وقعت فيها فتنة داخلية أدت الي قتل جملة من العصاة. واذا كان الانكليز يجهلون مزية الجير هنا فنقول ان الغرض من وضعه على الجثث هو تعجيل انحلالها ومنع الاذى الذى ينجم عن تصاعد الروائح الكريهة ومنها. والعاقل الذى لاتستولي عليه الاغراض الذاتية يحكم معنا بأن هذه الوسيلة الصحية لا يصح اعتبارها من الفظائع التي نسب الانكليز للاتراك ارتكابها ضد فئة الارمن العاصية

وفي أبان شروع اللجنة فى التحقيق قلنا كما كان يقول كل أوروبى مجرد عن الاهواء وكل من تتبع أثر المسئلة الارمنية بنفسه ان نتيجة التحقيق ستأتى على نقيض آمال الانكليز وانها لا تثبت شيأ ضد دولة المشير زكى باشا قومندان الاوردى الرابع من الجيش العثمانى الذى نيط به اخماد فتنة الارمن فان جميع الاوروبيين الذين خالطوا دولته يجمعون على امتداح سيرته وطهارة أخلاقه وكرم طبعه وصدق ولائه لجلالة السلطان وكفاءته في المسائل الحربية »

« ولنرجع الي الكلام على اللجنة الانكليزية الارمنية فنقول انها لم تدع وسيلة من الوسائل الا تذرعت بها لايهام الرأي العام فى أوروبا بأن لجنة التحقيق قد توفرت لديها الشهادات والقرائن الدالة على ارتكاب تركيا ماينسب اليها من الفظائع . ولما كانت الامة الفرنسوية فى ذلك الحين غير مهتمة بأمور أرمينيا فقد طاف جماعة من الارمن فى انحاء فرنسا لالقاء الخطب في هذا الموضوع اثارة لعواطف أهلها وتنشيطاً لهم على التمثل بالانكليز في طلب انقاذهم من مخالب الحكومة العثمانية وقد ألقى رجل اسمه شراسيون خطبة من هذا القبيل بمدينة باريس فى وسط جمهور حافل من أهلها وبالغ في وصف حوادث مرسيوان ويوزجات وتالوري وحاول طبع هذه الاوصاف فى نفوس السامعين بان أبرز لهم جملة صور فوتوغرافية بعضها يمثل الاتراك وهم يذبحون الارمن أو يطعنون الاطفال والنساء فى بطونهم بالخناجر أو يحرقون القرى. غير ان هذه الرسومات لم تفض الى احداث التأثير الذي كان ينتظره الخطيب على قلوبهم اذ لا يخفى ما اشتهر به أهالى

باريس من شدة التحرز والتصديق بعد الامعان والروية فانهم بمجرد القائهم النظر على تلك الصور حكموا بأنها افتراء ومجرد اختراع لاستحالة وجود مصورين فى بلاد أغلب أهلها يقطنون الجبال وأثناء فتنة داخلية لا يعلم أحد تاريخ وقائعها حتى يستعد المصورون الذين يجب ان يكونوا في هذه الحالة على جانب عظيم من المهارة والجسارة لاخذ صور تلك الوقائع . وهناك سبب آخر بث هذا الاعتقاد فى خيلاتهم (اى الباريسيين) وهو استحالة محافظة المذبوحين والقتلى على وضع يثبتون فيه اثناء ذبح الاتراك لهم ارضاء للمصورين كى يحصلوا على صور متقنة خالية من العيوب التى تنشأ عن تحرك الذات المراد تصويرها . وقد وضع بعض أهالى أمريكا رسالة قال فيها انه رأى صورة فتوغرافية تمثل النساء الارمنيات يلقين أنفسهن فى المهاوي العميقة فراراً من عبث الجنود العثمانية وانه علم بمجرد النظر اليها انها مقلدة بالتمام من لوحة رسمها مصور شهير يسمى آرى شفر » « وقد عقد بعض أكابر الانكليز بمدينة لونده وفي مقدمتهم الدوق درجيل والدوق وستمنستر واللورد حاكم مدينة ليفربول وبعض رجال الاكليروس البروتستانتى اجتماعا حافلا في ٧ مايو الماضي عرضوا فيه ثلاثة أشخاص زعموا انهم من ارمنيي ساسون مع انهم كانوا لا يفهمون شيئاً من اللغة الارمنية أومن اللغتين التركية واليونانية الشائعتى الاستعمال ببلاد الدولة العلية وحصل اجتماع آخر بمدينة شستر في ٦ أغسطس الماضي التى فيه المستر غلادستون خطبة جعل حشوها الطعن بالحكومة العثمانية وسأل من الرأى العام اعدام الدولة العلية واستئصالها من الوجود السياسي

مستنداً في طلبه هذا على مقالة نشرتها جريده الديلي تلغراف عن المستر ديلون مكاتبها فى آسيا الصغرى ضمنها شهادة لص كردى اسمه موتتيجو لا يزال مسجونا بعد ان صدر عليه حكم محكمة ارضروم بالاعدام لانحصار التهمة فيه بأنه قتل ونهب وهتك وارتكب من الفظائع ضد الارمن والاتراك أجسمها . غير ان المستر غلادستون تغافل عن تعريف السامعين لخطبته بما اذا كان المستر ديلون السالف الذكر يعرف اللغة الارمنية أم لا وهل جميع مصادره الاخبارية مشابهة للشقي موتتيجو . على ان هذا تفصيل دقيق لاتهم الافاضة فيه لما يعلمه القراء من تصديق الذمة البريطانية لكل المصادر والموارد الاخبارية مادامت موافقة لمصالحها بصرف النظر عما اذا كانت تستحق الثقة أم لا »

هذا ما كتبه كاتب مسيحي منصف فى حكمه غير متعصب ضد الاسلام. وقد اقتطفنا للقراء كثيراً من شذرات رسالته الجليلة ليقفوا جميعاً على الحقائق وليكونوا على بينة من أمر الحوادث الارمنية والدسائس الانكليزية وليعلم كل عثماني وكل مسلم مقدار الكراهة الشديدة التى أظهرتها انكلترا للدولة العلية

وقد عثرنا في جريدة الطان الفرنساوية الصادرة فى ١٠ ابريل عام ١٨٩٧ على ترجمة عبارة كتبها أحد كتاب الانكليز فى جريده « التيمس » بشأن المسئلة الارمنية . لانري بداً من تعريبها :

« لقد جاء الوقت الذى يجب فيه على الامة البريطانية ان تعلم ان للمسئلة الارمنية وجها مظلماً للغاية : فان الجمعيات الثوروية الارمنية هى آفة الامة الارمنية ومصيبتها وانى لا أتردد فى ان أصرح — معتمداً فى ذلك

على خبرتي الشخصية — بان هذه الجمعيات هى التى يقع عليها النصيب الاوفر من مسئولية موت الارمن العديدين الذين قتلوا في الاضطرابات الاخيرة . فماذا يستطيع الانسان ان يقول عن أشخاص يبذرون بذور التعصب بين قومهم ويضحون نفوساً عديدة وأرواحا جمة من بني جلدتهم بقصد الاعلان عن المسئلة الارمنية في أوروبا ؟ وفي أية بلدة من بلاد آسيا الصغري لايستطيع أحد من الارمن ان يكون آمنا على حياته وأمواله اذا كان أحد أعضاء هاته الجمعيات الثوروية مقيما فيها . فالاغنياء مجبورون ان يشتركوا فى مصاريف الثورة الارمنية والا قتلوا . واذا تجاسر أحد على القدح فى الجمعيات الثوروية أو العمل ضدها فقد حياته ولامحالة .

« واني لاأعرف شيأ عن الجمعيات الارمنية باوروبا ولكن مارأيته وما عرفته عن هذه الجمعيات الموجودة فى الاناضول وفى العجم وفى تفليس يحملنى على التأكيد بان الجمعية الثوروية الارمنية التى مركزها لوندره ترمى الي احداث مذابح جديدة { لكي تبقى أنظار أوروبا موجهة الى مظالم الاتراك } . وفي سلماس وغيرها من المدائن التى على حدود بلاد العجم يستعد ثوار الارمن للهجوم على الاتراك المسلمين ولهم هنالك من الرجال المسلحين بين الالفين والثلاثة آلاف ولكن لتركيا من الجنود هنالك نحو الخمسة عشر ألف مقاتل والحكومة العثمانية عالمة جيداً بدسائس الارمن وبنواياهم

هذه هى السياسة التي جرت عليها الجمعيات الثوروية في الماضي

ومن المحتمل انها تجري عليهافى المستقبل .فأعضاء هذهالجمعيات ومديروها يريدون إجبار أوروبا على التداخل في أمور تركيا الداخلية بالسلاح والقوة وللوصول الي هذا الغرض تراهم يحدثون ثورات ومذابح هم وحدهم المسؤلون عنها . وهم لايتأخرون عن تضحية مئات وألوف من بنى جلدتهم فيهذا السبيل ولكنهم يحترسون غاية الاحتراس من تضحية رجل واحد منهم أنفسهم ....»

ولا مراء فيأن ما كتبه هذا الكاتب الانكليزى فيجريدة التيمس المشهورة بتعصبها الشديد ضد الدولة العلية وضد المسلمين لحقيقي لاريب فيه . ولكن هذا الكاتب لم يقل لنا من المسؤل عن تأسيس الجمعيات الارمنية الثوروية وعن تشجيعها .أليس ساسة بريطانياوكتابها ؟؟؟ ولكن ماذكره حضرةالكاتب الانكليزىفى التيمس اكثرمما كانينتظرمن مثله

* *
*

« لقدودت انكلتراان تتداخلوحدها فىالمسئلة الارمنية وتقفامام الدوله العلية وجها لوجه ولكن الروسيا كانت مصلحتها مخالفة لمصلحة انكلترا فكان من الواجب عليها ان تعرقل مساعي الانكليز وان تمنع تأسيس مملكةأرمنية تكون عدوة لهاوآلة للانكليز في آسيا الصغري ضدها . وكذلك فرنسا فان مسئلة مصر أفهمت رجال سياستها انالمسئلة الارمنية ليست الا حيلة لمنع الدول من الاشتغال بمسائل وادى النيل ووسيلة لابتلاع مصر . وقد تظاهر المسيو (هانوتو) وزير خارجية فرنسا من أول الازمة الارمنية بالميلللحضرةالسلطانية.وفى فترةسقوطه

من الوزارة كتب في جريدة (ريفودى باريس) رسالة على المسئلة الارمنية وعلى اميال جلالة السلطان أثنى فيها على الخليفة الاعظم الثناء الجميل وتكلم عن جلالته بصفته من الذين اقتربوا منه وتحدثوا معه طويلا وعرفوا خلاله وصفاته وأفكاره السياسية . وقد سمي أعداء تركيا المسيو هانوتو بهانوتو باشا وعبد الهانوتو اظهارا لمحبته لجلاله السلطان واعتداله في سياسته نحو الدولة العلية كما سموا جلالة الامبراطور غليوم بعبد الغليوم. ولولا ان الرأى العام الفرنساوى كان متهيجاً بعض التهيج ضد تركيا بتحريضات أعداء الدولة العلية وأعداء الاسلام لكان المسيو (هانوتو) أظهر علناً ثقته العظمى بالحضرة السلطانية وحقيقة المسئلة الارمنية. الا انه كان مضطرا لان يتكلم عن تركيا بلهجة فيها شيء من الشدة في بعض الظروف ولكن سياسته العمومية كانت ترمي الى منع تداخل انكلترا واحباط مساعيها .

وقد تداخلت فرنسا والروسيا وانكلترا فى المسئلة الارمنية عقب حادثة (ساسون) فطلبت عمل تحقيق تام لاظهار حقيقة الحادثه فقبلت الدولة العلية طلبها وسافر مندوبو الدول الثلاث مع المندوبين العثمانيين وكان وصولهم الي (موش) فى ٢١ يناير عام ١٨٩٥ وأثبت التحقيق إدانة الارمن وخروجهم عن الطاعة ولو ان المندوب الانكليزى كان يبذل جهده في أثبات اعتداء السلطة العسكرية العثمانية على الارمن . وفى ١١ مايو عام ١٨٩٥ قدم سفراء فرنسا والروسيا وانكلترا للباب العالى مشروع اصلاحات يتضمن العفو عن مجرمي الارمن السياسيين والعفو عمن حكم عليهم بالنفي من الارمن وتأسيس لجنة مراقبة بالاستانة لمراقبة تنفيذ

الاصلاحات وماشا كل ذلك. وقد أشارت فرنسا والروسيا على جلالة السلطان الاعظم بقبول هذا المشروع فقبله وصدق عليه فى ١٧ اكتوبر عام ١٨٩٥ ولكنه رفض تأسيس لجنة مراقبة

وفي أثناء تداخل الدول الثلاث كان ثوار الارمن لا يغفلون لحظة واحدة عن تهييج بنى جلدتهم وأشعال نيران الثورة والفتنة في كل بلاد الاناضول. ولم يكن بين الدول الاوروبية (غير انكلترا) دولة تتظاهر بمساعدة الأرمن الا ايطاليا . فان (كرسبي) انخدع للانكليز فى المسئلة الارمنية كما انخدع لهم فى افريقيا . أما المانيا فانها كانت ضد انكلترا وضد الارمن ولما اشتدت الازمة وكثرت مطاعن الجرائد الانكليزية وبعض الجرائد الاوروبية على جلالة السلطان الاعظم وقف جلالة الامبراطور غليوم وأعلن امام مجلس الرشتاغ الألمانى « انه له بجلالة السلطان ثقة تامة وانه لا يمكن الاعتماد على سوي جلالته فى قمع الثورة الارمنية واعادة السكينة الى ربوع آسيا الصغري » . وقد أهاجت هذه العبارة الارمن فأرسلت جمعيتهم الثورية بلوندره الي الدول الاوروبية — ماعدا ألمانيا — كتابا رفعت فيه شكواها ضد الامبراطور غليوم وقالت عنه انه يشجع الجرائم والمجرمين .... فجعلت بذلك الجمعية الارمنية وظيفتها غير دس الدسائس في تركيا تهذيب الملوك وتربيتهم وتعليمهم سياسة الممالك !!!

وقد كانت انكلترا تود كما قدمنا التداخل وحدها ولما لم تستطع الى ذلك سبيلا أرسلت الى سالونيك أسطولا مركبا من ثمانية عشر سفينة حربية بقصد إرهاب الدولة العلية وتهديدها. وفي ٩ نوفمبر عام ١٨٩٥ وقف

اللورد سالسبوري في جيلدهال بلوندره وألقى خطبة شديدة اللهجة للغا
ملأها بالمطاعن ضد الحضرة السلطانية وأنذر المسلمين بقرب خلع خليفتهم
وأوهم العالم كله بان دول أوروبا متفقة جميعها مع انكلترا فى خطتها و نواياها.

ولما رأت ألمانيا أن الانكليز يريدون التداخل في تركيا مهما كانت
النتيجة سألت فرنسا والروسيا اشراك بقية الدول الاوروبية معهما ومع انكلترا
فى المسئلة الارمنية فقبلت وصار سفراء الدول الست بالاستانة يقررو
كل أمر بالاشتراك .وقد شعرت كل دول أوروبا وقتئذ بانه يستحيل علي
ان تتداخل تداخلا عسكريا وان مثل هذا التداخل يجر على العالمين المصائب
العديدة حيث يكون سبباً لثورة عامة من المسلمين فى تركيا وداعية لسفك
دماء كافة المسيحيين فى الشرق وأصلا لحرب أوروبية عامة . وقد اضط
اللورد سالسبورى نفسه ان يقول: «مادامت السلطة العثمانية قائمة فليس
لاوروبا قوة تضغط بها على تركيا وكل ما فى استطاعتها ان تؤثر على فكر جلا
السلطان ».فليقارن القاريء بين هذه اللهجة وبين لهجة اللورد نفسه في خطب
٩ نوفمبر عام ١٨٩٥ يوم قال ان دول أوروبا كلها متفقة مع انكلترا وانذر نا معاشر
المسلمين ومعاشر العثمانيين بقرب خلع صاحب الخلافة العظمى ! ! !

وقد توالت الاضطرابات والثورات في آسيا الصغري ولم يرض
أهالى (الزيتون) الا بتداخل الدول الاوروبية ، ولما كان الانكليز
يوالون الارمن على الدوام بالتشجيع والمساعدة فقد هجم جماعة من
فوضويهم على البنك العثمانى في أغسطس عام ١٨٩٦ ولم يسلموا أنفسهم
الا بتداخل الدول وبتعهد السفراء بعدم تسليمهم للحكومة العثمانية

وتركهم يسافرون من الاستانة الي الخارج . وقد أحدثت هذه الحادثة هياجا عاما في الاستانة وكانت الطامة الكبرى على الارمن . ونادى عندئذ أعداء تركيا والاسلام بالويل والثبور ووجهوا الى الدولة العلية والى جلالة السلطان الاعظم سهام الملام والشتائم ولكن هؤلاء المتعصبين تجاهلوا ماحصل في كل بلاد أوروبا ومايحصل لو قامت فئة بالثورة في وجه الحكومة الشرعية . فماذا عملت انكلترا ضد ايرلندا عند ماثارت وماذا عملت وماذا تعمل ضد الهنود ؟ وماذا عملت فرنسا ضد الجزائر وماذا تعمل الآن لو ثار أهالي احدي مستعمراتها ضدها ؟ بل ماذا تعمل لو قام في فرنسا جماعة كاليهود مثلا وثاروا في وجه حكومة الجمهورية ؟

لا جرم ولا مراء في ان أهل تركيا من المسلمين معذورون اذا كانوا أجابوا على اعتداء الارمن عليهم وقيامهم في وجه الدولة العلية بالاعتداء عليهم فهذا واجب تفرضه عليهم الوطنية الحقة . وما ثوار الارمن في نظر المنصفين الا خونة قائمون بتنفيذ أوامر الاجنبي

وقد اتفقت الدول الاوروبية على وضع مشروع جديد للاصلاحات في أرمنيا وأخذ سفراؤها بالاستانة يتداولون من ٢٦ ديسمبر عام ١٨٩٦ الي ١٠ فبراير عام ١٨٩٧ . ولكن المسئلة الكريدية خلقتها يد الدسائس البريطانية فأنست أوروبا أرمنيا ومسئلتها

هذا مجمل تداخل الدول في مسئلة الارمن أتينا عليه بالايجاز

* * *

لقد أنتجت الحوادث الارمنية عدة نتائج خطيرة . فأثبتت ان انكلترا

هى أشد الدول كراهة للدولة العلية وللاسلام وأكثرها رغبة في هدم السلطنة العثمانية وتقويض أركان الخلافة الاسلامية وأبانت للذين كانوا يظنون انكلترا الصديقة الطبيعية للدولة العثمانية انها العدوة الحقيقية الخداعة التي تلبث ثياب الصداقة طورا وثياب العداوة طورا آخر عاملة فى الحالتين على الاضرار بالدولة العلية وعلى إضعاف نفوذ المسلمين . ولم يبق ريب بعد الحوادث الارمنية ووقوف العالم أجمع على دسائس الانكليز فيها فى ان انكلترا كانت تريد حل المسئلة الشرقية بتقسيم الدولة العلية وانها لبلوغ هذا الغرض طلبت من الدول الاوروبية دخول البوسفور بالقوة وخلع جلالة السلطان الاعظم قهراً . وقد فاه بهذا التصريح الخطير المسيو (هانوتو) وزير خارجية فرنسا حيث قال فى مجلس النواب الفرنساوى للمعترضين على سياسته ما معناه :(ماذا كنتم تقولون لو كنا قبلنا طلب الدولة التى سألت أوروبا دخول البوسفور بالقوة وانزال جلالة السلطان من علوة مقامه وخلعه من ملكه ؟) وما انتشرت هذه الخطبة فى أوروبا حتى قالت الجرائد كلها واعتقد الناس كافة ان المسيو (هانوتو) قصد بعبارته هذه انكلترا . ولم يزد انكار وكيل خارجية انكلترا هذا الاعتقاد الا ثبوتا

وقد برهنت الحوادث الارمنية على ان انكلترا هى عدوة المسيحيين في الشرق . فهي وحدها المسؤولة عن دماء الذين ماتوا من الارمن ضحية لسياستها وفريسة لاغراضها . وإن المسئلة الارمنية لدرس مفيد للمسيحيين في الشرق يرشدهم الى ان اتباع الايعازات الاجنبية ضار بهم كل الضرر وان سلامتهم وسلامة أبنائهم من بعدهم هى فى التعلق بالدولة العلية

والاخلاص في خدمتها . وان ذكرى الحوادث الارمنية تجعلنا نؤمل حصول الاتفاق التام والوفاق السليم بين المسيحيين والمسلمين فى كافة انحاء المملكة العثمانية . فقد وجب على بنى الدولة جميعاً أن يخدموا الوطن العثماني بالاتفاق وأن يتحدوا ضد الاجنبي فالدين الاسلامي والدين المسيحي متفقان على وجوب خدمة الوطن وعلى ان كل من يعمل ضد وطنه يكون خائناً ليس أحط منه فى طبقات الهيئة الاجتماعية أحد

وكان من نتائج الحوادث الارمنية ان أوروبا فقدت ثقتها بانكلترا ووقفت لها فى كل أمر بالمرصاد . إذ تبين لها ان سواس بريطانيا يريدون اصطلاء نيران الحرب العامة فى أوروبا لتبقى انكلترا على الحيادة وتستفيد كما تبتغى . ولولا ارتياب الدول الاوروبية في نوايا انكلترا الكانت قامت الحرب فى أوروبا وانتشر لهيب الهيجاز والحرب من اليونان الي البلقان. ولا شك ان هذه النتيجة خطيرة فى السياسة الدولية فبسوء ظن الدول بانكلترا تسلم أوروبا من الحرب ومن عواقبها الوخيمة وتسلم الامم من الوقوع فى شراك الدسائس الانكليزية وبالجملة يسلم العالم بأسره

وما علم المسلمون بحقيقة المسئلة الارمنية وبدسائس الانكليز ضد الخلافة الاسلامية حتى أظهروا تعلقهم الشديد بجلالة الخليفة الاعظم ونادوا جميعاً بالاخلاص لسدته والاستعداد للدفاع عن عرشه الجليل . وهذه النتيجة لم تكن للانكليز فى الحسبان فقد ظنوا انهم ببعض الخوارج يستطيعون تنفير المسلمين من صاحب الخلافة العظمى فشجعوا فريقاً من أعداء جلالة السلطان يدعى رجاله انهم مسلمون وماهم فى الحقيقة الا خوارج لا دين

لهم ولا مذهب . ولكن المسلمين ليسوا بسذج يستطيع الانكليز ان يخدعوهم لهذا الحد فقد ثبتوا فى اخلاصهم الصادق للامام الاعظم والتفوا أجمعين حول رايته الاسلامية وأثبتوا بذلك على ان الاعتداء على جلالة الخليفة اعتداء على المجموع الاسلامى وان الطاعنين في جلالة الخليفة طاعنون فى الاسلام نفسه

وقد كان اللورد سالسبورى يتباهى فى الخطبة التى ألقاها بجيلدهال يوم ٩ نوفبر عام ١٨٩٥ بأن مسلمي الهند من أصدق رعايا جلالة الملكة. فما بال الانكليز ينسبون الآن ثورة الهند لمساعى جلالة السلطان الاعظم ولنفوذه عند المسلمين . أهل كانوا يجهلون هذا النفوذ العظيم يوم كانوا يطعنون على جلالته الطعن السافل ويدسون ضد حكومته الدسائس العديدة ويقترحون على دول أوروبا خلع جلالته بالقوة والقهر؛

ومن النتائج الخطيرة التى انتجتها الحوادث الارمنية ظهور جلالة السلطان الاعظم أمام العالمين بمظهر السياسى النادر المثال والسلطان الامين على مصالح رعاياه .فقد توالت زوابع الحوادث الارمنية وصواعقها وجلالة السلطان الاعظم ثابت ثباتا عجيبا لا يهتز كرسى ملكه لاكبر حادثة ولا لاعظم تهديد.والذين كانوا يجهلون قدرة جلالة السلطان الاعظم وسطوته ومهارته كان يخيل لهم عند قراءة الجرائد الانكليزية أيام الحوادث الارمنية ان حكم جلالته قارب الانتهاء بل ان الدولة نفسها قاربت الزوال .ولكن السياسة الحميدية النبيلة فازت بالنجاح والفلاح وانقذت الدولة العثمانية والاسلام من اكبر الاخطار وأشد البلايا حتي ان المستر (غلادستون) زعيم اعداء

المسلمين اعترف بأعلي صوته «بان السياسة الحميدية تغلبت على السياسة البريطانية وقهرتها فى المسئلة الارمنية»

وان عناية جلالة السلطان الاعظم بدولته العلية وبالاسلام تفرض على العثمانيين كافة والمسلمين عامة ان يخلصوا لسدته الشاهانية الاخلاص الصادق الاكيد وان يعاونوا جلالته على إصلاح الاحوال ودفع النوائب والاخطار حتى يعود للدولة العثمانية مجدها القديم ويلبس الاسلام ثياب العز والرفعة السرمدية

اللهم احفظ جلالة السلطان الاعظم والخليفة الاكبر الغازي ﴿ عبد الحميد الثانى ﴾ وحقق على يديه آمال العثمانيين والمسلمين وأنقذ مصر بلادنا العزيزة من أيدى الانكليز واحفظ لها فى ظل جلالة مولانا السلطان الاعظم سمو الخديو المحبوب ﴿ عباس حلمى باشا الثاني ﴾ . انك سميع مجيب

خطأ وصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٠	٠٤	لامتثال	بالامتثال
١٣	٠٦	يجوز	بجود
٢٢	٠١	تدبر أمورها	تدبرها
٢٢	٠٣	مستقيل	مستقبل
٢٤	٠٩	فوبدريك	فريدريك
٢٥	٠٩	جبدهم	جهدهما
٢٦	٠٨	من الاستانة	فى الاستانة
٢٩	١٠	تشجع	كانت تشجع
٣٠	١٨	مذاكراته	مذكراته
٣٣	٠٣	اكتوير	اكتوبر
٣٤	١٣	شوزيل	شوازبل
٣٨	١٣	على احباط	في احباط
٤٠	١٨	الجرب	الحرب
٤٣	٠١	لاتقاق	الاتفاق
٤٤	٠٥	سيبا	سيا
٥٠	٠٨	استغلال	استقلال
٥٥	٠١	عظبم	عظيم
٦٤	١٨	لدنيئة	الدنيئة

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٠٦٥	٠٦	السرقة	السرقة
٠٦٧	٠٣	تهديها	تهديدها
٠٧٤	٠٦	الانكليزيان	الانكليزيين
٠٧٥	٢٠	لويلان	لوبلان
٠٨٤	٢٠	حبر	حير
٢٠٣	١١	ساقب	ساف
٢٠٣	٠٩	ومالا	مالا
٢٠٣	١٦	وعده	عدده
٢٢١	١٢و١٣	لم يسافرا وتقابلا	بعدان سافرا تقابلا

فهرست

صحيفة